

مطارحات في العمق



زمان الحسناوي


شبكة الفكر
alfeker.net



زمان الحسناوي

الدين والإلحاد مطارحات في العمق

تأليف: زمان الحسناوي

الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ بيروت ٢٠١٩

عدد النسخ: ١٠٠٠

البيع والتوزيع: النجف الأشرف – سوق الحويش- مكتبة الآداب الشرقية

تصميم وإخراج: علي الحسناوي

من كلام لإمام العلم والعلماء جعفر بن محمد الصادق عليه السلام مع طبيب ملحد:

أخبرني هل أحطت بالجهات كلها وبلغت منتهاها؟

قال: لا. قلت: فهل رقيت إلى السماء التي ترى؟ أو انحدرت إلى الأرض السفلى فجلت في أقطارها؟ أو هل خضت في غمرات البحور واخترقت نواحي الهواء فيما فوق السماء وتحتها إلى الأرض وما أسفل منها فوجدت ذلك خلاء من مدبر حكيم عالم بصير؟ قال: لا. قلت: فما يدريك لعل الذي أنكره قلبك هو في بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك.

قال: لا أدري لعل في بعض ما ذكرت مدبراً، وما أدري لعله ليس في شيء من ذلك شيء![1].

وروي أن الصادق عليه السلام قال لابن أبي العوجاء: إن يكن الأمر كما تقول- وليس كما نقول - نجونا ونجوت وإن يكن الأمر كما - نقول وهو كما نقول - نجونا وهلكت[2].



(١) البحار، ج٣، ص١٥٥.

(٢)الاحتجاج ٢، ص٧٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وأتم الصلاة والتسليم على سيد الخلق أجمعين محمد وآله الأطيبين الأطهرين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين.

وبعد..

أولاً: إن أول ما يحتاجه الإنسان للإنطلاق نحو برّ الأمان المعرفة الصحيحة.

والمعرفة هي الإطلاعُ على شيءٍ وعلمٌ بخصوصياته وآثاره، وهي أخص من العلم، فإن المعرفةَ تمييزُ الشيء عما سوّاه، وعلمٌ بخصوصياته، فكل معرفة علم ولا عكس[1]، يقول باب مدينة العلم علي بن أبي طالب عليه السلام (يا كميل: ما من حركة إلا وأنت محتاجٌ فيها إلى معرفة)[2]، ويقول إمام آخر من أئمة أهل بيت العصمة والطهارة: (بعضكم أكثر صلاة من بعض، وبعضكم أكثر حجاً من بعض، وبعضكم أكثر صدقة من بعض، وبعضكم أكثر صياماً من بعض، وأفضلكم أفضل معرفة[3]).

وللمعرفة منابع وشرائط وموانع وأقسام ودرجات ومراتب، نمرّ على كل ذلك بشكل سريع ومختصر بعون الله تعالى.

أ- منابع المعرفة: قال تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٨، ص١١٧.

(٢) البحار، ج٧٤، ص٢٦٧.

(٣) ميزان الحكمة، ج٥، ص٤٣٣.

(النحل: ٧٨)، إن الآية الكريمة تنفي علم الإنسان التفصيلي بالأشياء عند مجيئه للدنيا، وهذا لا يمنع من وجود معرفة اجمالية مركوزة بالفطرة الإنسانية تشعر صاحبها باحتياجه وفقره وفاقته إلى حيٍّ قادر غنيٍ قوي ... وهذا ما أشار له قوله تعالى: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم: ٣٠)، وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف:١٧٢)، وهذه المعرفة الفطرية الإجمالية عبرت عنها روايات أئمة آل البيت عليهم السلام بأن المعرفة من صنع الله عز وجل في القلب[1]، لكن لا يمكن للإنسان أن يكتفي بهذه المعرفة الإجمالية ولهذا فهو بحاجة إلى الأنبياء، والأئمة، والحجج، والكتب السماوية، ليحصل من خلالهم على تفصيل ما أجمل، كل هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الآية الكريمة بيّنت منابع المعرفة الإنسانية المادية والمعنوية بأكمل صورة كما هي عادة القرآن الكريم.

ب- شرائط المعرفة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الحديد: ٢٨).

إن تقوى الله تعالى له آثارٌ كثيرة في تراثنا الديني، ومن أهم آثاره ما بينته هذه الآية الكريمة من الوصول إلى درجة يكون الإنسان فيها

(١) البحار، ج٥، ص٣٠.

قادراً على تمييز الصحيح من السقيم والغث من السمين من خلال عناية إلهية خاصة، وعلى ذلك تكون حركته باتجاه صحيح على أساس تلك الحالة التي وصل إليها.

ج-موانع المعرفة: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (الدخان: ٢٣). (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين: ١٤).

لقد بيّنا قبل قليل أثر التقوى الإيجابي على الإنسان في حياته، وبالمقابل فإذا ما تخلى عنه تركته تلك الحالة بشكل تلقائي وبذلك يكون الإنحراف مسيره والضلال مصيره.

د-أركان المعرفة:

١- المعلوم.

٢- العالم.

٣- العلم.

هـ - منكرو المعرفة: إن منكري المعرفة على قسمين:

١- المجموعة الأولى: هي التي تنكر أي نوعٍ من أنواع المعرفة، وأصحابها يسمون بالسفسطائيين الشكاكين.

٢- المجموعة الثانية: وهي التي تنكر المعرفة خارج حدودٍ خاصة، وأصحابها يسمون بالماديين الحسيين.

و-المعتقدون بها: وهم على قسمين أيضاً:

١- الذين يرون أن طرق المعرفة منحصرة بالحس والعقل فقط، فبالحس يعرف عالم الشهادة وبالعقل يعرف عالم الغيب.

٢- الذين لا يرون طرق معرفة الإنسان محددة بهذين الأمرين، بل قالوا أن للتهذيب والتزكية دوراً كبيراً جداً لمعرفة الحقائق، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: (...اتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ...) (البقرة: ٢٨٢) ، (...إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً...) (الأنفال: ٢٩).

وهذا يذكرنا بإشكالية قديمة جديدة طرحت على طاولة البحث والحوار منذ القدم حتى الآن، خلاصتها: هل أن وصولنا لليقين الذي خلقنا لأجله يكون من خلال العقليات فقط كما ذهب إلى ذلك أكثر الفلاسفة أو من خلال التجريبيات والأستقرائيات كما يذهب إلى ذلك أبناء المادة اليوم، أو أن الاستفادة من كل واحدٍ منهما صحيح في مجاله مع احتياجنا إلى رافدٍ ثالث لا نصل للحق واليقين إلا من خلاله وهو الوحي ومن دونه نحصر أنفسنا في عالم المادة الذي يراه رسول الله ﷺ سجناً للمؤمن[1]، يقول تعالى: (فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون) (سورة غافر: ٨٣)،

---

(١) البحار، ج٦، ص١٥٤.

ومن الجلي أن الرأي الإسلامي الجامع للمشارب هو الرأي الصائب.

ز-إن رأس المعرفة في التراث الديني معرفة الله تعالى، يقول علي عليه السلام: (معرفة الله سبحانه أعلى المعارف)[1]، ويقول أيضاً عليه السلام: (أول الدين معرفته)[2].

ح-للعلم والمعرفة أقسام:

أ- حصولي كسبي.

ب- حضوري شهودي.

والعلم الحضوري الشهودي على قسمين أيضاً:

١- شهودي جزئي: وهو لا يقود إلى أمر وراء نفسه عادة، ومثاله الأبرز في القرآن الكريم بلعم بن باعوراء الذي قال الحق فيه: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الأعراف: ١٧٥-١٧٦).

٢- شهودي كلي: يقود إلى أمر وراءه مثاله الأبرز باب مدينة العلم علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث قال في:

---

(١) غرر الحكم، رقم ٩٨٦٤.

(٢) نهج البلاغة، خ١.

أ-شهود المبدأ: (ما كنت أعبد رباً لم أره قال ذعلب يا أمير المؤمنين كيف رأيته، قال: يا ذعلب لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)[1].

ب-شهود المعاد: قال عليه السلام: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقينا)[2].

ت-شهود الوحي: حيث قال له رسول الله صلى الله عليه وآله: (إنك ترى ما أرى، وتسمع ما أسمع، إلا أنك لست بنبي بل وزير)[3]، علماً أن أثراً من آثار هذه المعرفة والشهود جعلت يعقوب يقول: (إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ) (يوسف:٩٤)، من مسافة عشرة أيام فتنبه.

ط- مراتب المعرفة:

١- المعرفة التقليدية: وتتحقق بالسماع أو التقليد للغير من دون الرجوع إلى الدليل، مثالها: من سمع أن في الوجود ناراً محرقة وصدق بذلك.

٢- المعرفة الكسبية: وتحقق بالنظر والاستدلال، مثالها: معرفة من وصل إليه الدخان وعلم أنه لابد من مؤثر فحكم بوجود حقيقة لها أثر وهو الدخان.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤، ص٥٢.

(٢) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣١٧.

(٣) نهج السعادة، ج٧، ص٣٣.

٣-المعرفة الشهودية: وتتحقق بالمشاهدة، ومثالها: من أحس بحرارة النار وشاهد الموجودات بنورها.

٤- المعرفة العينية: وتتحقق ببلوغ الشيء والانقطاع إليه، مثالها: من احترق بالنار بكليته وتلاشى فيها.

ي- لقد ذكر القرآن الكريم إبراهيم الخليل عليه السلام كمثال على طلب العلم والمعرفة حسب نظام أولويات دقيق للغاية.

١- فإبراهيم عليه السلام طلب معرفة المبدأ أولاً (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة الأنعام: ٦٧-٧٨).

٢- فلما انتهى وفرغ من ذلك انتقل إلى معرفة المنتهى (الرجوع إلى الله) (أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة البقرة:٢٦٠).

٣-فلما انتهى من المبدأ والمنتهى اشتغل بالتعليم والتبليغ والمناظرة لإيصال الناس إلى الله تعالى، وهذه بعض النماذج من مناظراته المباركة.

أ- مع عمه: (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا) (سورة مريم: ٤٢).

ب-مع قومه: (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (سورة الأنبياء: ٥٢).

ت-مع ملك زمانه: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة البقرة: ٢٥٨) ، وغير ذلك.

ولا عجب فأهل العلم والمعرفة يدعون إلى الله تعالى من خلال المناظرات والاحتجاج حتى في يوم القيامة كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (سورة الروم: ٥٥-٥٦).

تبقى مسألة مهمة وهي حين يطرح القرآن الكريم تأريخ إبراهيم الخليل عليه السلام أو نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله أو غيرهما من الأنبياء والأئمة والحجج الإلهيين إنما يطرح ذلك لأنهم

النموذج الأفضل والأكمل للاقتداء والتأسي علماً أن القرآن الكريم يطرح هذه النماذج بطريقتين.

١- نموذج إيحائي: من خلال وصف أو كلمة أو فعل معيّن يعطي معلومة معينة بشكل غير مباشر (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ) (سورة الزمر: ٣٩)، فالصابرون والمفلحون أوصاف عامة تعطي إيحاءات بالاقتداء بها لمن يريد الدخول تحت عنوانها، وهكذا حين يذكر الكافرين للابتعاد عنهم.

٢- نموذج حقيقي: بأن يذكر اسماً معيناً أو يشير إليه ليكون قدوة للسامعين والقارئين، وهو على قسمين أيضاً:

أ- النموذج الحقيقي الصالح: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (سورة الاحزاب: ٢١)، (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (سورة النحل: ١٢٠)، (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا) (سورة مريم: ٥٤).

ب- النموذج الحقيقي غير الصالح: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: ٢٦٨)، (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ

أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (سورة القصص: ٤)، (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (سورة الجمعة:٥).

ك-أخيراً: قيل بأن الله تعالى تعرّف إلى:

١- العامة بخلقه.

٢- الخاصة بصفاته.

٣-الأنبياء والأئمة وخاص الخاص بذاته.

فنظر العوام بالمصنوعات ومن خلالها إلى الصانع، ونظر الخواص بالصفات ومنها إلى الموصوف، كما أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة فلم يعرفوها فوصفها لهم ليعرفوها، ونظر الأنبياء والأئمة بالذات ليعرفوه به بل وليعرفوا غيره به أيضاً (بك عرفتك وأنت دللتني عليك)[1]، يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) (سورة الفرقان: ٤٥) فلم يقل إنظر إلى الظل حتى ترى صنعنا، بل قال أنظر إلينا لتنظر صنعنا.

---

(١) من دعاء لسيد الساجدين وزين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، إقبال الأعمال، ج١، ص١٥٧.

ثانياً: أما الأمر الثاني الذي يحتاجه الإنسان من بعد المعرفة هو العمل بمقتضى المعرفة الصحيحة، وهنا أمورٌ لابد من بيانها على جناح السرعة:

أ- العمل ما يكون واقعاً في الخارج من الفعل إذا لوحظ من حيث هو واقع ومتحقق[1].

ب-إن العمل في ثقافة القرآن الكريم يستعمل في الأعمال الصالحة والسيئة، ومطلق العمل أيضاً.

١- **العمل الصالح:** كما في قوله تعالى: (وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجرًا كَبِيرًا) (الإسراء: ٩)، أو قوله: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (سورة الرعد: ٢٩).

٢- العمل السيء: (فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (سورة القصص: ٨٤)، (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ) (سورة العنكبوت: ٤).

٣-ومطلق العمل (وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (سورة هود: ١١١)، (...لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ...) (سورة القصص: ٥٥)، وقد يطلق العمل على الفعل المقصود: (أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة سبأ: ١١)

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٨، ص٢٧٣.

(لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (سورة يس: ٣٥) .

ج-يقول صاحب كتاب التحقيق في كلمات القرآن الكريم: وكل عمل صالحاً أو سيئاً فله أثر طبيعي وأثرٌ جزائي وإلهي، والعمل الصالح مرحلة أولية من مرحلتي الكمال والسعادة الإنسانية، ويوجب صفاء ونقاء وطهارة في الحواس والأعضاء الظاهرية (فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (سورة الكهف: ١١٠).(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) (سورة الجاثية: ٣٠)، (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ) (سورة النحل: ٩٧)، والمرحلة الثانية خلوص الباطن وإخلاص القلب وتزكية النفس، وهو المراد بقوله (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (سورة الكهف: ١١٠)، وأما العمل السيء فهو يمنع عن التوبة، والتوجه إلى الله تعالى... وما له من الحياة إلا حياة حيوانية مادية وعيش ظاهري بدني (...إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ) (سورة يونس: ٨١)، نعم إن العمل السيء لا يزيد صاحبه إلا بعداً وخسارا، ولا يجزى إلا بمثله (وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) (سورة الزلزلة: ٨)، (...كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) (سورة البقرة: ١٦٧)[1].

---

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٨، ص٢٧٤-٢٧٥.

د-إن الإسلام حثّ على العمل الصالح كثيراً قال تعالى: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى) (سورة طه: ٧٥)، ويقول مولى الموحدين وباب مدينة علم النبيين علي أمير المؤمنين عليه السلام: (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل... يحب الصالحين ولا يعمل عملهم)[1].

هـ-لعل سائلاً يسأل هل بيّن الإسلام أهم الأعمال التي على الإنسان أن يأتي بها ليكمل مسيرته إلى كماله المنشود، الجواب: نعم، وهذه باقة من روايات المعصومين التي تبيّن هذا الأمر:

١- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (سيد الأعمال ثلاث خصال، إنصافك الناس من نفسك، ومواساتك الأخ في الله عز وجل، وذكر الله تعالى على كل حال)[2].

٢- قال الإمام الصادق عليه السلام: لما سأل عن أفضل الأعمال (الصلاة لوقتها، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله عز وجل)[3].

و-أخيراً: فقد لخصّ القرآن الكريم كل ما قلناه وغيره بقوله: (وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) (سورة العصر: ١-٣)، فأهل المعرفة والعمل والتواصي ربحت تجارتهم في الدنيا والآخرة لأنها كانت

---

(١) نهج البلاغة، الحكمة ١٥٠.

(٢) البحار، ج٩٣، ص١٥٠، ح٣.

(٣) الكافي الشريف، ج٢، ص١٥٨، ح٤.

مع الله تعالى (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) (سورة الصف: ١٠).

ثالثاً: أما ما يحتاجه الإنسان ثالثاً هو الاستقامة والدوام والاستمرار على العمل الصالح الناجم من المعرفة الصحيحة، وهنا مسألة مهمة لابد من بيانها، إن بعض الناس لم يعرفوا أساساً وهؤلاء على قسمين:

القسم الأول: هم الذين لم يعرفوا قصوراً وبذلك نترك مصيرهم إلى الله تعالى، كما قال هو في كتابه الكريم: (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّهِ...) (سورة التوبة: ١٠٦)، وهؤلاء ينطبق عليهم أيضاً بعض آيات الاستضعاف، وروايات تفصل حالهم لها مجال آخر بعون الله تعالى.

القسم الثاني: الذين لم يعرفوا تقصيراً ولهذا لم يتبعوا الحق، ومصير هؤلاء سيكون إلى نار جهنم أجارنا الله وإياكم منها.

والبعض الآخر: عَرِفَ الحق ولم يعمل بمقتضاه وهؤلاء سيكون مصيرهم إلى جهنم أيضاً.

وبعضٌ عرف وعمل ولم يستقم على الحق إلى آخر الشوط ومصيره سيكون إلى عذاب الله تعالى، وهنالك من عرف وعمل واستقام وهؤلاء سيكون مصيرهم إلى (...جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (سورة آل عمران: ١٣٣) بإذن الله تعالى، تبقى أمورٌ أخرى نمر عليها سريعاً.

أ-إن ثلاثية المعرفة والعمل والاستقامة لا يمكن تفكيكها والإتيان ببعضها وترك البعض الآخر (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) (سورة

الحجر: ٩١) (...أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...) (سورة البقرة: ٨٥) من جهة ولا يمكن تغيير ترتيبها الدقيق من جهة أخرى فلابد للإنسان أن يعرف أولاً وأن يعمل ثانياً وأن يستقيم ثالثاً.

ب-لأهمية موضوعة الاستقامة أكد عليها القرآن الكريم عبر ألسنيات متعددة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- الاستقامة والإقامة: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ...) (سورة فصلت: ٣٠)، (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة الأحقاف: ١٣)، (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ) (سورة المائدة: ٦٦)، (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا) (سورة الجن: ١٦)، (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)، وغير ذلك.

٢- عدم التبديل: (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا) (سورة الأحزاب: ٢٣).

٣-عدم الوهن والضعف والاستكانة: (...فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ...) (سورة ال عمران: ١٤٦).

٤- عدم الزيغ: (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) (آل عمران:٨).

ج-الاستقامة هي الاعتدال، وسلوك الطريق القويم، والثبات عليه، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر

الأخلاق، أما الإقامة: الاستقرار، يقال أقام بالمكان إقامة ومقاماً، أي لبث واستقرّ.

الخلاصة: حقيقة الاستقامة عدم الاعوجاج والميل.

د-لقد اقترن مصطلح الاستقامة في القرآن الكريم بمصطلح آخر، وهو الصراط حتى أصبحا كالمترادفين فقيل: الصراط هو الطريق المستقيم (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة الأنعام: ١٥٣)، ومن آيات الاقتران: (اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ) (الفاتحة: ٦)، (لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)، (هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)، وغير ذلك.

هـ-الحكم التشريعي للاستقامة: لقد ورد في كثيرٍ من الآيات بصيغة الأمر الظاهرة في الوجوب كما هو مقرر في محله في علم أصول الفقه (فَاسْتَقِيمَا)، (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرتَ)، (فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ)، (هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ).

و-ثمرات الاستقامة في القرآن الكريم: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) (سورة فصلت: ٣٠)، (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة الأحقاف:١٣)، (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا) (سورة الجن: ١٦)، ويمكن تلخيص الآثار بالآتي:

١- عدم الخوف.

٢- عدم الحزن.

٣- البشارة الثالثة (أَبْشِرُوا بِالْجَنَّة).

٤- البشارة الرابعة (نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ).

٥- البشارة الخامسة (لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ).

٦- البشارة السادسة (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ).

٧- البشارة السابعة (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ).

٨- بركات مادية ومعنوية (لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا)

ز-ولعل سؤالا يفرض نفسه بعد كل ما مرّ، على ماذا تكون الاستقامة؟ نحيل السؤال إلى باب مدينة العلم علي بن أبي طالب عليه السلام ليأتينا جوابه المبارك: العمل العمل ثُم النهاية النهاية والاستقامة الاستقامة... قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ...) وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته ثم لا تمرقوا منها، ولا تبتدعوا فيها ولا تخالفوا عنها)[1].

ح-إن الإنسان يسير في الدنيا بتعب ومشقة (...إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (سورة الانشقاق: ٦)، أما المؤمن فيها فيضاف له من ذلك ضريبة الحق الذي اعتقد به واتبعه وسار على هداه (تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (سورة الأنفال: ٧)، ولهذا فما عليه إلا

---

(١) نهج البلاغة، خطبة ١٧٦.

التحمل والدوام والاستمرار والاستقامة على أمر الحق الصعب المستصعب الذي لا يحتمله إلا ذو حظ عظيم.

ط- أما إذا لم ينجح في ذلك فليس أمامه إلا طريق الانحراف والضلال وقد أعطى القرآن الكريم صورة كاملة عن هذا الطريق الذي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك، وهنا أجد من الضروري أن ألقي ضوءاً على بعض فصوله بعون الله تعالى.

تأريخ الإنحراف وأنواعه في القرآن الكريم

إن الإنحراف قديم بقدم وجود الإنسان على وجه الأرض في ثقافة القرآن الكريم وقد بيّن ذلك بشكل مفصل ومنوع وعبر دوائر تضيق وتتسع، وعلى أقوام اختلفت مشاربهم الفكرية، وشرائعهم الأديانية، ولكنهم توحدوا بالانحراف عن طريق الحق، ولكي أسيطر على المعلومات مع كثرة تشعباتها وتشققاتها أحببت أن أحصر البحث من خلال التقسيم الآتي مع ذكر بعض الشواهد لكل قسم من الأقسام:

أقسام الانحراف البشري في القرآن الكريم:

١- **إنحراف بشكل عام:** دائرته تتسع لكل الكافرين والمشركين والملحدين في الأرض من بداية الخليقة حتى نهايتها، أشارت له آيات عديدة منها على سبيل المثال: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ

لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) ، (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ)، (بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)، (وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)، (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) هذه عينات من آيات القسم الأول وهي تكشف انحرافات عدة في مجال التوحيد والمعاد والنبوة وتبني معايير خاطئة في التقييم وغير ذلك، وأبناء الإلحاد اليوم مشمولون بهذا القسم من الانحراف وسنبين ما يرتبط بذلك في الكتاب هذا وهو مُعَدٌّ لهذا الغرض بعون الله تعالى.

٢- **انحراف بشكل خاص:** وهو يشمل الذين تدينوا بشريعة سماوية حقة ثم انحرفوا عن مسارها المستقيم وحرفوا كثيراً من مبادئها، وإليكم بعض الآيات المرتبطة بذلك: (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ)، (لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً)، (أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ

وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، (يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً)، (يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً)، (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ)، (قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ)، (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)، (اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)، (وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)، (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ

بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)، (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)، والمتدبر في الآيات الكريمة يجد أن انحراف اتباع الشرائع السماوية أيضاً حصل في اتجاهات عدة كالتوحيد والنبوة والإمامة وتبني المعايير غير الصحيحة والمعاد وغير ذلك، مع فارق أن أبناء القسم الأول لم يعتقدوا بالله ورسوله والمعاد واعتبروا كل ذلك أساطير وتخرصات، أما هؤلاء فقد اعتقدوا بذلك في بداية الأمر لكنهم انحرفوا عنه في نهايته، والطريف إن القرآن أشار إلى خارطة انحرافاتهم في أكثر من مجال، فمرة انحراف بالتوحيد من خلال التجسيم والتشبيه ونسبة الولد لله تعالى والتقوّل عليه، وغير ذلك، وانحراف في النبوة من خلال الغلو في عيسى عليه السلام وأمور أخرى، وآخر في الإمامة من خلال معايير اعتمدها بنو إسرائيل وهي خاطئة، ومنها في المعاد حيث حتّم بنو إسرائيل على الله نجاتهم باعتبارهم ابناءه فأجابهم الحق تعالى: (فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)، ثم لم يكتفي القرآن بكل ذلك بل أشار إلى انحرافات فيها طابع جمعي كما في عبادة العجل من قبل بني إسرائيل، وأخرى بطابع فردي، واختار من الفردي عينات متنوعة فانحراف اقتصادي تمثل بقارون (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) وآخر معنوي صاحبه بلعم ابن باعورا (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ

الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)، وثالث يحمل طابع الشعوذة وتضليل الناس ومثاله السامري (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ) وهكذا.

٣-**انحراف بشكل أخص:** وقع فيه أكثر المسلمين بعد شهادة نبيهم ﷺ وتركهم لوصيه الحق علي بن أبي طالب عليه السلام وقد بيّن القرآن ذلك بألسنيات متعددة منها:

أ- الانقلاب: (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ)، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ).

ب- **الارتداد:** (وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، علماً أن حديث الراية الوارد في صحاح المسلمين كشف النقاب عن هوية الذين يحبهم الله ويحبونه وهم علي وأولاد علي عليهم السلام.

ت- **التفرق عن الحق:** (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ

وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)، (أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)،

ث- **الضلال:** وآياته كثيرة وعناوين أخرى كثيرة لها مجال آخر بإذن الله تعالى.

٤- **انحراف بشكل اخص الأخص:** وقع فيه بعض الشيعة بالمعنى الأعم، كالزيدية، والإسماعيلية، والواقفة، بل ووقع فيه أيضاً شيعة بالمعنى الأخص، وما أقصده بالمعنى الأخص أي شيعة إمامية من الأثني عشرية كالشلمغاني والعبرتائي وغيرهما، وها نحن اليوم نشهد انحرافات كثيرة في مجالات دينية متعددة منها، بل وعلى رأسها في المجال المهدوي المبارك، حيث ادعى البعض النيابة الخاصة للإمام بعد ثبوت انقطاعها من بعد النواب الأربعة، أو إدعاء القرب النسبي له عليه السلام وغير ذلك، أجارنا الله وإياكم من سوء الخاتمة وجعلنا مع الحق المتمثل بأهل الحق محمد وآله في الدنيا والآخرة.

رابعاً: بعد هذه الرحلة الطويلة مع الثلاثية الذهبية (المعرفة – العمل – الاستقامة) يتبين سبب اختياري لعنوان مهم كهذا (الدين والإلحاد مطارحات في العمق) ليطرح على المنبر الحسيني الشريف من خلال موسمين رمضانيين مباركين في بصرة الولاء لمحمد وآله عليهم السلام، خصوصاً وأن البعض قد عمل على نشر بعض أفكار الإلحاد في هذه الفترة الزمنية، فانبرى له أهل الحق بالحق، فانتهى أمره سريعاً ولله

الحمد والمنة (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاس فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ).

خامسا: إن هذا الكتاب كما هو كتاب (المعاد من هدي القرآن والعترة) هو عبارة عن محاضرات رمضانية استمرت لعامين (١٤٣٧-١٤٣٨هـ) وقد كتبت ونضدت من قبل أخت مؤمنة (سكينة عبد الحسين الخافوري) الدرجة العلمية (بكلوريوس هندسة كهربائية) وأرسلت إليّ عبر مواقع التواصل الاجتماعي الرسمية الخاصة بي، فاستلمت الملف وأجريت عليه تعديلات لازمة مع تصحيح وتقويم وتحقيق قدر المستطاع ولكن يبقى أن أصل المادة هي مادة منبرية انشأت على شكل محاضرات إلقائية ثم حولت إلى طريقة التأليف الورقي، وكما قلت في مقدمة كتاب المعاد اكرر هنا (ما رأيتم فيه من سداد وإحكام فهو من القرآن الكريم والعترة الطاهرة، وما رأيتم فيه من خلل فهو مني فأنا القاصر العاجز الذي لا يعرف من أين يمسك القلم).

سادساً: واقتبس من مقدمة كتاب المعاد ما يلي أيضاً: (إن مادة المحاضرات المنبرية تكون عادة مأخوذة من القرآن الكريم والعترة والتأريخ ونتاج العلماء) إضافة إلى تأملات المتحدث نفسه وما يصل إليه فكره فهي خليط مبارك شبيه بخلطة النحل التي قال فيها تعالى: (ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فلا يقولن بعد ذلك أحد بأن هذه الفكرة موجودة في الكتاب الفلاني ولم تتم الإشارة إلى ذلك، أقول نعم فالخطيب الحسيني حين يهيء

موضوعاً ما، يستفيد من كل ما كتب في ذلك الموضوع وما قيل عنه ويضيف عليه لمساته الخاصة، كما هو الحال في هذا الكتاب.

سابعاً: أهدي كتابي هذا إلى أمهات المعصومين عليهم السلام وأخواتهم وبناتهم وأخص بالذكر منهم السيدة الجليلة الطاهرة حكيمة بنت الإمام الجواد عليه السلام والسيدة الطاهرة المباركة نرجس خاتون أم إمامنا وولي نعمتنا الحجة ابن الحسن المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) عسى أن يتقبلن مني هذا القليل بكرم البيت العلوي الطاهر (عادتكم الإحسان وسجيتكم الكرم)(١).

أقل خدمة الإمام الحسين عليه السلام

زمان الحسناوي

العراق / النجف الأشرف

٩ شعبان ١٤٤٠ هـ

---

(١) زيارة الجامعة الكبيرة لإمامنا علي الهادي عليه السلام.

التمهيد

إن قافلة الحضارة الإنسانية انقسمت عبر الزمن إلى مدرستين:

المدرسة الأولى: المدرسة المادية (الإلحادية).

أصحاب هذه المدرسة تبنّوا فكرة أن هذا الكون ليس له مبدأ (خالق) وليس له منتهى (آخرة) وان وجود البشر في هذا الكون عبارة عن ضياع في ضياع، فليس لهم هدف يقصدونه في حياتهم، وإنما هم يعيشون ليموتوا، وموتهم عبارة عن فناء، وهم من يطلق عليهم بالدهرية باعتبار أنهم حصروا وجودهم بالدهر فقط.

وقد أشار إليهم القرآن الكريم بقوله تعالى: { وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} (الجاثية: ٢٤).

وقد رد القرآن الكريم ادعاءهم هذا في ذيل الآية الكريمة (وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) من خلال وصفهم بالجهل، لأنهم اعتقدوا بهذا الاعتقاد من خلال الظنّ، وليس من خلال التفكر والتدبر والعقل. وبذلك هم تنكّروا لفطرتهم التي جبلهم الله تعالى عليها من وجود الخالق.

فهم أنكروا ذلك لعدم معرفتهم بما يجري بعد حياتهم وعدم معرفتهم بما هو مطلوب منهم بين المبدأ والمنتهى، والإنسان بطبيعته يكذّب ما يجهله أو ما لم يحط بعلمه، كما يعبر تعالى بقوله (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ..) (يونس: ٣٩).

فالإنسان عادة يُعادي ما يجهله، كما يقول الإمام علي عليه السلام: (النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا).[1]

وبهذا الرد يكون القرآن الكريم قد بيّن خارطتهم الحقيقيّة التي تقوم على أساس الشك وليس على أساس اليقين.

المدرسة الثانية: المدرسة الدينية (الموحدة المعتقدة بوجود الخالق).

أما أصحاب هذه المدرسة فقد اهتموا بالوجود وعرفوا أن لهذا الوجود موجِداً، ووجهوا اهتمامهم إلى معرفة الإنسان وحقيقته، وأنه جسد فقط أو روح فقط أو هو جسد وروح؟

ومن خلال تلك الدراسة توصلوا إلى حقيقة مهمة وهي: ان الإنسان –بل الموجودات الحية- يتكون من جسد وروح، وأن الروح هي من العالم المجرد الذي لا يفنى، ثم توصلوا إلى معرفة ان لهذا الموجود غاية لا بد له أن يصل إليها ويكون الخلود عندها، وهي إما أن تكون إلى الجنة أو إلى النار.

وعرفوا أيضاً: إن هذه النهاية مرتبطة بحكمة الله تعالى وعدله، وبذلك يكونوا قد اعتقدوا بوجود المبدأ وبوجود المنتهى (الآخرة)، وأن ذلك كله مرتبط بحكمة الله حيث إنه لا يخلق الخلق عبثا.

ومن خلال إيمانهم بالمبدأ والمنتهى عرفوا أنه لابدّ من وجود نظام خاص يُنظم حياة الإنسان بحيث يجعل بوصلته باتجاه الحق، وأنه لا

(1) نهج البلاغة، الحكمة رقم (172).

سبيل للتعرف على ذلك النظام إلا من خلال الوحي النازل على من اختصهم الله تعالى من أنبياء وأئمة وحجج إلهيين.

ومن خلال هؤلاء يصل الإنسان إلى النهاية بشكل سليم وصحيح إن اتبعهم.

ولذلك نُسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (رحم الله امرأ عرف من أين، وفي أين، وإلى أين)[1]، ونجد التوضيح لهذه الثلاثية في سورة الحمد العظيمة من خلال:

(الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ): حيث إنه فيها إشارة إلى المبدأ (من أين؟).

(مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ): إشارة إلى المنتهى (إلى أين؟).

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ): إشارة إلى السبيل (في أين؟).

التفاتة:

نلاحظ في سورة الحمد ان هنالك أناساً قد انعم الله عليهم وهم الصراط المستقيم الذي لا يضل من إتبعه ، فهل عرفنا من هم هؤلاء الذين انعم الله تعالى عليهم؟

نجد الجواب في قوله تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ

---

(١)الوافي للكاشاني _ج١ ص ١١٦) بلفظ: (رحم اللّه امرءً أعد لنفسه واستعد لرمسه وعلم من أين وفي أين وإلى أين.)

وَحَسُنَ أولئِكَ رَفِيقًا) (النساء: ٦٩)، فهذه الآية قد بينت أربعة أصناف للذين قد انعم الله تعالى عليهم، وهم:

١ - **النبيون:** ويشمل جميع الأنبياء من آدم عليه السلام إلى النبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

٢ - **الصديقون:** وهنا قد يسأل البعض: ان مقام الصديقين أيضاً يشمل الأنبياء لقوله تعالى (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا) (مريم: ٤١)؟

الجواب: ان إبراهيم عليه السلام لم يحُز مقام النبوة فقط وإنما تعدى ذلك فوصل إلى مقام الإمامة لقوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (البقرة: ١٢٤)، إذن، لما كان إبراهيم عليه السلام نبياً إماماً فهذا يعني أن مقام الصديقية لا يشمل الأنبياء فقط وإنما يتعدى ذلك ليشمل مقام الإمامة أيضاً.

وكذلك يمكننا إثبات ذلك من خلال حقيقة قرآنية أخرى وهي قوله تعالى: (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ) (الزمر: ٣٣)، ففي الروايات الشريفة ان الذي جاء بالصدق هو النبي المصطفى صلى الله عليه وآله أما الذي صدّق به فهو الإمام علي عليه السلام: ﴿عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: (وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ)، قال: (الذي جاء بالصدق: رسول الله صلى الله عليه وآله وصدّق به: علي ابن ابي طالب عليه السلام)﴾[1].

---

(١) البرهان في تفسير القران: ج٦، ص ٥٤١.

وبالتالي فإن الأئمة عليهم السلام هم أيضاً من الذين انعم الله عليهم بل هم الصراط المستقيم في سورة الحمد.

على أن مقام الصديقين لا يتوقف عند مقام الإمامة فقط بل قد يوصف به من له مقام الحجية الإلهية كما يعبر القرآن الكريم عن مريم عليها السلام: (...وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ...) (المائدة: ٧٥)، ومريم هي ليست من الأنبياء ولا من الأئمة وإنما هي من الحجج الإلهيين، وإذا كانت مريم وهي من الحجج الإلهية قد شملها هذا المقام، فكيف بسيدة مريم بل سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين فاطمة الزهراء عليها السلام فهي بكل تأكيد صديقة كبرى وهي أيضاً من الذين انعم الله تعالى عليهم وهي أيضاً صراط مستقيم، ولم لا وهي التي قال عنها المصطفى كما جاء في صحيح البخاري: فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»[1] ومريم من أهل الجنة فهي سيدتها، وبهذا نثبت ان فاطمة الزهراء عليها السلام هي صديقة كبرى وهي صراط مستقيم كما نقرأ في زيارة الجامعة الكبيرة (انتم الصراط الأقوم والسبيل الأعظم).

٣ - **الشهداء:** وهم الذين يشهدون على الأعمال.

يقول تعالى: (فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا) (النساء: ٤١).

وهناك عدة روايات تشير إلى هذا المعنى، ومنها التالي:

---

(١) صحيح البخاري: ج٤، ص ٢٠٩، ومثله - ص ٢١٩ (باب مناقب المهاجرين فضلهم).

عن سماعة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل (فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا). قال: (نزلت في امة محمد صلى الله عليه وآله خاصة، في كل قرن منهم إمام منا شاهد عليهم، ومحمد صلى الله عليه وآله في كل قرن شاهد علينا)[1].

وعن أبي بصير، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله (فَكَيْفَ إذا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاء شَهِيدًا)؟ قال: (يأتي النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة من كل امة بشهيد، بوصيّ نبيها، وأوتي بك - يا علي - شهيدا على أمتي يوم القيامة)[2].

فالشهداء الذين يشهدون على الأعمال هم أيضاً من الذين انعم الله عليهم وهم أيضاً صراط مستقيم.

٤ - الصالحون:

يمكننا أن نميز أوضح مصاديق الصالحين من خلال قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) **(الأنبياء: ١٠٥)**.

حيث روي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: (قوله عز وجل: (أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) هم آل محمد عليهم السلام)[3].

ومن خلال هذه الرواية نعرف ان العباد الصالحين هم محمد وآله الطاهرون عليهم السلام وهم الذين يرثون الأرض في الظهور والرجعة.

---

(١) الكافي ج(١) - ص ١٩٠، ح(١).
(٢) تفسير العياشي: ج(١) - ص ٢٤٢، ح(١٣١).
(٣) البرهان في تفسير القران: ج(٥) - ص ٢٥٦.

ومن خلال كل هذا يتبين: ان الذين انعم الله تعالى عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وعلى رأسهم محمد وآله الطاهرون عليهم السلام، وهم الذين عبر عنهم القرآن الكريم في قوله تعالى: (غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ) أي الذين لم يرتكبوا أي ذنب عملي، وقال عنهم أيضاً بنفس السورة (وَلاَ الضَّالِّينَ) أي لم يقعوا بأي انحراف فكري، وبذلك فهم معصومون وعصمتهم تكون قائمة على أساس عملي علمي[1].

المراحل التاريخية التي مرت بها الحضارة الإنسانية من خلال المدرستين (المادية والموحدة):

بيّنا ان الحضارة الإنسانية مرت بمدرستين، وكل مدرسة تبين نظرتها لتلك الحضارة، الان نتعرف على الرأي التاريخي لهاتين المدرستين بالنسبة للحضارة الإنسانية.

---

(١) أقول:

إن مدرسة الموحدين انتجت العديد من المدارس الفكرية المهمة، منها:

١ - المدرسة النقلية الكلامية.

٢ - المدرسة المشّائية العقلية.

٣ - المدرسة العرفانية الشهودية.

٤ - المدرسة الإشراقية العقلية الشهودية.

٥ - مدرسة الحكمة المتعالية وتسمى ايضا بالمدرسة الصدرائية نسبة الى مؤسسها الملا صدرا الشيرازي.

وكل واحدة من هذه المدارس تحتوي على العديد من الابحاث التخصصية المعمقة والتي لا يسعنا المجال لذكرها

ومن اراد المزيد من تلك الابحاث او الاطلاع عليها فليراجع كتب الالهيات.

أولا: المدرسة المادية.

إن هذه المدرسة حيث إنها لم تؤمن بوجود الخالق للكون، فإنها أخذت تبحث بحثاً مادياً عن تاريخ معين لبداية نشوء الحياة، ولم يبحثوا في تواريخ أعمق من الوجود على هذه الأرض، وقد اعتمدوا في بحثهم هذا على البحوث الآثارية، ولذا فقد أرّخت عمر الأرض عن طريق الاحفوريات (الآثار وغيرها) التي وجدها علماء الآثار، وكلما كانوا يكتشفون احفورية جديدة كان عمر الأرض يتغير مع تلك الاحفورية، فمرة قالوا: ان عمر الأرض يقدر ب(١٠,٠٠٠) سنة وذلك من خلال احفورية وجدوها عمرها كان يقدر ب(١٠,٠٠٠) سنة فأرخوا عمر الأرض من خلالها، ولكن بعد فترة من الزمن قالوا: ان عمر الأرض يعود إلى ما هو أكثر من ذلك، لأنهم وجدوا احفورية أقدم من الاحفورية الأولى وعمر تلك الاحفورية يعود لآلاف السنين فأرخوا عمر الأرض من خلالها، وبعد فترة من الزمن قالوا لا نستطيع ان نضع عمراً افتراضياً للأرض، لأننا في كل مرة نجد احفورية أقدم من الأخرى فما بالك بعمر الكون الذي انفصلت عنه الأرض.

فمن الطبيعي أن نجد التخبط واضحاً في تحديد عمره لدى أصحاب هذه المدرسة لأنهم لم يعتمدوا على شيء محدد وثابت لتحديده وبذلك يكون تحديدهم لعمر الكون غير سليم.

ثانيا: المدرسة الدينية.

أرّخت المدرسة الدينية (الموحّدة) بالاستعانة بالقرآن الكريم عمر الكون والأرض أو حضارة الإنسان من خلال عدة مراحل، تجاوزت التاريخ المادي إلى بدايات الخلقة قبل هذا العالم المادي، وهي:

المرحلة الأولى: مرحلة الخلافة.

وهي أولى مراحل الحضارة، حيث بدأت بخلق الإنسان الأول الذي كان مصدراً لانبثاق بني البشر منه، يقول تعالى: (...إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرضِ خَلِيفَةً...) (البقرة: ٣٠).

التفاتة:

هل المقصود بالخليفة في الآية الكريمة هو آدم عليه السلام؟ المشهور قيل: نعم، وهناك من قال: كلا، ليس المقصود من الخليفة في الآية هو آدم عليه السلام وإنما المقصود هو آدم الأول أو الصادر الأول وهو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي عُلّم الأسماء كلها، ويمكن إثبات ذلك قرآنيا حيث بيّن القرآن الكريم ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون سائر الأنبياء بأنه هو أول من اسلم حيث قال تعالى على لسانه الشريف: (...وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أول الْمُسْلِمِينَ) (الأنعام: ١٦٣) وكذلك قوله تعالى: (وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أول الْمُسْلِمِينَ) (الزمر: ١٢)، بينما قال على لسان بقية الأنبياء كنوح عليه السلام مثلا قوله تعالى: (...وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) (يونس: ٧٢)، وعلى لسان إبراهيم عليه السلام قوله تعالى: (...أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) (البقرة: ١٣١)، وبالتالي فإذا كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو أول من اسلم لرب العالمين فلا عجب من ان يكون هو آدم الأول الذي عُلّم الأسماء.

المرحلة الثانية: مرحلة عالمي الميثاق والذر[1].

يقول تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أنفسهم أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى...) (الأعراف:١٧٢).

عندما اخرج الله تعالى بني آدم من صلب آدم وهم أشياء صغيرة بحجم الذرة التي لا ترى اخذ منهم العهد والميثاق على العبودية، وبذلك يكون تعالى قد جبلهم على الفطرة وعلى أنهم عباد وان هناك رباً خلقهم وسوف يعودون إليه في يوم من الأيام.

صحيح أنه يمكن لأي أحد أن يُنكر هذه الفطرة بلسانه، ولكنه لا بد أن يرجع إليها ويُظهر حقيقة ما في داخله، خصوصاً إذا دهته نائبة أو صار في موقف صعب، فحتى فرعون الذي ادعى الربوبية كما أشارت إلى ذلك العديد من الآيات القرآنية كقوله تعالى (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعات: ٢٤)، وقوله تعالى (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...) (القصص: ٣٨) لكنه لم يستطع ان ينكر تلك الفطرة كما أشارت إليه الآية التي ذكرت حاله عندما أدركه الغرق، قال تعالى (حَتَّى إذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسرائيل وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) ﴿يونس٩٠﴾.

ونجد هذا جليا وواضحا في قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلأُ من قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرض وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...)

---

(١) بعض العلماء لا يفرق بين عالمي الذر والميثاق فيقول انهما عالم واحد، ولكن البعض الاخر قالوا بأنهما عالمان مختلفان فالذر عالم والميثاق عالم اخر.

(الأعراف: ١٢٧)، والسؤال إذا كان فرعون هو الإله الأعلى أو الرب الأعلى فما معنى قوله تعالى عن لسان الملأ (ويذرك والهتك) فليس هناك إلا جواب واحد وهو ان فرعون كان يعبد أصناما في الخفاء ويتخذ من تلك الأصنام آلهة له، وهذا دليل على ان العبودية للرب والرجوع إليه أمر فطري قد جبل الإنسان عليه وإن أخطأ مصداق الصحيح.

أقول:

من خلال ما قلناه نستطيع ان نرد على ادّعاء الماديين الذين قالوا: ان الصدفة هي من أوجدتهم، فنقول لهم بأنكم رجعتم إلى فطرتكم من حيث لا تشعرون لأنكم اعتقدتم بأن الصدفة هي الخالق والموجد لكم ولكنكم خرجتم من العقيدة السليمة الصحيحة إلى العقيدة الخاطئة المنحرفة. أي إنكم رجعتم إلى فطرتكم القاضية بضرورة وجود خالق، ولكنكم أخطأتم في تشخيص هذا الخالق لكم.

النظريات التي بينت كيفية اخذ العهد والميثاق[1] من بني آدم:

يقول تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أنفسهم أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى...) (الأعراف:١٧٢).

هناك العديد من النظريات التي بينت كيفية إخراج الله تعالى بني آدم من ظهور آبائهم واخذ العهد منهم، منها:

---

(١) الميثاق: هو عهد بين العبد وربه، فالعبد يشهد لربه بالربوبية ويشهد على نفسه بالعبودية له.

النظرية الأولى:

قالوا: ان الآية ناظرة إلى عالم الدنيا وليس إلى عالم الذر، وبينوا رأيهم هذا بقولهم ان المولود الصغير عندما يخرج إلى الدنيا يغرز الله تعالى في فطرته وجود الخالق الذي لابدّ من الاعتقاد به والرجوع إليه.

وأُشكل عليهم: كيف يمكن للطفل الصغير ان يتحدث أو يجيب وهو لا يستطيع التكلم؟

فأجابوا: ان إجابته كانت من خلال استعداده وليس بلسانه أي أجاب بلسان الحال لا بلسان المقال. وهذا نظير قوله تعالى: (...وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ...) (الإسراء: ٤٤)، حيث انقسم علماء التفسير في تحديد كيفية تسبيح المخلوقات، فالآية واضحة الدلالة على ان المخلوقات بجميع أنواعها وأشكالها تسبح لله تعالى ولكن كيف يكون تسبيحها له جل وعلا هل هو بلسان الحال أم بلسان المقال؟

فهناك من العلماء من قال: كل مخلوق يسبح الله تعالى باللسان المناسب له، فالنباتات مثلا تسبح الله تعالى بلسان يناسبها وكذلك الحال بالنسبة للحيوانات تسبح بلسان يناسبها (أي لسان المقال) واستندوا على ذلك بقوله تعالى: (حَتَّى إذا أَتَوْا عَلَى وَادي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (النمل: ١٨)، حيث قالوا إن الآية فيها الكثير من الحيثيات التي تؤكد ما نقوله، منها:

١ - قول النملة، حيث جاء التعبير القرآني واضح الدلالة على ذلك (قالت نملة).

٢ - عبرت الآية الكريمة على لسان النملة بالقول (وهم لا يشعرون) وهذا يعني أن للنملة نوعاً من الإدراك على تحديد ومعرفة من يريد إيذائها عمدا ومن لا يريد ذلك من خلال قولها (لا يشعرون) فهي أدركت أن سليمان عليه السلام وجنوده لا يتعمدون إيذاء النمل وإنما يحصل الإيذاء بصورة غير عمدية، وبالتالي فإنها تكلمت مع سليمان وسليمان عليه السلام فهم كلامها كما جاء في الروايات الشريفة، وكذلك الحال مع الهدهد الذي تكلم معه سليمان حول قوم بلقيس وإنهم كانوا يعبدون الشمس (فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ) (النمل: ٢٢)، فالهدهد أيضاً تكلم.

أما القسم الآخر من العلماء فقالوا: أنها تكلمت بلسان الحال وليس المقال.

النظرية الثانية:

إن الآية ناظرة إلى عالم قبل عالم الدنيا والأصلاب والأرحام وإنما هو عالم آخر حيث اخرج الله تعالى الناس من صلب آدم على شكل ذرات صغيرة ونثرها في السماء وهذه الذرات مدركة وعارفة فسألها الله تعالى (ألست بربكم) فأجابت بقول (بلى) بلسان الاستعداد (الحال) وليس المقال، وبعد ذلك جمع الله تعالى تلك الذرات الصغيرة وأرجعها في صلب آدم عليه السلام مرة أخرى.

النظرية الثالثة:

إن الله تعالى اخرج الناس من صلب آدم على شكل ذرات صغيرة ونثرها فسألها وأجابت ولكن جوابها كان بلسان المقال وليس الحال.

وهذا ما يمكن أن تكون بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام مشيرةً إليه، ونذكر من الروايات التالي:

١ - عن أبي عبد الله عليه السلام: (إن بعض قريش قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: بأي شيء سبقت الأنبياء وأنت بعثت آخرهم وخاتمهم)؟

فقال: (إني كنت أول من آمن بربي، وأول من أجاب حين اخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى. فكنت أنا أول نبيّ قال بلى، فسبقتهم بالإقرار بالله)[١].

٢ - ﴿... قال زرارة: وسألته (أبو جعفر عليه السلام) عن قول الله عز وجل: (وإذ اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى). قال: (اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرفهم وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف احد ربه) وقال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل مولد يولد على الفطرة - يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه - كذلك قوله: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) (الزمر:٣٨)﴾[٢].

---

(١) البرهان في تفسير القران: ج(٣) - ص ٢٣٥.

اقول:

من خلال الرواية الشريفة نفهم ان قول (بلى) له تأثير على درجة القرب من الله تعالى بالنسبة للإنسان، أي كلما كان الانسان اسرع بالإقرار بالله جل وعلا كلما كان ذا درجة قريبة الى الله تعالى اكثر من غيره، على أنه من خلال ذلك نفهم ان الانسان في ذلك العالم كان مخيرا وليس مجبرا، ولو كان الجواب بالإجبار فلا معنى لدرجة القرب الالهي، بالإضافة الى ذلك سيكون فيه نوع من الظلم وحاشا لله ان يظلم عباده.

(٢) المصدر نفسه: ج(٣) - ص ٢٣٦.

٣ - ﴿قال أبو عبد الله عليه السلام: أول من سبق من الرسل إلى قول (بلى) رسول الله صلى الله عليه وآله، وذلك انه كان اقرب الخلق إلى الله تبارك وتعالى، وكان بالمكان الذي قال له جبرائيل لما اسري به إلى السماء: تقدم - يا محمد - فقد وطئت موطئا لم يطأه احد قبلك. لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل. ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه، فكان من الله عز وجل كما قال الله: (قاب قوسين أو أدنى) (النجم: ٩) أي بل أدنى، فلما خرج الأمر من الله وقع إلى أوليائه)...﴾[1].

٤ - ﴿عن أبي عبد الله عليه السلام، وعن أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: (ولتؤمنن به ولتنصرنه). قال: قال: (ما بعث الله نبيا من لدن آدم فهلم جرا إلا ويرجع إلى الدنيا فيقاتل فينصر رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام). ثم اخذ الله أيضاً ميثاق الأنبياء لرسوله، فقال: (قُلْ - يا محمد - آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (آل عمران: ٨٤)﴾[2].

النظرية الرابعة:

من خلال التدبر في الآيات والتمعن فيها نجد أن الآية تشير إلى وجود نشأتين للإنسان: الأولى ملكية (دنيوية) والأخرى ملكوتية

---

(١) البرهان في تفسير القران: ج(٣) - ص ٢٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ج(٣) - ص ٢٣٩.

تسبق النشأة الملكية، وان الإنسان شهد لربه بالربوبية وشهد على نفسه بقول (بلى) في النشأة الملكوتية وعندما يخرج إلى عالم الدنيا يكون التوحيد والعبودية لله تعالى مغروزاً بفطرته، لان النزول الملكي هو فيض من النزول الملكوتي، وهذا ما يبينه العلامة الطباطبائي، حيث أثبت بقوله: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) (الحجر: ٢١) إن لكل شيء عنده وجودا وسيعاً غير مقدر في خزائنه، وإنما يلحقه الأقدار إذا نزله إلى الدنيا، مثلا للعالم الإنساني على سعته سابق وجود عنده تعالى في خزائنه انزله إلى هذه النشأة.

وكذلك يتابع السيد قائلا:

و مقتضى هذه الآيات إن للعالم الإنساني على ما له من السعة وجودًا جميعًا عند الله تعالى، وهو الذي يلي جهته تعالى ويفيضه على أفراده لا يغيب فيها بعضهم عن بعض ولا يغيبون فيه عن ربهم ولا هو يغيب عنهم، وكيف يغيب فعل عن فاعله أو ينقطع صنع عن صانعه وهذا الذي يسميه الله سبحانه بالملكوت ويقول: (وَكَذَلِكَ نُرِي إبراهيم مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) (الأنعام:٧٥)،...، وأما هذا الوجه الدنيوي الذي نشاهده نحن من العالم الإنساني وهو الذي يفرق بين الآحاد، ويشتت الأحوال والأعمال بتوزيعها على قطعات الزمان..»[1].

---

(١) الميزان في تفسير القران: ج(٨) - ص ٣١٩ - ٣٢٠.

استطراد:

١/هل هناك من اثر على من ينكر المواثيق؟

الجواب: نعم، لقوله تعالى: (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...) (المائدة: ١٣).

٢/من المواثيق التي أخذت، هي:

١ - الميثاق الذي اخذ على بني إسرائيل:

يقول تعالى: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إسرائيل...) (المائدة: ٧٠).

٢ - الميثاق الذي اخذ على النصارى:

يقول تعالى: (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ...) (المائدة: ١٤).

٣ - الميثاق الذي اخذ على المسلمين:

يقول تعالى: (وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ...) (المائدة: ٧).

٤ - الميثاق الذي اخذ على الأنبياء:

يقول تعالى: (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ...) (آل عمران: ١٨).

التفاتة: في الآية الكريمة الأخيرة بعض النكات الجميلة التي لا بأس بتبيانها:

١ - عندما تكلم الله تعالى عن الأنبياء في الآية قال (النبيين) بالرغم من وجود رسل من ضمن هؤلاء الأنبياء (كموسى وعيسى) ولكنه جل وعلا لم يفردهم عن بقية الأنبياء، ولكنه عندما تكلم عن النبي

المصطفى ﷺ افرده بلفظة (رسول) وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على المقام العالي للنبي ﷺ وتمييزه من قبل الحق تعالى عن بقية أنبيائه ورسله.

٢ - الآية تخبر أن الرسول الكريم ﷺ على علم واطلاع بما جاء به الأنبياء الذين سبقوه حيث قالت الآية (مصدق لما معكم)، ولكنها عندما تكلمت عن النبي بالخصوص بينت أن الأنبياء الذين سبقوه ليس لديهم علم بكل ما جاء به ﷺ والدليل على ذلك قول الآية (لتؤمنن به) ولم تقل (لتصدقن به).

استنتاج وخلاصة:

١ - بين الإسلام إن الإنسان يتكون من جنبتين:

أ - الجنبة الملكية (المادية): والتي تتمثل بالجسم.

ب - الجنبة الملكوتية (الروحية): والتي تتمثل بالروح والقلب والفؤاد واللب.

٢ - أودع الله تعالى التوحيد في فطرة الإنسان.

٣ - أودع الله تعالى في الإنسان معرفة القيم وضد القيم، أي اوجد في الإنسان ما يعرف من خلاله القيم وأضدادها قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس: ٧ - ١٠)، فالنتيجة: عندما الهم الله تعالى النفس الإنسانية التقوى والفجور جعل فيها ما يميز بينهما ولهذا نحن نعتقد أن الحسن والقبح ذاتي بعكس غيرنا الذي يعتقده شرعياً.

٤ - أودع الله تعالى في فطرة الإنسان الأصول دون معرفة التفاصيل، ولو انه أودع فيه ما يجعله يعرف التفاصيل لما احتاج الإنسان إلى بعث الأنبياء.

استطراد: شبهتان وردهما:

شبهة (١):

كيف أن الله تعالى أودع التوحيد والقيم وأضدادها في فطرة الإنسان وفي ذات الوقت أخبر القرآن أنه تعالى أخرجه إلى الدنيا وهو لا يعلم شيئاً كما في قوله تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا...) **(النحل: ٧٨)**

الجواب:

قد يُجاب عن هذه الشبهة بأن في القرآن تعارضاً، وهذا مردود لقوله تعالى: (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا) **(النساء: ٨٢)**.

والصحيح أن يُجاب بما تقدم، وهو أن الذي أودع في فطرة الإنسان هي الأصول وليس التفاصيل، والآية ناظرة إلى التفاصيل وليس إلى الأصول فقط.

شبهة (٢):

إن الأنبياء عندما جاءوا، هل جاءوا بما يوافق العقل أو جاءوا بما يخالفه؟

فإن كان الجواب أنهم جاءوا بما يوافق العقل، فالإنسان لديه عقل وليس بحاجة إلى الأنبياء فبعقله يستطيع معرفة أمور الحياة وغيرها.

وإن كان الجواب: أنهم جاءوا بما يخالف العقل فكيف يكون ذلك والله تعالى تعبدنا بالعقل؟

ولرفع هذه الشبهة نجيب كالآتي:

نقول: إن الأنبياء جاءوا بما لا يمكن للعقول أن تصل إليه من دون الوحي فالعقل مع كل إمكانياته التي أودعها الله تعالى به لكنه يبقى محدوداً وليس مطلقاً، فما وراء الغيب لا يستطيع العقل الوصول إليه ومعرفته ولكي يصل العقل إلى ما هو وراء الغيب فهو بحاجة إلى شيء آخر، وهذا الشيء هو الوحي والوحي لا يكون إلا عن طريق الأنبياء أو الأئمة أو الحجج الإلهيين.

وبعبارة علمية: إن الأنبياء جاؤوا بأمرين:

الأول: ما يؤيد أحكام العقل التي اندثرت بسبب الابتعاد عن الحق وإتباع الشهوات.

الثاني: التعبديات، وهي الأمور التي لا يُدركها العقل لوحده، وإنما يحتاج إلى الوحي لبيانها.

٥ - زود الله تعالى الإنسان بمحكمة داخلية وهي النفس أو الضمير كما في قوله تعالى: (وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ) (القيامة: ٢) وهي بمثابة رادع للإنسان عن الوقوع في المحرمات والأخطاء.

٦ - زود الله تعالى الإنسان بنسخة تشريعية تتلاءم وتتوافق مع النسخة التكوينية (الفطرية) كما في قوله تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...) (الروم: ٣٠) والآية الكريمة تبين الإعجاز القرآني المبهر في توضيح وتبيين الأمور حيث قدمت الآية النسخة التشريعية؛ لأنها تتناسب مع فطرة الإنسان التي فطر عليها.

٧ - تذكير الأنبياء للناس بما جاء في فطرتهم.

يقول تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) (الغاشية: ٢١).

وقوله تعالى: (....قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ، رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ...) (الطلاق: ١٠ - ١١).

فالله تعالى بعث الأنبياء لتذكير الناس بما رُكِزَ في فطرتهم ويزيدون عليها من خلال التفاصيل، والتذكير إنما يكون للشيء الماضي ففي الآية الأولى أمر للرسول ﷺ بالتذكير حيث إنه في بعض الأحيان تأخذ الإنسان الغفلة بسبب الذنوب التي تشكل الحواجز على قلب الإنسان (...بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم...) (المطففين: ١٤) فينسى ما فُطر عليه، لذلك عبر الإمام علي عليه السلام عن النبي ﷺ في إحدى خطبه بالقول ﴿طبيب دوّار بطبه، قد احكم مراهمه، وأحمى مواسمه...﴾[1].

المرحلة الثالثة: مرحلة الشهادة.

يقول تعالى: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ ... لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ) (البقرة: ٢١٣).

الآية الكريمة توضح أن الناس سابقاً في أول الخليقة كانوا مجتمعين على أمر واحد وهو الفطرة على التوحيد. فما أن جاء الشيطان وتوسّعت الحياة البشرية بدأت تتلوث فطرهم، فبرزت هنا الحاجة إلى الأنبياء ليُرجعوا الناس إلى فطرهم السليمة التي فُطروا عليها، وهذا ما يوضحه الإمام علي عليه السلام في قوله ﴿فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا

---

(١) نهج البلاغة: ج(١) - ص ٢٠٧ وهي من خطب الملاحم.

عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول ويروهم الآيات المقدرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم وآجال تفنيهم وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم،...»[1].

التفاتة:

هل أفراد الأسرة السماوية (أنبياء - أئمة - حجج إلهيون) متحدون أم متفرقون؟

الجواب: أفراد الأسرة السماوية متحدون وعلى كل المستويات أي أن اتحادهم يكون من حيث المبدأ والمنتهى والسبيل، وسنبين بعض أوجه اتحادهم:

١ - وحدة الاصطفاء الإلهي:

يقول تعالى: (إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ) (آل عمران: ٣٣).

الآية الكريمة ناظرة إلى أصل الاصطفاء ولذلك صار اصطفاء الأنبياء متشابه من حيث الأصل، أما على مستوى تفاصيل الاصطفاء فهناك فرق كبير كما يوضح ذلك قوله تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ...) (البقرة: ٢٥٣) وقوله تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض...) (الإسراء: ٥٥).

---

(١) نهج البلاغة: ج(١) - ص ٢٣ - ٢٤ (في صفة خلق آدم).

نكته قرآنية:

عندما يبين القرآن الكريم أفراد هذه الأسرة يوضح أن لهم جنبتين: واحدة مادية (ملكية) والأخرى معنوية (ملكوتية)، كما يوضح ذلك قوله تعالى (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ...) (الكهف: ١١٠).

فالآية الكريمة توضح جنبتين للرسول ﷺ: المادية (الملكية) وتتمثل بقوله تعالى (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ) والأخرى المعنوية (الملكوتية) وتتمثل بقوله تعالى (يوحى إليّ). فإذن، إذا أردنا أن نعرف الرسول الأكرم ﷺ علينا أن نعرف أولا هاتين الجنبتين معا.

استطراد:

إن هذا نظير ما جاء حول آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) (آل عمران: ٧)، فالآية صريحة في تبيان إن آيات القرآن الكريم تكون على قسمين: قسم متشابه وقسم محكم، ومن يرد معرفة القرآن الكريم فعليه معرفة القسمين معا، أما التركيز على قسم دون الآخر فهذا يؤدي إلى عدم معرفة القرآن الكريم معرفة صحيحة، أي إن من يحاول التركيز على المتشابه فقط دون إرجاعه إلى المحكم فهذا سيؤدي به إلى الانحراف والزيغ وهذا ما وقع فيه الوهابية وغيرهم.

وللتوضيح نأخذ المثال القرآني التالي:

يقول تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ...) (المائدة: ٦٤) هذه الآية من الآيات المتشابهة فمن يحاول أن يأخذ هذه الآية المتشابهة لوحدها دون

إرجاعها إلى المحكم فإنه سيقع في مشكلة خطيرة وهي تجسيم الله تعالى، ونحن نعرف جيدا أن الله تعالى منزه عن الجسمية لأن الجسمية تستدعي التركيب والحاجة، وهو ما لا يكون في الواجب تعالى، لأن المركب محتاج إلى أجزائه، والله تعالى هو الغني المطلق، ولذلك عليه أن يضع هذه الآية مع قوله تعالى (...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...) (الشورى:١١) وهي من الآيات المحكمات ليخرج بنتيجة صحيحة وواضحة وهي: أن الله تعالى منزه عن الجسمية، هذا أولا، أما ثانيا فسيعرف أن التعبير بيدي الله تعالى إنما هو كناية عن القدرة والقوة وقد استنتجنا هذا الاستنتاج من خلال إرجاع المتشابه إلى المحكم، وهكذا الحال مع المعصوم.

نظرية بعض العلماء المعاصرين في تفسير الآية:

إن في الآية مرجعين:

الأول: الآيات المتشابهة ترجع إلى المحكمة لتفهم بالشكل الصحيح.

ثانيا: الآيات المحكمة أيضاً ترجع إلى (الراسخون في العلم) وهم النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

ومن هنا نفهم معنى قول الرسول الأكرم ﷺ: ﴿وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي أذكركم أهل بيتي أذكركم أهل بيتي أذكركم أهل بيتي﴾[1].

---

(١) صحيح مسلم: ج(٧) - ص ١٢٣.

ومن هنا، روي أنه قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن، وبها نوهت الكتب ويستبين الإيمان، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقتدى بالقران وآل محمد وذلك قال صلى الله عليه وآله في آخر خطبة خطبها: إني تارك فيكم الثقلين: الثقل الأكبر، والثقل الأصغر، فأما الأكبر كتاب ربي، وأما الأصغر فعترتي أهل بيتي فاحفظوني فيهما فلن تضلوا ما تمسكتم بهما﴾[1].

٢ - وحدة التشريع:

يقول تعالى: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...) (الشورى: ١٣).

ويقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...) (البقرة: ١٨٣).

ويقول تعالى: (وَإِذْ يَرْفَعُ إبراهيم الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...) (البقرة: ١٢٧).

كما اتحد أفراد الأسرة السماوية في أصل الاصطفاء اتحدوا أيضاً في الشرائع، فالأنبياء والرسل جميعهم متفقون على وحدة الشرائع التي جاءوا بها فالصلاة والصيام والحج وغيرها من التشريعات موجودة في كل الأزمنة ولكن الاختلاف في تفاصيل تلك الشرائع.

---

(١) تفسير العياشي: ج(١) - ص ٥.

فمثلا الصيام موجود في الأمم السابقة، ولكن كيفية الصيام تختلف بحسب ما تقتضيه المرحلة والظروف، وهذا يحل إشكالية من يقول: لماذا هذا الاختلاف في التفاصيل؟ أو لماذا كان هناك ناسخ ومنسوخ رغم أن الدين واحد؟

فنقول: نعم؛ الدين واحد من حيث الأصول وأصول التشريعات، ولكن من حيث التفاصيل فهو مختلف من امة لأخرى ومن شريعة لأخرى، وبما أن الله تبارك وتعالى علمه مطلق فإنه عندما يضع القوانين يعلم أن هذه القوانين تناسب فترة ومرحلة معينة وتنسخ حسب ما تقتضيه الحاجة والظروف والمصلحة.

٣ - وحدة الموالاة والبراءة:

أبناء الأسرة السماوية متحدون في هذا الأمر أيضاً، ويمكن بيان هذا الأمر من خلال التالي:

عندما نلاحظ بعض الآيات القرآنية التي تتحدث عن طبيعة موالاة الأنبياء، نجد حقيقة تتجلى من خلال الآيات التالية:

أ - **نوح** عليه السلام:

يقول تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ...) (هود: ٤٦).

يقول تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا...) (التحريم: ١٠).

ب - **داوود وعيسى** عليهما السلام:

يقول تعالى: (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسرائيل عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى...) (المائدة: ٧٨).

ج - إبراهيم عليه السلام:

يقول تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم وَالَّذِينَ معه إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...) (الممتحنة:٤).

د - هود عليه السلام:

يقول تعالى: (...إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (هود: ٥٤).

فنلاحظ من خلال الآيات الكريمة أن كل الأنبياء متشابهون من حيث الموالاة والبراءة، فمنهم من تبرأ من ولده كنوح عليه السلام ومنهم من تبرأ من زوجته كنوح ولوط عليهما السلام ومنهم من تبرأ من بعض قومه كما جاء على لسان داوود وعيسى وإبراهيم وهود عليهم السلام حيث إن أكثر أقوام هؤلاء لم يكونوا على الصراط المستقيم.

٤ - وحدة المعاناة:

يقول تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) (الذاريات: ٥٢).

في الآية الكريمة خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم عندما كذبه قومه واتهموه بالسحر وبالجنون -وحاشاه أن يكون كذلك وهو الذي وصفه الحق تعالى في قوله (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤)- بأنك ليس فقط أنت يا محمد من اُتُّهمت بهذا الاتهام وإنما حتى بقية الأنبياء اتهموا بذلك وكُذّبوا، وهذا يعني أن أفراد الأسرة السماوية مشتركون حتى في المعاناة.

٥ – وحدة العاقبة والمصير:

يقول تعالى: (...وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ، لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) (الأنفال: ٧ – ٨).

ويقول تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر: ٥١).

أقول:

إن طريق التوحيد وعر وصعب وليس بالأمر الهيّن ويحتاج إلى استقامة في المسير لإكمال الطريق ولذلك قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا...) (فصلت: ٣٠)، والاستقامة يجب أن تكون على مستوى القلب أيضاً وليس فقط على مستوى اللسان، وستكون هناك بشارة إلهية لمن يكمل طريق الاستقامة بنجاح كما يؤكد ذلك تعالى بقوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) (فصلت: ٣٠) وفي مورد آخر يقول تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (الأحقاف: ١٣).

ولكن السؤال الذي يبقى هو: لماذا يكون طريق التوحيد صعباً؟ حتى أننا نرى أن الإمام علي عليه السلام يوصي أصحاب هذا الطريق بعدم الوحشة فيقول (ولا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه)؟

إن الجواب نجده في نفس قول الإمام عليه السلام وهو: قلة السالكين فيه، لأننا بينا انه يحتاج إلى استقامة قلبية بالإضافة إلى انه عبارة عن صراع دائم بين الحق والباطل وعندما يصل الصراع إلى ذروته، ففي تلك

اللحظة سوف تتضح السنن الإلهية ليتميز الحق من الباطل، كما يقول تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ، ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ) (الأعراف: ٩٤ - ٩٥)، ففي الآية الكريمة توضيح لكيفية الاستدراج في العذاب بالنسبة لأهل الباطل، ففي البداية يبدأ الله بإنزال البلاء عليهم (أخذنا أهلها بالبأساء والضراء) ليظهرهم على حقيقتهم؟ فإن كفروا استدرجهم بالعذاب (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ) وبعدها ينزل العذاب مباشرة (فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ).

هذا على مستوى أهل الباطل، أما على مستوى أهل الحق فيقول تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر: ٥١)، فالآية الكريمة توضح أن النصرة والعاقبة الحسنة تكون لأسرة السماء وهي لا تتحقق في الآخرة فقط وإنما تتحقق في الدنيا قبل الآخرة.

على أن هذه النصرة والغلبة تتحقق من خلال عدة أمور منها:

١ - إيجاد الألفة بين القلوب:

يقو تعالى: (...وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ...) (الأنفال: ١١).

٢ - تثبيت القلوب على الإيمان:

يقول تعالى: (يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ...) (إبراهيم:٢٧).

٣ - استجابة الدعاء:

قوله تعالى: (وَنُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهلهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) (سورة الأنبياء: ٧٦)، وقوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْناهُ أَهلهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَذِكْرى لِلْعابِدِينَ) (سورة الأنبياء: ٨٤).

وقوله تعالى: (فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأنبياء: ٨٨).

٤ - المعجزة والبيّنة:

يقول تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...) (الحديد: ٢٥).

٥ - الملك والسلطة:

يقول تعالى: (...فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا) (النساء: ٥٤).

٦ - الغلبة في الحرب:

يقول تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ...) (التوبة: ٢٥).

٧ - السَكينة والطمأنينة:

يقول تعالى: (ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ...) (التوبة: ٢٦).

٨ - أهلاك العدو:

يقول تعالى: (...فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ) (الأنبياء: ٧٧).

٩ - الإمداد الغيبي ونزول الملائكة:

يقول تعالى: (...أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ) (آل عمران: ١٢٤).

يقول تعالى: (...هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ) (آل عمران: ١٢٥).

١٠ - إيجاد الرعب في قلب العدو:

يقول تعالى: (...وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ...) (الأحزاب: ٢٦).

١١ - انتشار الدين وظهوره:

يقول تعالى: (...لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ...) (التوبة: ٣٣).

١٢ - النجاة من المخاطر:

يقول تعالى: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ...) (العنكبوت: ١٥).

١٣ - إفشال مخططات الكافرين:

يقول تعالى: (...وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ) (الأنفال: ١٨).

المرحلة الرابعة: مرحلة الإمامة والقيادة.

يقول تعالى: (...ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ **بِكَلِمَاتٍ** فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) (البقرة: ١٢٤).

الآية تُشير إلى أن من المراحل المهمة التي كانت للأنبياء هو دورهم القيادي للأمة والأخذ بزمام الأمور إلى حيث السعادة الأخروية والنجاح الدنيوي، خصوصاً وأن أمر قيادتها قد جعلته السماء إلى خصوص من لم يظلم نفسه بمعصية ولم يتعدّ على الحدود الإلهية، أي إلى المعصوم من الأنبياء والأئمة عليهم السلام.

المرحلة الخامسة: مرحلة التمام والكمال.

يقول تعالى: (...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا...) (المائدة: ٣).

وهذه المرحلة تمت على يدي النبي الأعظم ﷺ ما بلّغ به من الأمر الإلهي يوم غدير خم، حيث أخبر الله تعالى باكتمال الدين بولاية أمير المؤمنين عليه السلام.

المرحلة السادسة: مرحلة إظهار الدين.

يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ...) (التوبة: ٣٣).

وهذه المرحلة ستتم على يدي ولي الله الأعظم الإمام الحجة المنتظر (عجل الله تعالى فرجه)

أقول:

وهذه المراحل الثلاثة الأخيرة لها أبحاث تخصصية مهمة نترك الخوض فيها لوقت آخر إن شاء الله تعالى

بعد أن بيّنّا انقسامات الحضارة الإنسانية عبر الزمن وذلك من خلال المدرستين المادية والمتدينة، وكذلك بيّنّا المراحل التاريخية التي مر بها الكون ورأي كل مدرسة في تلك المراحل واكتشفنا أن نظرية المدرسة الموحدة هي الأشمل والأكمل، نأتي الآن على تبيان محطات البحث.

المحطة الأولى: ما فائدة البحث عن الدين؟



ما هي فائدة البحث عن الدين؟

ولماذا يبحث الإنسان عن الدين وماذا يستفيد الإنسان جراء بحثه عن الدين؟

لنعرف كل هذه الأمور علينا أولا أن نعرف: ما هو الدين؟

الدين: يُعرّف على انه عبارة عن علاقة ذات طرفين يتصل أحدهما بالفكر ويتصل الطرف الآخر بالسلوك العملي، ولذلك هو ليس مجرد نظرية، وضعت لأجل التنظير، ومن خلال الدين يمكننا ان نهذب الإنسان وذلك يكون من خلال نقاط عديدة نبين منها ما يلي:

أولا: الدين يهذّب الأفكار.

فمن خلال الإعتقاد الصحيح بإصول الدين ينتج الفكر السليم. أي إذا أعتقد الإنسان بإصول دينه من التوحيد إلى المعاد إعتقاداً صحيحا من غير الإخلال بأحد هذه الأصول فإن ذلك سيولد الفكر السليم الصحيح عند الإنسان.

ثانيا: الدين دعامة الأخلاق والسلوك.

ان السلوك الصحيح لدى الإنسان دائما يأتي من الفكر السليم، فإذا صار فكر الإنسان سليما من خلال إتباعه الأصول السليمة سيولد ذلك سلوكا سليما من خلال قيامه بالتشريعات السماوية، لان الأصول تعالج الفكر، والتشريعات تعالج السلوك، ولذلك اعتبر الإسلام السلوك فرعاً وليس أصلاً.

فمثلا الصيام يولد حالة التقوى كما يبين ذلك قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة: ١٨٣).

وكذلك الصلاة إن أتى بها الإنسان بالصورة الصحيحة فإنها ستولد لديه حالة من العصمة تردعه عن ارتكاب المحرمات كما يقول تعالى (...إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ...) (العنكبوت:٤٥).

وكذلك يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة من خلال الآيات في سورة يس بقوله تعالى (قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (يس: ١٨)، فتصرف أقوام الأنبياء مع أنبيائهم كان نتيجة كفرهم، وكفرُهم جاء نتيجة الضلال الفكري الذي كانوا فيه، فإذن نتيجة انحرافهم الفكري تولد لديهم سلوك سيئ وتعاملوا مع أنبيائهم بهذا السلوك السيء، ولذلك قلنا ان السلوك الصحيح يتبع الفكر الصحيح والعكس بالعكس.

ثالثا: الدين يولد الالتزام بالقوانين.

يقول تعالى: (...تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا...) (البقرة: ٢٢٩).

من الأمور التي ألزم الدين بها الإنسان هي ضرورة محافظته على القوانين أو الحدود الشرعية كما جاء في تعبير الآية الكريمة. فإذا صار فكر الإنسان سليما ولّد لديه السلوك السليم، ومن خلال هذا السلوك السليم يتبع الإنسان القوانين الإلهية التي رسمتها له الشريعة الإسلامية، وبالتالي فلا يتعدى تلك الحدود أو القوانين ولا يخالفها، أي ان الدين جعل الإنسان يكتسب حالة من العصمة، وهذه العصمة منعته من التعدي على القوانين.

رابعا: الدين ينظم العلاقات الاجتماعية.

هناك مجموعة من العلاقات أمرنا الله تعالى بإتّباعها وإبرامها وجعل لتلك العلاقات قوانين تنظمها، ومن هذه العلاقات:

١ - علاقة الإنسان بالمجتمع:

يقول تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم: ٤).

يقول تعالى: (...اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ...) (آل عمران:٢٠٠).

جعل الدين للإنسان قوانين تنظم تعامله مع المجتمع من حوله، فالإنسان عليه ان يتعامل مع الناس بأخلاقه وأن علاقة الإنسان بالمجتمع من حوله هي علاقة مداراة كما وضحها الرسول الأكرم ﷺ بقوله: (أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض)[١].

---

(١) الكافي: ج(٢) - ص ١١٧، ح(٤).

وكذلك ينقل عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربه وسنّة من نبيه وسنّة من وليه، فأما السنّة من ربه فكتمان سره، قال الله عز وجل: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ...) (الجن: ٢٦ - ٢٧)، وأما السنّة من نبيه فمداراة الناس فإن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمداراة الناس فقال: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ...) (الأعراف:١٩٩)، وأما السنّة من وليه فالصبر في البأساء والضراء)[1].

٢ - علاقة الإنسان بوالديه:

يقول تعالى: (...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...) (الإسراء: ٢٣).

يقول تعالى: (...وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) (الإسراء:٢٤).

علاقة الإنسان بوالديه قائمة على أساس الرحمة والإحسان. فحتى عندما يدعو الإنسان لوالديه فهو ليس من باب التفضل عليهما وإنما لكي يرد ولو جزءً صغيراً من جميلهم عليه عندما ربياه وهو لا يزال طفلا صغيرا لا يعلم شيئاً، وهذه هي نظرية الإسلام التي تأمر الولد ببر والديه حتى لو كانا غير مسلمين كما يقول تعالى (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...) (لقمان: ١٥)، بعكس نظرية أبناء المادة التي تقوم على أساس المصلحة لا غير حتى بين الولد ووالديه.

---

(١) الكافي: ج(٢) - ص ٢٤١ - ٢٤٢، ح(٣٩).

٣ - علاقة الإنسان مع الفقراء والمحتاجين:

يقول تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً...) (البقرة: ٢٤٥).

لقد أطّر الدين علاقة الإنسان بالفقراء والمحتاجين بإطار المساعدة والمعاونة وليس بإطار الأفضلية، ففي حقيقة الأمر هي علاقة توادٍّ وتراحم وعلاقة قرض وتجارة مع الله تبارك وتعالى.

وفي المقابل فإن الله تعالى سيقابل المُتاجر بهذه التجارة بأحسن القبول والمكافئة، كما يوضح ذلك قوله تعالى: (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنًّا وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٢٦٢).

هذه هي نظرية الدين، بعكس النظرية المادية القائمة على أساس القوة والاستعباد كما نرى هذا الأمر في مضمون نظرية نيتشه، حيث يبين في نظريته القائمة على أساس القوة فقط (بأن من حق القوي أن يحكم فقط والشعوب الأقوى هي التي لها الحق في الحكم واللعب بمقدرات الشعوب الضعيفة وان الضعفاء خلقوا ليكونوا عبيدا وخدما للأقوياء)

٤ - علاقة الإنسان بالعلماء:

أما علاقة الإنسان بالعلماء فهي قائمة على أساس التعلم والسؤال، وقد وضح القرآن الكريم هذه الحقيقة من خلال العديد من المصاديق، منها قوله تعالى (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) (مريم: ٤٣).

وكذلك في قوله تعالى عندما بين أتباع موسى عليه السلام للخضر عليه السلام: (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) (الكهف: ٦٦).

وقوله تعالى (...فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) (النحل:٤٣).

وأعلى مصاديق هذه الآية هم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الاطهار عليهم السلام.

أما في زماننا الحالي فالحجة علينا هم من خَلَف الأئمة عليهم السلام وهم العلماء.

٥ - علاقة الإنسان مع المفكرين والمثقفين:

يقول تعالى: (...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمر...) (آل عمران: ١٥٩).

يمكن أن نستفيد من الآية الكريمة ان الدين دعا إلى مشاركة المفكرين والمثقفين في عقولهم من خلال المشاورة معهم.

٦ - العلاقة السياسية مع الحاكم الشرعي:

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمر مِنكُمْ...) (النساء: ٥٩).

كما نظم الدين علاقات الإنسان السابقة فهو ينظم أيضاً علاقة الحاكم السياسي بالرعية، والعكس أيضاً.

وهنا سؤال: هل إطاعة الرعية للحاكم السياسي هي بنحو مطلق؟

الجواب: لا؛ لان الطاعة المطلقة لا تكون إلا لله تبارك وتعالى ولمن هم منصبّون من قبله تعالى كالأنبياء والأئمة عليهم السلام، أما إطاعة الحاكم السياسي فتكون إطاعة محددة بحدود أوامر الله تعالى، أي إذا كان الحاكم يسير وفق القوانين الإلهية فلا مانع من إطاعته ولكن إذا خالف

تلك القوانين وسار عكسها فهنا تسقط إطاعته بل وعلى الإنسان مخالفته وليس فقط عدم إطاعته، إلا ما كان لأجل التقية.

ومعه، فيمكن تصور الموقف من طاعة الآخر على ثلاثة أنحاء:

أ - طاعة مطلقة:

وهذه الطاعة لا تكون إلا للمعصوم كإطاعة الأنبياء والأئمة والحجج الالهيين.

ب - طاعة مشروطة:

كإطاعة الوالدين وهي مشروطة بعدم أمرهما بما حرّم الله تعالى حتى وان كانا غير مسلمين (وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا...) (لقمان: ١٥)، مع عظم منزلة الأبوين في الدين، لكن بالرغم من ذلك جعل طاعتهم مشروطة لأننا بيّنّا مسبقا ان الطاعة المطلقة لا تكون إلا للمعصومين، والأبوان غير معصومين.

ج - عدم إطاعة مطلقاً:

يقول تعالى: (...وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ...) (الأحزاب: ٤٨)، والآية صريحة في بيان عدم جواز إطاعة الكافرين.

٧ - العلاقة الشاملة مع المسلمين:

يقول تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...) (الحجرات: ١٠).

جعل الدين العلاقة بين المسلم والمسلم علاقة مبنية على أساس الأخوة كما ورد في الآية المباركة وهذا إن دل على شيء فهو يدل على حرص الدين على تنظيم العلاقة بين أبنائه.

٨ - العلاقة الشاملة بين بني البشر:

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) (الحجرات:١٣).

لم يهتم الدين (الإسلام) بتنظيم العلاقة بين المسلمين فقط، وإنما تعدى ذلك إلى تنظيم العلاقة بين بني البشر سواء كانوا مسلمين أو غير ذلك حيث تبنى الإسلام مبدأ الحوار بين الحضارات كما نلاحظ ذلك جليا في قول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر: (واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم، فأنهم صنفان أما أخ لك في الدين وأما نظير لك في الخلق...)[1].

فالإمام عليه السلام يصنف الناس إلى صنفين: أخ في الدين ونظير في الخلق، والأخير هو محل الشاهد أي إنه نظير في الإنسانية حتى وان لم يكن مسلما، وهذا ما عناه الإسلام عندما نظم العلاقة بين بني البشر، عندما تبنى مبدأ حوار الحضارات كما بيّنّاه قبل قليل، وهو بعكس المبدأ الذي تبناه أبناء المادة وهو مبدأ صراع الحضارات وقد ترجموا ذلك من خلال الحروب الطاحنة التي قاموا بها كالحروب الصليبية وغيرها من الحروب والصراعات التي مرت في تاريخ البشرية.

---

(١) نهج البلاغة: ج(٣) - ص ٨٤، في عهده لمالك الاشتر.

٩ - العلاقة المعنوية مع أولياء الله تعالى:

يقول تعالى: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...) (الحشر: ٩).

تتجلى هذه العلاقة من خلال الإيثار. فأولياء الله تعالى يؤثرون على أنفسهم حتى وان كانوا محتاجين، وخير أولياء الله تعالى وأعلى مصاديقهم هم النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وهذا ما أفصحت عنه كتب التفاسير والروايات الشريفة في تفسير هذه الآية.

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فشكا إليه الجوع فبعث رسول الله ﷺ إلى بيوت أزواجه فقلن: ما عندنا إلا الماء.

فقال رسول الله ﷺ: من لهذا الرجل الليلة؟ فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أنا له يا رسول الله، واتى فاطمة عليها السلام فقال: ما عندك، يا ابنة رسول الله؟ فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية لكنا نؤثر ضيفنا. فقال علي عليه السلام: يا ابنة محمد، نومي الصبية، وأطفئي المصباح، فلما أصبح علي عليه السلام غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فلم يبرح حتى انزل الله عز وجل: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)[1].

خامسا: الدين يلغي الفوارق القومية وغيرها.

يقول تعالى: (...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) (الحجرات:١٣).

---

(١) الامالي (الشيخ الطوسي): ص ١٨٥.

نرى العالم اليوم بأكمله مكبلاً بمجموعة من القوانين التي تقوم على أساس التمييز بين الناس، أما على أساس اللغة أو اللون أو الديانة أو القومية.

ولكن عندما جاء الدين ضرب كل تلك القوانين عرض الجدار وجعل الميزان الذي يميز من خلاله بين الناس هو التقوى والقرب من الله تعالى، ولم يميز بين الإنسان المتقي سواء كان ابيضاً أو اسوداً، عربياً كان أو أعجمياً وهذا ما نراه واضحا في قول الرسول الأكرم ﷺ عندما جعل سلمان الفارسي من أهل البيت لفضله وتقواه كما تنقل الروايات.

حيث روي: ان سلمان الفارسي (رض) دخل مجلس رسول الله ﷺ ذات يوم فعظموه وقدموه وصدروه إجلالا لحقه وإعظاما لشيبته، واختصاصه بالمصطفى وآله. فدخل عمر فنظر إليه فقال: من هذا العجمي المتصدر فيما بين العرب؟ فصعد رسول الله ﷺ المنبر فخطب فقال: ان الناس من آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي ولا لأحمر على اسود إلا بالتقوى، سلمان بحر لا ينزف، وكنز لا ينفد، سلمان منا أهل البيت سلسل يمنح الحكمة ويؤتي البرهان[1].

أقول:

فمع بُعده - سلمان - نسباً عن النبي ﷺ لكن النبي ﷺ جعله من ضمن أهل بيته عليهم السلام، وهناك أناس بالرغم من قربهم من النبي ﷺ

---

(١) الاختصاص: ص ٣٤١، او بحار الانوار: ج(٢٢) - ص ٣٤٨، ح(٦٤).

نسباً، ولكن نجد القرآن يذمهم، كما هو الحال في عم النبيﷺ أبي لهب[1] حيث نزلت سورة كاملة في القرآن الكريم في ذمّه (عليه اللعنة وسوء العذاب)، ونستنتج من ذلك ان القرب والبعد من الله تعالى أو ممن اختصهم الله تعالى بالقرب منه يكون بشيء واحد فقط وهو التقوى.

سادسا: الدين يبعث على الاطمئنان ويطرد الحيرة والقلق.

يقول تعالى: (...أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد: ٢٨).

ويقول تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...) (الفتح: ٤).

ويقول تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) (الأنعام: ٨٢).

إن احد أهم فوائد البحث عن الدين هو أنه يؤدي إلى الراحة والاطمئنان التي يبحث عنها الإنسان عموماً ولكن الذي يحصل عليها هو المؤمن دون غيره، ولذلك نرى أن الشاب المؤمن رغم افتقاره لأغلب مقومات الحياة لكنك تجده حامدا لله شاكرا له وفي حالة من الاطمئنان والاعتقاد بأنه لو أُغلقت كل الأبواب فهناك باب مفتوح لا ينغلق أبدا وهو باب الله تعالى، فهو باب فتحه الله تبارك وتعالى لعباده في كل وقت، وهذا في الواقع من أعظم النعم التي تستحق الشكر، وهذا هو ما يفتقده أبناء المادة فنجد أعلى معدلات الانتحار

---

(١) سورة المسد.

عندهم على الرغم من توفر كل مقومات الحياة لديهم ولكنهم يفتقرون لأهم مقوم للحياة وهو الدين الذي من خلاله يكون القرب من الله تعالى، ومن خلال هذا القرب يتحقق الاطمئنان عند الإنسان.

لقد فضلوا الموت (الانتحار) على الحياة لأنهم ابتعدوا عن الدين، والبعد عن الدين إنما هو بسبب البعد عن الله تعالى، هذا أولا، وثانيا أنهم اعتقدوا بأن وجودهم في الحياة لا يعني شيئاً، وثالثا أنهم اعتقدوا بأن الموت فناء وانتهاء ولم يعلموا بأن الموت عبارة عن انتقال من عالم إلى آخر.



المحطة الثانية: أهداف الدين والشرائع السماوية:



بعد ان بينا ما هي الفائدة من البحث عن الدين، نأتي الآن على تبيان ما هي الأهداف من وجود الدين والشرائع السماوية؟

الهدف الأول: حماية النفوس.

يقول تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ...) (البقرة: ١٧٩).

الفائدة من وضع الإسلام لقانون القصاص هو حماية النفس البشرية ولاستمرارية الحياة، باعتبار أن القصاص يحمي الحياة مما يعني استمرارها. ولولا القصاص لوجدنا القتل والفساد منتشرا في كل مكان في العالم كما هو الحال الآن، والسبب في انتشاره هو عدم وجود رادع للناس عن ارتكاب الجرائم، فوجد الإسلام ان من ضروريات استمرار الحياة هو وضع قانون القصاص.

الهدف الثاني: حماية العقول.

إن الخطر لا يهدد النفوس أو الأبدان فقط، بل إنه يتجاوز ذلك ليصل إلى العقل البشري فيعمل على إفساده بطريقة وبأخرى، ومن هنا نجد أن الأديان والشرائع السماوية على اختلافها قد حرّمت المسكرات والمخدرات والهدف من هذا التحريم هو حماية العقل البشري الذي هو أفضل ما ميّز الله تعالى به الإنسان على سائر المخلوقات وهذا ما نجده واضحًا -التفضيل- في الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام:

١ - فعن العلاء بن محمد، عن الباقر عليه السلام، قال: لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له اقبل فأقبل، ثم قال أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أحب إليّ منك، ولا أكملك إلا فيمن أحب أما اني إياك أمر، وإياك أنهى، إياك أثيب[١].

٢ - وفي فضل العقل وبيان أهميته «قال النبي صلى الله عليه وآله: لكل شيء آلة وعدة وآلة المؤمن وعدته عقله، ولكل شيء مطيّة ومطيّة المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراع العابدين العقل، ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المتهجدين العقل، ولكل خراب عمارة وعمارة الآخرة العقل، ولكل سفر فسطاط يلجئون إليه وفسطاط المسلمين العقل[٢].

---

(١) بحار الانوار: ج(١) - ص ٩٦، ح(١).

(٢) المصدر نفسه: ج(١) - ص ٩٥، ح(٣٤).

الهدف الثالث: حماية النشأ (الجيل) الجديد.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...) (التحريم: ٦).

يقول تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ...) (النساء: ١١).

ركز الدين والشرائع السماوية على حماية النشأ الجديد (الجيل الصاعد) وذلك من خلال دعوة الآباء إلى التلطف مع الأبناء فهم زينة الحياة الدنيا كما يعبر القرآن الكريم بقوله تعالى: (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) (الكهف: ٤٦)،وهذا ما يترجمه النبي الأكرمﷺ على ارض الواقع من خلال تعامله مع سبطيه الحسن والحسين عليهما السلام.

فعن عبد الله بن شداد عن أبيه، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً فتقدم النبي ﷺ فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها قال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ وسلم) قال الناس: يا رسول الله انك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها حتى ظننا انه قد حدث أمرٌ أو انه يوحى إليك. قال: كل ذلك لم يكن ولكن ابني ترجلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته»[1].

---

(١) مسند احمد: ج(٦) – ص ٤٦٧.

الهدف الرابع: المعرفة الدينية الشاملة الكاملة.

وذلك يكون من خلال القرآن الكريم، فلو نظرنا وتأملنا في القرآن لوجدناه يصور لنا كل شيء أما من خلال الآيات القرآنية أو من خلال أسماء السور نفسها، ولتتضح الصورة نقول:

لقد تمت الإشارة إلى مختلف المعارف البشرية من خلال القرآن الكريم تصريحاً أو إشارة، ومن ذلك:

أولا: بيان أصول الدين.

فقد تم بيانها في سور كثيرة من القرآن الكريم، ومن أوضحها سورة الإخلاص التي تحمل اسما آخر هو من أسماء أصول الدين وهو التوحيد.

ثانيا: أسماء النبوة والنبوات.

كسورة (الأنبياء - محمد ﷺ - طه - نوح - إبراهيم وغيرها من السور الأخرى التي تحمل أسماء الأنبياء).

ثالثا: أسماء يوم القيامة.

كسورة (القيامة - الأعراف - القارعة وغيرها).

رابعا: أسماء مخلوقات عاقلة.

كسورة (الإنسان - الناس - الجن).

خامسا: أسماء عالم الطبيعة (بكل صفاته من حيوان ونبات وجماد).

كسورة (البقرة - الفيل - العنكبوت - النور - الشمس - الليل - الضحى - القمر - الرعد - الحديد).

سادسا: أسماء العبادات.

كسورة (الحج - السجدة).

سابعا: الأخلاق.

كسورة (عبس - الماعون - المطففين - الهُمزة).

ثامنا: أسماء السياسة والمجتمع.

كسورة (الشورى - الأحزاب - المؤمنون - الكافرون - التوبة - المنافقون - الجمعة - النساء).

الهدف الخامس: حماية الأموال.

وحمايتها تكون بجعل الحرمة لها، فلا يجوز أخذها إلا برضا صاحبها، وكذلك بتطهيرها معنوياً من خلال إخراج الحقوق المفروضة عليها من المالك الحقيقي، وهو الله تعالى، يقول تعالى: (خُذْ مِنْ أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ...) (التوبة: ١٠٣).

يقول تعالى: (وَلاَ تَأْكُلُواْ أموالكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...) (البقرة:١٨٨).

الهدف السادس: التحرر من قيود الماضي السيئ.

يقول تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ) (البقرة:١٧٠).

إن أحد أهم أهداف الأديان هو تحرير الإنسان من قيود الماضي السيئ والانطلاق بالإنسان نحو التفكر والتدبر والاستماع وانتقاء

الأفضل، كما يقول الحق تعالى (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...) (الزمر: ١٨)، وهذا ما دعا إليه كل الأنبياء عليهم السلام ولكنهم جوبهوا بحقيقة واحدة وهي عدم تخلي قسم من أقوامهم عن إتباع الآباء حتى وان كان آباؤهم على انحراف وضلال، كما يبين ذلك ذيل الآية الكريمة أعلاه، حيث تبين الآية إنهم (لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ) وكل تعبير ناظر إلى حيثية مهمة، وهي:

(لا يهتدون): أي إنهم لم يسمعوا الكلام عندما دعاهم الأنبياء إلى الهداية.

(لا يعقلون): أي إنهم لم يستخدموا عقولهم في عبادة الله الواحد الأحد وعبدوا الأصنام التي صنعوها بأيديهم وهي لا تضر ولا تنفع، والقران الكريم يصور لنا بعض هذه الحقيقة كما حدث مع إبراهيم عليه السلام حيث يقول تعالى (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ، قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الأنبياء: ٢٥ - ٣٥).

وكذلك ما حدث مع موسى وهارون عليهما السلام حيث يقول تعالى: (قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا...) (يونس: ٧٨).

وكذلك الحال مع بقية الأنبياء عليهم السلام يقول تعالى: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٣).

وبالمقابل يصور لنا القرآن الكريم أنَّ أبناء أسرة التوحيد لم يتأثروا بالماضي السيئ، فمثلا يوسف عليه السلام قال الحق تعالى حاكيا عن لسانه (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (يوسف: ٣٧)، فنجد أن يوسف عليه السلام رغم سكنه في قرية كان أهلها

غير موحدين ومن ثم انتقل إلى مصر وأهلها أيضاً لم يكونوا من الموحدين إلا انه بالرغم من ذلك استطاع ان يحرر نفسه من قيود الماضي والحاضر في بيئته المجتمعية من خلال إيمانه بالله تعالى وحده.

أقول:

الخلاصة: أن الدين يعطي للإنسان حرية الاستماع وإتباع الأفضل وهو كذلك يحرر الإنسان من القيود والأغلال كما يعبر القرآن الكريم بقوله تعالى (...وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ...) (الأعراف: ١٥٧)، على عكس ما يدعيه أبناء المادة والإلحاد بأن الدين عبارة عن مجموعة من القيود التي تكبل الإنسان.

المحطة الثالثة: مواجهة الأنبياء للمنحرفين عن الدين عبر التاريخ؟

واجه الأنبياء المنحرفين عن الدين عبر التاريخ بطرق عديدة ومتنوعة سنوضح بعضا من تلك الطرق:

الطريقة الأولى: الردع.

يقول تعالى: (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (الأنبياء:٥٢).

الردع هو احد الطرق التي استخدمها الأنبياء لمواجهة المنحرفين عن الدين، والغاية منه هو كسر قدسيّة الصنم عند إتباعه وكشف زيفه ومحاولة إرجاعهم إلى طريقة التفكر والتدبر.

الطريقة الثانية: الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام.

يقول تعالى: (...يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا) (مريم: ٤٢).

يقول تعالى: (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ...) (الأنبياء: ٦٦ - ٦٧).

بعدما استخدم الأنبياء أسلوب الردع والتقريع استخدموا بعد ذلك أسلوب الإتيان بالأدلة والبراهين التي استدلوا بها على بطلان عبادة الأصنام وذلك من خلال تبيين ان هذه الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع كما توضح الآية الكريمة أعلاه.

الطريقة الثالثة: توضيح أكذوبة عبادة الأصنام.

يقول تعالى: (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا...) (العنكبوت: ١٦ - ١٧).

وضح الأنبياء ان عبادة الأصنام عبارة عن أكذوبة من خلال البراهين التي استدلوا بها وذلك من خلال توضيح أنها من صنع الإنسان نفسه ولكنه عمل على خداع نفسه فصدّق بها، حيث بينوا ان تلك الأصنام هي بالأصل من صنع الإنسان صنعها من الأحجار وغيرها وقد أراد الأنبياء ان يوضحوا لعبدة الأصنام أنها بحد ذاتها مخلوقة فكيف لمخلوق ان يَخلق؟!

وإذا كان لا يستطيع ان يخلق فكيف يستطيع ان يرزق وكيف له ان يدفع الخطر عن نفسه فضلا عن دفع الخطر عن الآخرين؟

فمن خلال كل تلك الأمور استطاع الأنبياء أن يثبتوا أن عبادة الأصنام عبارة عن سراب ولا حقيقة لها.

الطريقة الرابعة: استخدام الدليل الواقعي.

يقول تعالى: (قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ...) (الأنبياء: ٥٦).

بعدما بين الأنبياء للناس ان عبادة الأصنام عبارة عن أكذوبة من صنع الإنسان، جاءوا بالدليل الواقعي الذي يثبت أحقية ما قالوه وذلك من خلال تعريف الناس بالخالق القادر الذي خلق السماوات والأرض بهذه الطريقة العجيبة وبينوا ان هذا الخالق هو القادر على كل شيء فهو الرازق وهو الذي يدفع الأخطار عن الناس وهو الذي يستحق العبودية وحده لا شريك له، والهدف من ذلك هو قطع باب الاعتذار عن المنحرفين بأنهم لو تركوا عبادة أصنامهم فمن يعبدون؟

الطريقة الخامسة: معرفة جذور الانحراف.

يقول تعالى: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا) (مريم: ٤٤).

وضح الأنبياء للناس الجذور الحقيقية التي جعلتهم يعبدون الأصنام ويعكفون على عبادتها حيث بينوا لهم ان الجذر الحقيقي أو السبب الحقيقي لانحرافهم وعبادتهم للأصنام هو إتباعهم للشيطان، لأن طبيعة الشيطان هي العصيان كما عبرت الآية الكريمة أعلاه (إن الشيطان كان للرحمن عصيا)، والهدف من تبيين ذلك هو توضيح طريق الحق لهم كي لا يتبعوا الشيطان ولا يقعوا بالانحراف مرة أخرى ويعودوا لعبادة الأصنام.

الطريقة السادسة: التحذير من النتائج والآثار.

يقول تعالى: (...إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (مريم: ٤٥).

هل اكتفى الأنبياء بتوضيح الجذور الحقيقية التي جعلت الناس يعبدون الأصنام؟

كلا، بل إنهم بالإضافة إلى ذلك فقد حذروا الناس من مغبة إتباع الشيطان والذي ينتج عنه الابتعاد عن الله تعالى وبالتالي الانحراف عن الطريق المستقيم وإذا انحرف الإنسان عن الطريق المستقيم أصبح من أولياء الشيطان والعياذ بالله وعاقبته ستكون إلى النار حتماً، كما يبيّن ذلك القرآن الكريم من خلال قوله تعالى (...وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ) (محمد: ١٢).

الطريقة السابعة: استخدام الدليل النقلي (الوحياني).

يقول تعالى: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) (مريم: ٤٣).

لم يكتف الأنبياء باستخدام الدليل الواقعي (العقلي) لدعوة الناس وإنما تعدوا ذلك إلى استخدام الدليل النقلي (الوحياني) وأحد هذه الأدلة الوحيانية هو العلم الإلهي الذي نزل على الأنبياء والذي يفتقر إليه الناس كما تحكي الآية الكريمة ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه (عمه آزر)، فإبراهيم دعا عمه إلى إتباع الحق من خلال العلم الإلهي النازل عليه والذي كان يفتقر إليه عمه، وكذلك تبين الآية ان هذا العلم يؤدي بالإنسان إلى العصمة وإتباع الصراط المستقيم.

الطريقة الثامنة: الجمع بين الدلائل العقلية والنقلية.

يقول تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف: ٤).

جمع الأنبياء بين الدلائل العقلية والنقلية كما توضح هذه الآية والهدف منه هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، وذلك كان من خلال احتجاج الأنبياء على الناس بأن هذه الأصنام لو كانت قادرة على الخلق كما تزعمون فأرونا ماذا خلقت؟ وأين ما خلقته؟ حيث طلبوا (الأنبياء) من عبدة الأصنام ان يأتوهم بالأدلة والبراهين التي تثبت صفة الخالقية للأصنام كما جاء في الآية (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم ان كنتم صادقين).

ومن خلال هذه الأمور التي طرحها الأنبياء استطاعوا كشف زيف الأصنام وبطلان عبادتها.

الطريقة التاسعة: تكسير الأصنام.

يقول تعالى: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ...) (الأنبياء: ٥٧).

يقول تعالى: (وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) (طه: ٩٧).

بعد أن حاول الأنبياء بكل الطرق السابقة إعادة الناس إلى المنهج الصحيح وترك عبادة الأصنام والعبودية لله تعالى وحده، وبعدما رؤوا صدود الناس وإصرارهم على ضلالهم، قاموا بتكسير الأصنام

بهدف إثبات عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها، وبالتالي عجزها وعدم أهليتها لتكون آلهة تُعبد من دون الله تعالى.



المحطة الرابعة: نظريات نشأة الدين:



سنوضح النظريات التي تبين نشأة الدين على نحو الإجمال، وهي تنقسم إلى قسمين:

أ - النظريات الماديّة لنشأة الدين

وهنا عدة نظريات، نذكر منها:

النظرية الأولى: النظرية الماركسيّة.

ترى هذه النظرية ان جميع حركات التاريخ وتكامل المجتمعات لها جذور اقتصادية وان أساس أو أهم الدوافع للتعلق بالدين هو العامل الاقتصادي[1].

قسّم الماركسيون الناس إلى طبقتين: طبقة الأغنياء وعبروا عنها (بالطبقة البرجوازية)، وطبقة الفقراء وعبروا عنها (بالطبقة الكادحة أو المحرومة)، وهذه الطبقة الغنية (البرجوازية) تقوم باستغلال ثروات ومقدرات الفقراء ولكي يستمر هذا الاستغلال صنع الأغنياء لأجل

(١) انظر كتاب الفطرة (الشيخ مرتضى مطهري) - ص ١٥٩.

مصلحتهم مجموعة من المفاهيم كالقناعة والصبر والجنة والنار ليقنعوا بها الطبقة الفقيرة، وبالتالي سيرضخ هؤلاء الفقراء لهذه المفاهيم ولا يطالبون بحقوقهم، لأنه وبحسب نظر الماركسيين من الطبيعي ان يكون هناك فرد غني وفرد فقير، وهذه المفاهيم التي صنعها الأغنياء بمرور الزمن أصبحت تسمى بـ (الدين).

إذن، حسب نظر الماركسيين، ان الذي اوجد الدين هي الطبقة الغنية البرجوازية لتأمين مصالحها واضعة هذا الدين الذي عبروا عنه بـ(الدين افيون الشعوب) بين يدي الفقراء لخداعهم.

نقد النظرية الماركسية:

ليكون الرد على هذه النظرية منصفا نقول التالي:

ليس من المنهجي ردّ نظرية ما من دون مطالعة نصوصها الأساسية وما تهدف إليه، وما يمكن أن يكون نقطة قوة فيها أو نقطة ضعف، حتى يكون قبولها أو رفضها موافقًا للمنهجية العلمية العامة.

إن الدين الإسلامي يؤخذ من خلال منبعين لا ثالث لهما وهما: القرآن الكريم والعترة الطاهرة المتمثلة بالنبي ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام قولاً وفعلاً وتقريراً، ولذلك سنناقش هذه النظرية من ناحيتين:

الأولى: الناحية الزمنية.

ان الماركسيين طرحوا هذه النظرية في زمن الإقطاع والرأسمالية، وفي واقع الأمر ان الدين قد وجد وولد قبل هذه الفترة، فتاريخ الأديان والحضارات يوضح ان الدين وجد بوجود الإنسان، أي لما وُجِدَ الإنسان على وجه الأرض وجد الدين، وهذا الاعتقاد جاء من

خلال ما اكتُشف من آثار عبادة الأصنام والطقوس الدينية التي كانت عند الأمم السابقة وكذلك من خلال الآثار والكتابات والرسومات التي وجدوها على الجدران والتي تشير إلى الركوع والسجود والتعميد وغير ذلك.

وهذا الحال مشابه لما كان يقوم به الفراعنة حيث كانوا يقومون بدفن الأغراض الشخصية لموتاهم معهم كالثياب والمأكل لاعتقادهم ان هؤلاء سيعودون بعد الموت وعند عودتهم يجب ان تكون أشياءهم متواجدة عندهم، وهذا يدل على وجود الاعتقادات الدينية عندهم ومن خلالها اعتقدوا بأن هناك عودة للحياة بعد الموت.

إذن من خلال ما ذكرناه يتضح ضعف ووهن هذه النظرية من الناحية الزمنية لان الدين والتدين موجودان منذ أقدم العصور حتى قبل وجود الطبقات البرجوازية أصحاب رؤوس الأموال، وإذا كان الدين متواجداً قبل ظهور مثل هذه الطبقات، فهل لماركس والماركسيين ان يوضحوا لنا سبب تعلق الناس بالدين منذ تلك العصور؟

ومن هنا يتبين أكثر سقوط هذه النظرية ووهنها وأنها مثل بيت العنكبوت الذي هو من أوهن البيوت كما يصرح بذلك القرآن الكريم بقوله تعالى:(...وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ...) (العنكبوت:٤١) ، ولذلك ندعو شبابنا ان يلتفتوا لمثل هذه الأمور ولا ينجروا وراء مثل هذه النظريات الواهية وينخدعوا بها.

الثانية: الناحية الموضوعية (التحليلية).

وهنا سنقوم بمناقشة هذه النظرية من خلال طرح مفاهيمها على القرآن الكريم والعترة الطاهرةعليهم السلام ، حيث طرح الماركسيون مجموعة من الشبه نذكر منها:

الشبهة الأولى: الدين أنشأه الأغنياء.

كما بينا سابقا بأن هذه النظرية قائمة على ان الدين أنشأه الأغنياء ولكننا سننقد هذه الشبهة من خلال الأدلة الآتية المستفادة من آيات القرآن الكريم:

١ - يقول تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...) (الإسراء: ٧٠).

من خلال التدبر والتمعن في الآية الكريمة نجدها مطلقة في تكريم بني آدم أي لم تفرق بين أحد وآخر على حساب العِرق أو اللون أو الغنى الفقر وغيرها من الفوارق الطبقية التي تحكم بعض المجتمعات، وهذا التكريم لم يذكره القرآن الكريم فقط على مستوى النظرية، وإنما تعدى ذلك إلى مستوى العمل به، فعلى مستوى الرسالة المحمدية التي سادت بين أبناء المجتمع الواحد فإنها لم تفرق بين شخص وآخر وهذا ما نستنتجه من قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: الناس سواء كأسنان المشط.[(١)]

ولم يقف الأمر عند حدود النبي صلى الله عليه وآله وإنما تعداه إلى الأئمة الأطهار عليهم السلام فنجد ذلك في الإمام علي عليه السلام مع النسوة اللاتي جئن فكانت إحداهن تشتكي كيف يساويها الإمام مع غيرها، فقد روى أبو

---

(١) تحف العقول للحراني ص٣٦٨.

إسحاق الهمداني أن امرأتين أتتا عليا عليه السلام إحداهما من العرب والأخرى من الموالي فسألتاه ، فدفع إليها دراهم وطعاما بالسوء ، فقالت إحداهما : إني امرأة من العرب وهذه من العجم ، فقال : إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفئ فضلا على بني إسحاق.[1]

وعن عبد الله بن الصلت، عن رجل من أهل بلخ، قال: كنت مع الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان فدعا يوما بمائدة له جمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة، قال: مَه: ان الرب تبارك وتعالى واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال﴾[2].

أقول:

عندما بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكة المكرمة، فإن مجتمع مكة آنذاك كان قائما على أساس التفريق بين الناس والتمييز بينهم فكان هناك فرق بين العبيد ومالكيهم وبين الأغنياء والفقراء، ولكن بمجرد مجيء الإسلام ألغى كل تلك الفوارق الطبقية التي كانت سائدة وساوى بين الجميع وجعل الميزان الحقيقي بين الناس هو التقوى، كما يوضح ذلك قوله تعالى (...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...) (الحجرات: ١٣) فلم يقل أغنياؤكم أو أكثركم قوة أو أموالا أو أولادا.

وهنا نوجه السؤال للماركسيين: إذا كان الدين هو الذي دعا إلى إلغاء الفوارق الطبقية وحارب الخنوع والخضوع للأغنياء، فكيف

---

(١) - بحار الأنوار ج٤١ ص١٣٧.

(٢) الكافي للكليني ج٨ ص٢٣٠ ح٢٩٦.

يكون من أنشأ الدين هم الأغنياء؟ أي هل ان طبقة الأغنياء جاءت بالدين لتحارب نفسها بنفسها؟! فأي فكرة واهية هذه (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) (الصافات: ١٥٤).

٢ - يقول تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...) (الأعراف: ٢٩).

الآية الكريمة تبين دعوة الإسلام الصريحة إلى القسط، والقسط المقصود به هنا في الآية هو العدل كما جاء في كتب التفسير ﴿(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ). أي العدل﴾[1].

وهذا يدل بوضوح على ان الدين يدعو إلى العدل، وهذا دليل آخر على بطلان دعوى الماركسيين عندما ادعوا ان الدين أنشأه الأغنياء لأن من غير المعقول ان يدعوا الأغنياء إلى العدل وهم يستولون على أموال الناس؟!

٣ - يقول تعالى: (...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى...) (المائدة: ٢).

للتعاون ثقافة خاصة في القرآن الكريم فلا يوجد موضوع أخلاقي كمساعدة الفقراء والمحتاجين أو عيادة المرضى أو غيرها من الأمور الأخلاقية إلا ويدخل التعاون فيها بشكل أساسي، ومن خلال هذا نستنتج ان الدين يحث على المساعدة، وقد بين الدين أوجهاً عديدة للمساعدة منها:

أ - اخذ الصدقات من الأغنياء كما في قوله تعالى (خُذْ مِنْ أَموالِهِمْ صَدَقَةً...) (التوبة: ١٠٣)، أو من خلال تبرع الأغنياء بجزء من

---

(١) تفسير القمي: ج(١) - ص ٢٢٦.

أموالهم. وهذه الأموال التي تؤخذ من الأغنياء اما بالتبرع او من خلال الصدقات توزع على الفقراء والمحتاجين.

ب - الثراء الفاحش، من الأمور التي نهى عنها الإسلام هو الثراء الفاحش غير المشروع وهذا الثراء يأتي من عدة مصادر وقد بينها القرآن الكريم لكننا سنبين بعضا منها:

الأول: كنز الأموال وجمعها بيد الأغنياء فقط كما يقول تعالى (مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ...) (الحشر: ٧)، فالآية الكريمة توضح موارد توزيع الأموال على فئات المجتمع المختلفة وبطريقة التكافل الاجتماعي المشروع، كي لا يتجمع المال بيد الأغنياء فقط، لان تجمع الأموال بيد الأغنياء فقط يؤدي إلى الطبقية التي تتسبّب الكثير من المشاكل الاجتماعية.

ويقول تعالى: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ) ﴿التوبة ٣٤ – ٣٥﴾

الثاني: الربا، فالربا من الأمور التي تؤدي إلى الثراء الفاحش غير المشروع بالإضافة إلى انه عمل غير أخلاقي لأنه يؤدي إلى قطع سبيل المعروف بين أبناء المجتمع الواحد وقتل حس المساعدة فيما بينهم، ولذلك نهى الإسلام عن العمل به بل وحرمه أيضاً ودعا إلى الكسب الحلال من خلال البيع كما في قوله تعالى (...وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...) (البقرة: ٢٧٥).

ثالثا: عدم الاعتداء على أموال الغير، حيث أنها أيضاً من الأمور التي تؤدي إلى الثراء الفاحش غير المشروع وقد نهى الإسلام عنه بقوله تعالى (وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ...) (البقرة: ١٨٨).

ومن خلال كل ما بيناه سابقا نرى سقوط نظرية الماركسيين حيث انه من غير المعقول ان تكون الطبقة الغنية جاءت بالدين لتوزع أموالها على الفقراء والمحتاجين، أو تكون جاءت بالدين لكي لا يتجمع المال بيدها فقط أو تدعو إلى عدم الاعتداء على أموال الغير وهم يسيطرون على أموال الفقراء ومقدراتهم.

٤ - يقول تعالى: (...إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة:٣٤).

الآية الكريمة توضح أمراً مهماً وخطيراً وهو احتكار الأموال باسم الدين، فنجد الإسلام يذم هذا الأمر وكذلك يذم من يقوم به حتى وان كانوا من الرجال المحسوبين على الدين (كالأحبار والرهبان).

فإذن، من خلال هذا نجد ان الدين يذم احتكار الأموال ويذم محتكريها أيضاً، والطريف ان الدين لا يذم الاحتكار والمحتكرين فقط وإنما يشجع على الإنفاق ويدعو إليه في شبكة آيات في القرآن الكريم كما في قوله تعالى (...وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (البقرة: ٣)، أو قوله تعالى (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: ٢٦١)، أو قوله تعالى (الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ

يَحْزَنُونَ) (البقرة: ٢٧٤) وهنا نجد الآيتين الكريمتين لا تشجعان الإنفاق فقط وإنما تبينان اجر المنفق في سبيل الله تعالى أيضاً وماله من ثواب عظيم ومضاعف عند الله عز وجل.

أقول:

في الوقت الذي دعا به الإسلام إلى الإنفاق وشجع عليه نجده في ذات الوقت نهى عن الإنفاق الذي يتبعه منٍّ وأذى، كما في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ...) (البقرة: ٢٦٤)، لان هذا الأمر سيعود بالضرر على الفقراء حيث يسبب لهم الإحراج والأذية ولذلك نهى عنه الإسلام ودعا إلى تجنبه وقد ورد في الأثر ان الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان يعطي السائل الأموال من وراء الحجاب فعندما سئل عن سبب عمله هذا قال: كي لا أرى ذل السائل على وجهه، أي ان الإمام يعطينا درسا في حفظ ماء وجه السائل.

التفاتة:

بينا سابقا ان الدين يحرص كل الحرص على أن لا يكون المال بيد فئة معينة من الناس، ولكي يحد الإسلام من هذه الظاهرة بينا أيضاً بأنه جعل طرقاً للحد منها كدعوة الأغنياء للتبرع بجزء من أموالهم او من خلال اخذ الصدقات وكذلك من التشريعات التي شرعها الدين لكي يحد من ظاهرة تجمع الأموال بيد الأغنياء هي الخمس كما جاء في قوله تعالى: (وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى...) (الأنفال: ٤١)، فيصرف المال عبر موارد معينة مستحقة، أشارت لها الآية الكريمة، وقد ورد تفصيل ذلك في روايات

الأئمة عليهم السلام وكتب الفقه، وهكذا من خلال تشريع الزكاة وإعطائها لمستحقها كما هو مبينٌ أيضاً بالتفصيل في كتب الفقه فيرجى المراجعة.

الشبهة الثانية: الدين أفيون (مخدر) الشعوب.

من ضمن الشبه التي طرحها أصحاب النظرية الماركسية هي أنهم عبروا عن الدين بأنه افيون (مخدر) الشعوب، ولكن هذا الأمر في الحقيقة غير صحيح وسنوضح كيف ذلك من خلال القرآن الكريم:

١ - يقول تعالى: (...فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي...) (الحجرات: ٩).

٢ - يقول تعالى: (...فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ...) (التوبة: ١٢).

٣ - يقول تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...) (الحج:٣٩).

٤ - يقول تعالى: (وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ...) (هود: ١١٣).

نجد في هذه الآيات الكريمة حثاً على القتال وهذا ان دل على شيء فهو يدل على أن الدين دين حركة لأننا كما نعرف أن القتال نوع من أنواع الحركة وليس دين سكون وتقاعس وكسل كما يزعمون، وكذلك ما يؤكد على ان الدين دين حركة هو قوله تعالى (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...) (التوبة: ١٠٥).

٥ - يقول تعالى: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ...) (النساء: ٧٥).

في الآية الكريمة توضيح لأمر مهم وهو ان الدين لا يمدح القتال في سبيل الله تعالى فقط وإنما يتعدى ذلك إلى مدح الدفاع عن الناس

أيضاً كالمستضعفين والنساء والأولاد الذين لم يبلغوا سن القتال بعد بل ويحث عليه.

فهل الأغنياء هم من وضعوا هذه الآية ليدعوا إلى الدفاع عن المستضعفين وهم من يُسيطر على أموالهم؟!

الشبهة الثالثة: أتباع الدين هم من أبناء الطبقة الحاكمة فقط.

من الشبه التي طرحها الماركسيون هي أن أتباع الدين هم من أبناء الطبقة الحاكمة الغنية او البرجوازية كما عبروا عنها، لان تلك الطبقة هي التي أتت بالدين ولذلك من الضروري أن يكون أتباع الدين من أبناء تلك الطبقة.

ولكن الواقع يثبت عكس ما يدّعونه فإنه مضافًا إلى أن هذه الشبهة بحدّ ذاتها هي معارضة للشبهتين السابقتين، فإننا نجد ان أتباع الدين أو الأديان السابقة على نحو العموم هم من أبناء الطبقات الفقيرة كما يقول تعالى في وصف قوم نوح عليه السلام (...وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا...) (هود: ٢٧)

وكذلك الحال مع بني إسرائيل فإن القرآن الكريم يثبت هذه الحقيقة كما في قوله تعالى (وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ...) (البقرة: ٤٩)، فكما توضح الآية ان بني إسرائيل كانوا مستضعفين فبعث الله تعالى موسى عليه السلام ليخلصهم وينجيهم من عذاب آل فرعون ولو سلطنا الضوء قليلا على حياة موسى عليه السلام نجده في الواقع من أبناء الطبقة الفقيرة المحرومة من حيث دمه وعنصره ولكنه من حيث الطبقة فهو ينتمي إلى الطبقة الحاكمة المستغلة لحقوق الآخرين لأنه كان بمثابة ابن

فرعون وعاش عمره في قصره وتربى بنعمته وعزه فلذلك هو يعد أميراً من الطراز الأول، ولكن رغم كل هذا نجده يثور على فرعون لمصلحة طبقة محرومة مستضعفة وهم بنو إسرائيل، وهذا في الحقيقة يتعارض مع تفسير الماركسيين لأنهم يؤمنون بالطبقية حسب رأيهم بنشوء الدين وليس بالعنصرية والدم، وإذا كانت الطبقة الحاكمة هي التي أنشأت الدين فمن الأولى ان يكون موسى من أنصار فرعون وليس ثائرا ضده، وهنا أيضاً تَسْقُط النظرية الماركسية من جديد.

وهذا لم يحصل مع بني إسرائيل فقط وإنما على مستوى الدين الإسلامي أيضاً فنجد ان الإسلام يعد المسلمين المستضعفين بإعطائهم الخلافة التي اغتصبها منهم الآخرون كما يوضح ذلك قوله تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) (القصص: ٥)، أو قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ...) (النور:٥٥)، وأيضاً قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء: ١٠٥).[1]

فنستنتج بعد كل ما بيناه ووضحناه ضعف هذه النظرية وبؤسها على كل الأصعدة سواء أكانت على المستوى الزماني أو على المستوى الموضوعي (التحليلي).

---

(١) خلافة الارض ستكون لهم في الظهور والرجعة وقد بيّنا جزءً من هذا البحث (الرجعة) في كتابنا المعاد من هدي القرآن والعترة.

الخلاصة:

ان الدين ينهى عن أمور وفي ذات الوقت يأمر بالقيام بأمور أخرى ويشجع عليها وفي كلا الحالتين تتعارض مع طغيان الأغنياء وآرائهم فكيف يكون هم من أنشا الدين حسب رأي الماركسيين، ومن هذه الأمور:

١ - الدين دعا إلى تكريم البشرية جمعاء ولم يقس ذلك على حساب اللون او العرق او الطبقة.

٢ - الدين دعا إلى القسط (العدل).

٣ - الدين دعا إلى التعاون من خلال مساعدة الفقراء والمحتاجين.

٤ - الدين نهى عن كنز الأموال وتجميعها بيد الأغنياء أو فئة معينة من الناس.

٥ - الدين دعا إلى الإنفاق وشجع عليه.

٦ - الدين دعا إلى العمل والحركة وليس مخدر (افيون).[1]

أيضاً من الشبه التي طرحوها هي أنهم قالوا: ان الدين ولّده جهل الناس، ولكن إذا كان الأمر هكذا فنجد أنه من الطبيعي بمجرد بزوغ فجر العلم يزول الدين جملة وتفصيلا، وخاصة في وقتنا الحاضر ونحن نعيش حالة من التقدم والتطور العلمي والتكنولوجي لا نظير لها، فمن الطبيعي حسب رأيهم أن لا نلاحظ أي وجود للدين وكذلك لا نجد

---

(١)أقول:

وهناك ما يمكن اعتبارها شبهة من جملة الشبه التي طرحها الماركسيون وهي:

الشبهة: الدين معلول جهل الناس. (انظر كتاب الفطرة للشيخ مرتضى مطهري).

أي اثر للمتدينين في طبقات العلماء، ولكننا في حقيقة الأمر نجد عكس ذلك تماما فنجد ان اعلم العلماء هم من أبناء الطبقة المتدينة.

يقول الشيخ مرتضى مطهري في كتابه الفطرة - ص ١٧٣

ان نظرية هؤلاء تقضي بأن آينشتاين لا يمكن ان يكون مؤمنا بدين، وكذلك الحال مع ماكس بلانك، وويليام جيمز، وبروكسن وامثالهم. وعن داروين نفسه جاء في كتاب (الداروينية) انه بقي حتى آخر أيامه مؤمنا بالله الواحد، وعلى الرغم من ان الكنيسة قد كفرته تكفيرا شديدا.

ويقول الشيخ: قرأت انه عندما كان داروين على وشك الموت، الصق الكتاب المقدس بصدره ولم يتركه.

٧ - الدين دعا إلى الجهاد ليس فقط في سبيل الله تعالى وإنما حتى لأجل الدفاع عن المستضعفين والفقراء وشجع عليه.

٨ - الدين نهى عن الإنفاق من أجل الرياء.

٩ - الدين نهى عن الثراء الفاحش غير المشروع.

١٠ - الدين نهى عن الاعتداء على أموال الآخرين.

١١ - لم يكن أتباع الدين من أبناء الطبقات الغنية فقط بل نجد عكس ذلك فإن اغلب اتباع الدين من أبناء الطبقة الفقيرة الكادحة، نعم هناك من الأغنياء من اتبعوا الدين ولكن الفقراء تناغموا أكثر مع مفاهيم الدين وذلك لأنهم وجدوه يدافع عن حقوقهم وليس كما يدعي ماركس وأصحابه بأن الدين خدّر الفقراء عن المطالبة بحقوقهم.

أقول:

ولذلك علينا ان نأخذ الدين من منابعه الصحيحة ومصادره الموثوقة كالقران الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام، لأن الدين عبارة عن ثورة وثروة، فالدين عندما جاء في زمن الجاهلية غيّر الكثير من مفاهيم تلك المرحلة ودعا إلى المساواة في كل شيء ونجد هذا المعنى واضحاً في قول الرسول صلى الله عليه وآله: وكونوا عباد الله إخوانا، فالمسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقّره فالتقوى هاهنا (ويشير إلى صدره ثلاث مرات) بحسب امرئ من الشر ان يحقّر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه...[1].

التفاتة:

هناك جدلية منذ قديم الزمان تدور في الأروقة العلمية، وهي: هل ان السلطة تولد القوة أم القوة تولد السلطة؟

الجواب: الفرضيتان صحيحتان، فالقوة تولد السلطة وفي ذات الوقت السلطة تولد القوة. أي إنه إذا كان الإنسان يملك القوة فهذه القوة ستولد سلطة، وإذا كانت بيده سلطة فتلك السلطة ستولد قوة أيضاً ومن هذا نستنتج ان كلاً منهما يولد الآخر، ولكن السؤال يبقى ما هو رأي الإسلام في ذلك؟

فنقول: الإسلام دعا إلى تقنين هذين الأمرين، حيث ان الإسلام يرى ان القوة والسلطة إذا أعطيتا بيد الأخيار فإن ذلك يؤدي إلى نشر

---

(١) صحيح مسلم: ج(٨) - ص ١١.

العدل والتسامح والقسط والخير. أما إذا أعطيتا بيد الأشرار، فإن ذلك سيؤدي إلى نشر البغضاء والضغائن والفحشاء بين الناس.

وسنوضح هذا الأمر من خلال هذين المثالين القرآنيين:

١ - يقول تعالى: (وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) (...وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) (النمل: ١٧ - ١٩).

٢ - يقول تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي...) (الزخرف: ٥١).

فلو قارنا بين الآيتين سنجد:

١ - الآية الأولى تبين حكم وسلطة الأخيار، اما الآية الثانية تبين حكم وسلطة الأشرار.

٢ - الآية الأولى تبين كيف يشكر الأخيار الله تعالى على نعمة السلطة ويدعونه للتوفيق للقيام بالأعمال الصالحة وان يكونوا من عباده الصالحين، بينما الآية الثانية تبين حال الأشرار في حال أعطيت لهم السلطة كيف أنهم ينسبونها لأنفسهم وينسون أنها من نعم الله تعالى عليهم بالإضافة إلى انهم يطغون في حكمهم ويعيثون في الأرض فسادا.

وعندما بحثنا أكثر عن سلطة الأخيار وقوتهم وعن سلطة الأشرار وقوتهم في القرآن الكريم وجدنا:

أولا: قوة الأخيار.

١ - الأخيار لا يفكرون إلا بتقرير ألوهية الله تعالى:

يقول تعالى: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّه) (البقرة: ١٩٣).

من خلال الآية الكريمة يتبين لنا ان هدف أولياء الله تعالى هو تقريب الناس من الله تعالى وإذا صار الهدف هو القرب من الله فلا يظلم الإنسان الآخرين وإنما الظلم يأتي نتيجة الابتعاد عن الله تعالى أي إن مخطط أولياء الله تعالى هو السير على الصراط المستقيم على المستويين المادي والمعنوي وهذا ما أوضحه قوله تعالى: (حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ).

٢ - الأخيار يحاولون رفع الظلم عن المستضعفين:

يقول تعالى: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ...) (النساء: ٧٥).

وقد بينا كيفية هذا الأمر بوضوح سابقاً.

٣ - الأخيار يقومون ببناء المساجد وإقامة الصلوات:

يقول تعالى: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ...) (الحج: ٤١).

ومن أهم الأمور التي تنتج عن إقامة الصلاة هي أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر وهذا ما يؤكده قوله تعالى (...وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ...) (العنكبوت: ٤٥)، وهذا سيؤدي بالنتيجة إلى إقامة مجتمع سليم وصالح.

٤ - القوة بيد الأخيار تولد حالة الألفة والمحبة:

يقول تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا...) (آل عمران: ١٠٣).

٥ - ثورة الأخيار أو قيامهم يكون لأجل الإصلاح:

يقول تعالى: (...إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصلاح مَا اسْتَطَعْتُ...) (هود:٨٨).

فثورة الأخيار تكون مبنية على أساس الإصلاح بين الناس وهذا ما عناه الإمام الحسين عليه السلام عندما سئل عليه السلام عن سبب خروجه لمقاتلة يزيد (عليه اللعنة وسوء العذاب) قال: ما خرجت أشرا ولا بطرا وإنما خرجت لطلب الإصلاح[1].

ثانيا: قوة الأشرار.

والذي تولّده القوة بأيديهم هو التالي:

١ - الاستخفاف بالناس:

يقول تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ...) (الزخرف: ٥٤).

إذا وضعت القوة بيد الأشرار فإنهم يستخفون بالناس ويحولونهم إلى عبيد كما تبين الآية أعلاه.

٢ - القوة بيد الأشرار تولد حالة الفرقة بين الناس:

يقول تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا...) (القصص: ٤).

---

(١) بحار الأنوار ج٤٤ ص٣٢٩.

عندما تعطى القوة للأشرار فإنهم سيتحولون إلى طواغيت، فيعملون على زعزعة استقرار الناس من خلال التفريق بينهم، والهدف من ذلك هو إشغال الناس عنهم كي لا ينتبهوا لظلم الظالمين.

٣ - القوة بيد الأشرار تؤدي إلى النهي عن إقامة الصلاة:

يقول تعالى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ، عَبْدًا إِذَا صَلَّى) (العلق: ٩ - ١٠).

قلنا سابقا ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهذا يولد بالنتيجة مجتمعاً سليماً وصالحاً، أما إذا نُهي عن إقامة الصلاة فهذا سيولد وبكل تأكيد مجتمع ينتشر فيه الفساد والظلم.

٤ - ثورة الأشرار أو قيامهم تكون لأجل الرياء:

يقول تعالى: (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ...) (الأنفال: ٤٧).

بيّنّا في ثورة الأخيار وقيامهم انه يكون من اجل الإصلاح وتقويم المجتمع، أما ثورة الأشرار وقيامهم فإنه يكون لأجل البطر والصد عن سبيل الله تعالى وللرياء والتفاخر بين الناس.

النظرية الثانية: نظرية الجهل.

وهي من النظريات الماديّة التي علّلت سبب نشوء الدين بالجهل[1].

(١) القائلون بهذه النظرية كثيرون ولكن على رأسهم (تايلر وسنبسر وراسل). انظر كتاب الفطرة للشيخ مرتضى مطهري - ص ١٣٩.

حسبما أوعز أصحاب هذه النظرية ان أساس نشأة الدين هو الجهل، ولكن كيف كان تعليلهم لهذا الأمر؟

فبيانه بالآتي:

أصحاب هذه النظرية أوعزوا أسباب الحوادث الخطيرة والمخيفة التي كان يمر بها الناس سابقا (كالزلازل والفيضانات والسيول وغيرها من الحوادث) والتي لم يعرفوا سبب أو أسباب حدوثها وكيفية تكوينها وكيفية معالجتها ولكي يتخلصوا من تلك الحوادث أوعزوا أسبابها إلى أشياء أسموها بالآلهة، وعند إغضاب تلك الآلهة فإنها سوف تحرك الأرض بالزلازل وتفجر البراكين وتحدث الفيضانات والسيول وإذا رضيت تلك الآلهة فإنها ترضى عن الناس ولا تحدث الظواهر الطبيعية المخيفة، وهذه الاعتقادات بمرور الزمن صارت تسمى دينا.

ولما كان هذا الذي أسموه بالدين هو وليد الجهل بأسباب حدوث الظواهر الطبيعية فمن الطبيعي ان يزول الدين بمجرد معرفة أسباب تلك الحوادث وكيفية حدوثها ومعالجتها وخاصة ان العلم الحديث قد كشف عن الكثير من أسباب تلك الحوادث وعند ذلك تنتفي الحاجة إلى الدين!

نقد النظرية:

في بحثنا هذا سنرد وننتقد هذه النظرية من خلال ثلاثة أجوبة، وهي:

الجواب الأول:

القائلون بهذه النظرية قالوا بأن الناس في الأمم السابقة كانت تجهل أسباب حدوث الظواهر الكونية والطبيعية ولما لم يستطيعوا كشف أسباب حدوثها نسبوها إلى الآلهة، وهنا نطرح سؤالا مفاده:

في السابق وحتى الآن فإن الأمم المتحضرة والمتمدنة والمتعلمة لما عرفت أسباب حدوث تلك الحوادث والظواهر وعرفت كيفية حدوثها وكيفية معالجتها لماذا لازالت تعتنق الدين؟ حيث نرى في الوقت الحاضر ان أبناء تلك الأمم لا يزالون يعتنقون الدين رغم اكتشافهم للأسباب، بالإضافة إلى إننا إذا أردنا ان نعمل نسبة مئوية للتدين في العالم (على مستوى جميع الشرائع) فإننا سوف نرى ان الدين في حالة تزايد وانتشار وليس في حالة تناقص وتقهقر، والمفروض أن يكون الدين في حالة تناقص على حسب رأيهم، لأننا في حالة ثورة علمية هائلة لا في حالة جهل خاصة أنهم قالوا: إنه و بمجرد ظهور العلم تنتفي الحاجة إلى الدين.

لا شك ان سبب إنشداد الأمم المتعلمة والمتحضرة للدين ليس هو الجهل، لان الدين فطرة، أي مادام الإنسان موجودا فإن الدين سيكون موجودا أيضاً.

بعبارة أخرى: لابدّ للإنسان من الرجوع إلى القوي لان الإنسان دائما في حالة ضعف وفقر وهذا ما وضحه قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) ، فمهما بلغ تطوّر الإنسان ووصل في العلم ما وصل فإنه يبقى فقيراً وضعيفاً ولابدّ له من الرجوع إلى القوي الذي هو الله جل جلاله.

الجواب الثاني:

لّما ادعى أصحاب هذه النظرية ان الدين وليد الجهل نحن بدورنا قمنا بالبحث في نصوص الدين فوجدنا أن الدين يدعو إلى العلم والتعلم وليس إلى الجهل، ومن هذه النصوص:

١ - يقول تعالى: (ن وَالْقَلَمِ) (القلم: ١).

٢ - يقول تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) (العلق: ١).

٣ - يقول تعالى: (...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...) (المجادلة: ١١).

٤ - يقول تعالى: (...قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...) (الزمر: ٩).

٥ - يقول تعالى: (...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...) (فاطر:٢٨).

فمن خلال هذه الآيات المباركة نكتشف ان الدين قد دعا الناس إلى العلم وليس إلى الجهل كما يزعمون، وفي الحقيقة ان الدين لم يدعُ إلى العلم فحسب وإنما دعا أيضاً إلى التحقق في العلوم ودراستها، فنجد ان الدين دعا إلى دراسة الظواهر ومعرفة أسبابها وكشف أسرارها وطرق معالجتها، فإنه ومن خلال المعرفة يتوصل الإنسان إلى معرفة الخالق جل وعلا.

و هذا ما نص عليه قوله تعالى (أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) (الغاشية: ١٧)، فالآية الكريمة تدعو إلى دراسة كيفية خلق هذه المخلوقات العظيمة (كالإبل) وكشف أسرار خلقها ومعرفتها لنصل من خلال ذلك إلى معرفة الله تعالى، أي بالعلم عرفنا كيف

خلقت وهو أيضاً الذي قادنا إلى معرفة الله تعالى والدين وليس الجهل هو الذي قادنا[1].

وكذلك يقول تعالى (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ...) (الأعراف: ١٨٥)

أو قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ...) (الروم: ٨)، والنظر المقصود في الآيتين في سورتي الغاشية والأعراف هو كناية عن التفكر والتدبر وبالتالي دعوة لمعرفة ماهيّة وأسرار خلق السموات والأرض[2] وما ينزل وما يصعد بينهما من أسرار وكشفها ومحاولة دراستها وكذلك محاولة كشف الظواهر الكونية التي تحدث فيهما وكل ذلك يوصلنا إلى حقيقة واحدة وهي معرفة الله تعالى والدين، أي ان الذي أوصلنا لهذه الحقيقة هو العلم وليس الجهل.

وأخيرا نقول: ان القرآن الكريم يدعو إلى العلم والتعلم في شبكة آيات قرآنية، نبين منها:

١ - الدعوة إلى دراسة علم الجيولوجيا:

يقول تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...) (الحج: ٤٦).

حيث من خلال هذا العلم (الجيولوجيا) نكتشف تاريخ الأرض من خلال دراسة طبقات الأرض.

٢ - الدعوة إلى دراسة علم الفلك:

---

(١) انظر كتاب التفكر (للسيد عبد الحسين دستغيب - ص ٦٩).

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠.

يقول تعالى: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ...) (الذاريات:٤٧) وقوله تعالى: (وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ) (البروج: ١).

فمن خلال دراسة علم الفلك نعرف ما هو موجود في السماء من نجوم وكواكب وقصور.

وكل هذا يوصلنا إلى حقيقة واحدة وهي معرفة الله تعالى وهذا سيقودنا إلى التدين كما قلنا انفا. وبذلك تكون هذه النظرية قد سقطت كما سقطت سابقتها.

الجواب الثالث:

ان نظرية الدين قائمة على ثلاثية مهمة، ولابدّ من فهم هذه الثلاثية وتبيانها لأن بعضها مرتبط بالفاعل الذي هو (الله) جل جلاله، وبعضها مرتبط بالقابل الذي هو (الإنسان) وبعضها مرتبط بسلسلة علل طويلة مؤثرة ومتأثرة، ونفهم من هذا ان الدين لا يُرجع جميع أسباب الحوادث إلى الغيب بحيث لا يمكن للإنسان فهمها، وسنبين هذه الثلاثية المهمة بنحو الاختصار لا التفصيل، لأن الحديث فيها طويل لا مجال لذكره هنا.

وهذه الثلاثية حسب النظرية الدينية هي:

١ - جميع الحوادث التي تحدث مرتبطة بعلم ومشيئة وقدرة الله تعالى.

٢ - الظواهر والحوادث تؤثر وتتأثر بسلسلة العلل والمسببات.

٣ - الإنسان مخير لا مجبر.

ومن خلال هذه الثلاثية نثبت صحة ما قلناه من أن الدين لا يرجع أسباب جميع الحوادث بشكل مطلق إلى الغيب وإنما جعلها الله تعالى

ضمن سلسلة علل مؤثرة ومتأثرة في وجودها وعدم جودها وتأثيرها السلبي والايجابي وفي خضم هذه المعادلة يكون الإنسان مخيراً في وضع نفسه في المكان الذي يريده هو باختياره، ومن ضمن هذه السلسلة الطويلة من العلل والتي تعود في أصلها إلى علة العلل وهو الله تعالى.

الخلاصة:

١ - ما قاله الماديون من ان الدين هو وليد الجهل هو مجرد فرضيات افترضوها وارادوا تطبيقها على ارض الواقع.

٢ - إذا كان الجهل هو السبب في نشوء الدين فمن الطبيعي ان نجد تناقصاً في أعداد المتدينين وخاصة بعد الثورة العلمية الهائلة وبالأخص على مستوى الدول المتعلمة والمتحضرة كأمريكا وغيرها، ولكننا نلاحظ العكس من ذلك تماما حيث نجد ان المتعلمين المتدينين في تلك الدول أكثر من اللا متدينين.

٣ - الشرائع على وجه العموم والإسلام على وجه الخصوص لا يدعونا إلى التسليم أمام تلك الحوادث وإرجاعها إلى الغيب بحيث لا يمكن للإنسان فهمها وإنما نجده يدعو إلى دراسة تلك الظواهر وكشف أسرارها ومعرفة كيفية حدوثها ومعرفة طرق معالجة أضرارها.

والنتيجة: ان النظرية الدينية قائمة على أساس قاعدة (لا جبر ولا تفويض وإنما أمر بين الأمرين)، وبما ان النظرية الدينية قائمة على أساس هذه القاعدة فيبقى السؤال هل من المتدينين: من عمل بالجبر والتفويض؟

الجواب: نعم، إن قاعدة (لا جبر ولا تفويض) لم ينحصر عدم فهمها بالماديين، بل هناك بعض المتدينين أيضاً لم يفهموا هذه القاعدة

ومنهم اليهود الذين اعتقدوا بالتفويض كما يبين القرآن الكريم عن لسان حالهم (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ...) (المائدة: ٦٤)، أي ان الله تعالى لا يستطيع تغيير أي شيء كما يزعمون لأنه خلق الخلق وتركهم، ولكن في الواقع هذا الكلام غير صحيح وغير واقعي أيضاً لأنه يتعارض مع قدرة الله المطلقة الفاعلة وهذا يضر بجميع أركان المنظومة الكونية ولذلك رد الله عليهم هذا القول بقوله تعالى (...غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ...) (المائدة:٦٤).

وليس فقط اليهود من قال بالتفويض وإنما حتى بعض المسلمين أيضاً قالوا بالتفويض كالمعتزلة. حيث قال هؤلاء: إن الله تعالى خلق الخلق وترك حبلهم على غاربهم، وأيضاً من جملة ما قالوه: قالوا إننا نحتاج إلى الله تعالى في أصل الوجود أما البقاء والاستمرار فلا حاجة لنا به. بينما نجد بعض المسلمين -كالأشاعرة- من قال بالجبر.

وقد رد القرآن الكريم قولهم هذا بقوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر: ١٥)، ولو تأملنا جيدا في كلمة (الفقراء) نجدها جاءت على نحو الإطلاق ومن دون تقييد، أي ان جميع المخلوقات فقيرة ومفتقرة إلى الله تعالى وتحتاج الخالق (الله) في أصل الوجود وكذلك تحتاجه من حيث البقاء والاستمرار.

أما النظرية الإسلامية الحقّة فهي نظرية (أمر بين الأمرين) وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في شبكة آيات، منها:

١ - يقول تعالى: (...وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ...) (الأنفال: ١٧).

٢ - يقول تعالى: (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ...) (التوبة: ١٤).

أقول: ولكي نفهم هذه القاعدة بشكل أفضل نضرب المثال التالي:

عندما يريد الإنسان ان يبني منزلا جديدا فهو يحتاج إلى مهندس كهرباء مختص كي يغذي المنزل بالكهرباء، فالمهندس هنا يقوم مقام الفاعل والمنزل يقع في مقام القابل.

وعندما يتغذى المنزل كاملا بالكهرباء تبقى هنا حرية الإنسان في استخدام الكهرباء سلبا أو إيجابا فعلى سبيل المثال في الجانب الايجابي يستخدمها الإنسان في تشغيل الأجهزة الكهربائية التي تنفعه في الحياة اليومية، اما على الجانب السلبي فيستخدمها للانتحار مثلا من خلال الصعق الكهربائي.

فالمهندس لم يجبر الإنسان (صاحب المنزل) على كيفية الاستخدام وإنما أعطاه حرية الاختيار في الاستخدام الأمثل للكهرباء. وهذا هو ما أردنا إيضاحه سابقا في الثلاثية المهمة للنظرية الدينية.

ولذلك فرّق أهل البيت عليهم السلام بين الأمر التكويني والأمر التشريعي:

فالأمر التكويني: هو أمر الهي واجب الحدوث كما في قوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)، أي لا جدال فيه.

أما الأمر التشريعي: هو أيضاً أمر الهي ولكن جعل الله تعالى فيه حرية الاختيار للإنسان، كما في الصيام حيث يقول تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ...) (البقرة: ١٨٣)، فالإنسان بإمكانه إتباع هذا الأمر وسيكون جزاء هذا الإتباع هو الجنة، وبإمكانه تركه والتخلف عنه وستكون عاقبة هذا الترك والتخلف النار.

وفي مقابل الأمرين التكويني والتشريعي هناك نهي تكويني ونهي تشريعي، فمثلا قوله تعالى (...لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى...) (النساء: ٤٣)، فالآية الكريمة مثال على النهي التشريعي، فإنه بإمكان الإنسان ان يصلي وهو في حالة سكر ولكنه في هذه الحالة سيكون قد عصى أمر الله تعالى، أما إذا كان النهي تكوينياً فلا يستطيع الإنسان مخالفته لعدم وجود حرية الاختيار، وهذه الثقافة لا يعرفها ولا يفهمها إلا أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم.

التفاتة: عندما بحثنا في القرآن الكريم عن حرية الاختيار وجدنا العديد من المصاديق التي تثبت هذه الحرية، نذكر منها:

مبدأ حرية الاختيار في ثقافة القرآن الكريم:

يمكننا أن نجد موارد عديدة تكشف عن أن الله تعالى قد تعامل مع الإنسان على أن له الاختيار في مسائله المصيرية، فلا جبر في هذه الموارد، وهي بمجموعها تكشف عن ان الاختيار إنما هو ثقافة بنى الدين عليها أمره، ومعه فتكون مقولة الجبر خارجة عن الدين وعن ثقافة القرآن الكريم، ومن تلك الموارد هي المصاديق التالية:

المصداق الأول: التكليف.

١ - يقول تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا...) (البقرة:٢٨٥).

٢ - يقول تعالى: (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ) (البلد: ٨).

٣ - يقول تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان: ٣).

من خلال الآيات المباركة أعلاه يتبين لنا ان نفس مبدأ التكليف هو دليل على ان الإنسان مخير وليس مجبراً، فالله تعالى عندما خلق

الإنسان زوده بالعقل وأعطاه مساحة للاختيار من خلال التفكير ونفس هذه المساحة هي دليل على الاختيار، فلو كان الإنسان مجبرا لما كان هناك داعٍ لوجود العقل لان الإنسان سيصبح مجبرا على القيام بالأعمال من غير الحاجة للتفكير.

المصداق الثاني: بعثة الأنبياء.

يقول تعالى: (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (الإسراء: ١٥).

ان الله تعالى عندما يريد ان يقيم الحجة على عباده من خلال إرساله للأنبياء والرسل ليوضحوا للناس الشرائع والتكاليف والأديان السماوية، ومن خلال ذلك تبقى للإنسان حرية اختيار أي الطرق ليسلكها، فإن اتبع الأنبياء والرسل فهو من الناجين المفلحين، وان خالفهم فهو من الخاسرين، ولو كان الإنسان مجبرا لانتفت الحاجة إلى بعث الأنبياء والرسل، إذن، بعثة الأنبياء والرسل هي من الأدلة على حرية اختيار الإنسان وكونه غير مجبر.

المصداق الثالث: مسؤولية الإنسان عن أعماله.

١ - يقول تعالى: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ...) (الشورى: ٣٠).

٢ - يقول تعالى: (...مَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا...) (الأنعام: ١٠٤).

٣ - يقول تعالى: (وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ...) (النحل: ١١٢).

من الواضح إسلامياً أن عمل الإنسان هو الذي يحدد مصيره فإن كان خيرا فهو إلى النعيم وان كان شرا فهو إلى العذاب والجحيم، والآية الأولى في سورة الشورى توضح هذا المعنى، فما يجري على الإنسان من أحداث وما يواجهه من مصائب فهي بالحقيقة نتيجة أعماله ليس إلا.

وكذلك الحال في الآية الثالثة من سورة النحل ، حيث ضرب الله القرية مثلاً ليوضح ويبين للإنسان نتيجة أعماله الصالحة الحسنة ونتيجة أعماله الطالحة السيئة، فلما كانت هذه القرية تؤمن بالله تعالى كانت الخيرات تأتيها من كل مكان كما تعبر الآية الكريمة، ولكنها ما إن بدلت إيمانها كفرا حتى أبدل الله اطمئنانهم بالخوف وأبدل خيراتهم بالجوع، وهذا يدل على ان الإنسان هو عبارة عن حلقة من حلقات هذا الكون المترابط بعضه مع بعض يؤثر فيه ويتأثر به.

المصداق الرابع: الجزاء والثواب.

١ - يقول تعالى: (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ) (الزمر: ٧٠).

٢ - يقول تعالى: (...وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى...) (النجم:٣٨).

إن من ضمن ما يدل على ان الإنسان مخير وليس مجبراً هو مبدأ الجزاء والثواب، فلو كان الإنسان مجبرا على فعل الحسنات ومجبرا على فعل السيئات فلماذا يجازيه الله تعالى بالخير على حسناته ويحاسبه على سيئاته ومعاصيه. إنما جعل الله تعالى حرية الاختيار للإنسان ليراه يؤمن ام يكفر، فإذا آمن وعمل الصالحات جازاه بالجنة كمكافئة على أعماله الصالحة التي التزم بها رغم أنه كان يستطيع ان يعمل المعاصي

والذنوب ولكنه تركها واتبع سبيل الهدى والرشاد، وإن كفر فيجازيه على كفره بالنار تأديبا له.

المصداق الخامس: ندم المنحرفين يوم القيامة.

يقول تعالى: (...وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ...) (يونس:٥٤).

الآية الكريمة تبين أمرا مهما وهو الندم، والندم بحد ذاته دليل على ان الإنسان مخير فالإنسان العاصي أو حتى المؤمن المذنب الذي خلط إيمانه ببعض الذنوب لمّا يرى العذاب والجزاء سوف يندم، وهو دليل على ان الإنسان لو كان مجبرا كما يدّعون لما كان هناك معنى لندمه، لأن الإنسان عندما يطلب من الله تعالى العودة إلى الدنيا مرة أخرى ليعمل الصالحات فالمفروض وفق نظرية الجبر أن يعمل نفس ما كان يعمل في السابق لأنه مجبر، ولما كان هناك داعٍ في الأساس لهذا الطلب، ولذلك ورد ذكر الندم في الآية كدليل على ان الإنسان مخير وليس مجبراً فيندم على أفعاله السيئة في الدنيا ويطلب العودة إليها مرة أخرى ليعمل غير الذي كان يعمل، كما يوضح ذلك قوله تعالى على لسان الإنسان (...قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {٩٩/٢٣} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ...) (المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠).

المصداق السادس: الأمر بتزكية النفس.

يقول تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس: ٩ – ١٠).

الآية الكريمة تبين حقيقة مهمة وهي: ان الإنسان قادر على يزكي نفسه من خلال أعماله الصالحة أو ان يدسها (يلوثها أو يدفنها في

التراب) من خلال أعماله الطالحة، وبما أن في الآية حثاً على أن يقوم الإنسان بتزكية نفسه، فهذا بحد ذاته دليل على كون الإنسان مختاراً لا مجبراً.

على أنه يمكن القول بعد كل ما تقدم: أن الله لو حاسب الإنسان على ما اجبره عليه عندئذ سيكون قد ظلم عبده وهذا ما نفته الآيات الكريمة بقوله تعالى (...وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) (فصلت: ٤٦).

وبعد أن بينا مصاديق مبدأ حرية الإنسان أو حرية اختيار الإنسان في القرآن الكريم وكلها أثبتت أن الإنسان مختار في أفعاله يبقى السؤال: بعد أن أعطى الله تعالى لعبده حرية الاختيار، فهل جعل هذه الحرية مطلقة أم حددها بضوابط؟ وإذا كان قد حددها بضوابط فما هي تلك الضوابط؟

الجواب: نعم، رب العالمين عندما أعطى لعبده حرية الاختيار حددها بضوابط معينة أي انه لم يجعلها مطلقة كما قال المعتزلة أو معدومة كما قال الأشاعرة، وهذه الضوابط هي:

الضابط الأول: هيمنة ربّ العالمين على الكون.

١ - يقول تعالى: (الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الفاتحة: ٢).

٢ - يقول تعالى: (...رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...) (المزمل: ٩).

أي ان كل شيء في الكون خاضع لسيطرته وهيمنته تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فهذا دليل على ان حرية الإنسان منضبطة بضوابط خاضعة لسيطرة رب العالمين أيضاً.

الضابط الثاني: تسخير كل شيء للإنسان.

هذا التسخير الذي نجده في عدة مستويات، منها:

١ - على مستوى الأرض:

يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً...) (البقرة: ٢٩).

٢ - على مستوى السماوات:

يقول تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ...) (النحل: ١٢).

من خلال الآيتين نفهم ان كل شيء خلقه الله تعالى سخره لخدمة الإنسان وكذلك هي دعوة لبني البشر لدراسة هذه المخلوقات سواء على مستوى الأرض أو على مستوى السماوات ومعرفة أسرارها ومحاولة كشفها ومعرفة الظواهر الكونية وما هو سبب حدوثها وما هي طرق معالجة ظواهرها.

الضابط الثالث: التصرف في ملك الله تعالى.

١ - يقول تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا...) (الملك:١٥).

٢ - يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً...) (البقرة: ١٦٨).

٣ - يقول تعالى: (...كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ...) (البقرة:٦٠).

فكل شيء في الكون هو ملك لله تعالى ولكنه جلت قدرته أباح للإنسان التصرف فيه.

الضابط الرابع: ضوابط التصرف في الكون.

لم يُتح للإنسان أن يكون متصرفاً في مفردات الكون بكامل حريته، وإنما هناك قيود عديدة جاءت على شكل أنظمة تكوينية، هي في الحقيقة تحدّد من حركة الإنسان وحريته في هذا الكون، ومن تلك الأنظمة هي التالي:

أ - **النظام الغذائي:**

١ - يقول تعالى: (...كُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ...) (الأعراف:٣١).

٢ - يقول تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ ولَحْمَ الْخَنزِيرِ...) (البقرة: ١٧٣).

٣ - يقول تعالى: (...إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ...) (المائدة: ٩٠).

من خلال التدبر في الآيات نجد أن الله تعالى يحدّد للإنسان نظاما غذائيا متكاملا من خلال الأكل والشرب مع عدم الإسراف، وكذلك نجده يحرم بعض الأنواع من الأكل أو الشرب على الإنسان.

وقد يسأل البعض: لماذا يحرّم الله تعالى هذه الأنواع على الإنسان؟

فنقول: لان الله تعالى عليم، فهو يعلم بما يضر بمصلحة الإنسان وبما ينفعه فعندما يحرّم بعض الأنواع من الأكل أو الشرب فإنه تعالى يحرمها لأنها تضر بالإنسان، وفي ذات الوقت نجده أباح له المئات من الأنواع الأخرى ولا يمنع الإنسان من أكلها أو شربها لأنها لا تسبب الضرر له.

ولأن الله تعالى عليم، حكيم، عادل، فهو عندما يحرّم بعض الأمور نجد أنّ تحريمها يشمل جميع أبناء بني البشر وليس لفئة دون أخرى بعكس الإنسان عندما يمنع أمورا أو يصدّر القوانين نجدها تضر بفئة وتنفع أخرى ويستفيد منها قسم من الناس دون قسم آخر.

ب - النظام الاجتماعي:

يقول تعالى: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ...) (النساء: ٢٣).

وكذلك الحال مع النظام الاجتماعي، فالله تعالى حرّم على الإنسان الزنا ولكنه في ذات الوقت أباح له أمرا آخر وهو الزواج، وعبّر عنه بأجمل العبارات، فعبّر عنه بأنه سكن للإنسان وذلك لما تشمله الحياة الزوجية من الهدوء والراحة والاستقرار والسَكينة، فيقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...) (الروم: ٢١)، والله تعالى شرّع الزواج وحلله لأنه يلائم فطرة الإنسان التي خلقه الله تعالى عليها بعكس غيره من الطرق الأخرى.

ج - النظام الاقتصادي:

يقول تعالى: (...وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا...) (البقرة: ٢٧٥).

والأمر ذاته على مستوى النظام الاقتصادي، فالله تعالى احل للإنسان طرق الكسب الحلال من خلال البيع وحرّم عليه طريق الربا لما له من ضرر كبير على النظام الاقتصادي والاجتماعي (وقد بينا ذلك مسبقا).

التفاتة: نحن قلنا وأثبتنا أن الإنسان مختار في أفعاله وأعماله ولكن هل هذا الاختيار سيجعله يخرج من ولاية الله تعالى؟

الجواب: كلا، لان هناك بنوداً تبين احتياج الإنسان إلى ولاية الله تعالى في أصل وجوده وفي بقائه واستمراره، ومن هذه البنود:

البند الأول: الفقر.

عندما خلق الله تعالى الإنسان فقد جبله على الفقر والرجوع إلى الغني، ولذلك فالإنسان محتاج إلى الله تعالى في كل مراحله وجودا واستمرارا وبقاءً.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ...) **(فاطر: ١٥).**

البند الثاني: تقرير سلطان الله.

إن الله تعالى عندما أعطى لعباده حرية الاختيار فهذا لا يعني خروجهم عن سلطانه جلّ وعلا أبدا بل هذه الحرية تمثل الاختيار وليس الخروج، فالإنسان لا يستطيع الخروج عن سلطان الله في أدق وابسط الأمور فحتى إيمان الإنسان بيد الله تعالى وتحت سلطانه كما يقول تعالى: (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ...) (يونس: ١٠٠)، وكذلك الابتلاءات والامتحانات التي يمر بها الإنسان فهي أيضاً بيده تعالى (وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ) (الأنعام: ١٧).

البند الثالث: النصر.

يقول تعالى: (فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ...) **(البقرة: ٢٥١).**

فالإنسان المؤمن وإن كان ضعيفاً في أعين الناس، ولكن الله تعالى هو القادر على نصره، وبالتالي ليطمئن المؤمن بنصر الله تعالى ولو بعد حين.

البند الرابع: التعليق على مشيئة الله تعالى.

يقول تعالى: (...سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات:١٠٢). فالإنسان الكيّس هو الذي يعلق كل شيء بمشيئة الله تعالى ولكن حتى المشيئة هي أيضاً بإذن الله تعالى: (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (التكوير: ٢٩)، فالآية الكريمة تختصر ان كل شيء يفعله الإنسان لابّد ان يكون بمشيئة الله تعالى.

البند الخامس: الحول بين المرء وفعله

يقول تعالى: (...وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ...) (البقرة: ٢٥٣).

أي إن الله تعالى له من القدرة ما يمكنه معها أن يحول بين المرء وفعله، فلا يجعله يفعل ما يريد، ولكنه لا يفعل ذلك إلا إذا شاء وفق الحكمة غير المتناهية.

النظرية الثالثة: نظرية الخوف.

وهي النظرية المادّية الثالثة لنشأة الدين وتركّز هذه النظرية على عنصر الخوف عند الإنسان. وصاحب هذه النظرية هو الفيلسوف الانكليزي راسل.

يوعز راسل سبب نشوء الدين إلى ان الإنسان عادة ما يكون خائفا من عوامل معينة إلى حد ما[1]، ولكي يعالج هذا الخوف انشأ فكرة وجودا غيبيا يلتجئ إليه، وهذا الوجود الغيبي الذي من خلاله يتخلص الإنسان من الخوف أصبح بمرور الزمن يسمى دينا.

والعوامل التي يخاف منها الإنسان ثلاثة، وهي:

١ - **الطبيعة:** كالصواعق التي قد تحرقه أو الزلازل التي قد تبتلعه.

٢ ـ **الإنسان نفسه:** اختلف علماء النفس في الإنسان من حيث كونه مدنياً اجتماعياً أو انفرادياً وحشياً على ثلاثة آراء، هي:

الأول: أنه مدنيّ بطبعه.

الثاني: أنه متوحش بطبعه.

الثالث: أنه مدنيّ بفطرته متوحش بطبعه، أي إنه يميل بفطرته إلى الله تعالى وإلى الخير والإحسان والاطمئنان، ولكنه بطبعه الغريزي متوحش وله الاستعداد ان يقاتل من اجل ما يريد، وقد تكون الآية الكريمة في قوله تعالى: (...قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء...) **(البقرة: ٣٠)** ناظرة إلى طبع الإنسان الغريزي وليس

---

(١) يقول راسال ﴿(في عقيدتي ان الاقبال على الدين والتدين في تاريخ الانسان. ينشأ عن الخوف. فإن الانسان يرى نفسه ضعيفا الى حد ما في هذه الحياة) / النزعة الدينية بين الالهيين والماديين - ص ٢٢﴾

وكذلك من القائلين بهذه النظرية (اك برن وليم كف) في كتابه (مبادئ علم الاجتماع) يقول: ﴿لقد كان الدين يشبه الى حد كبير السحر في المراحل المتقدمة من تاريخ الانسان، فإن الساحر والمتدين كانا يعملان معا في ارضاء الطبيعة الساخطة، وتوفير الامن لأنفسهم / النزعة الدينية بين الالهيين والماديين - ص ٢٢، نقلا عن كتاب(دور الدين في حياة الانسان للشيخ محمد مهدي الاصفي - ص ٧٤)﴾.

الفطري، وعندما جاء الدين وشرّع الشرائع التي تتلاءم وفطرة الإنسان فإنه حدّ من ذلك الطبع المتوحش لديه، ولهذا نقول: إن راسل خاف من الطبع المتوحش للإنسان دون أي يأخذ بنظر الاعتبار الجانب الفطري لديه، بعكس النظرية الدينية التي أخذت بنظر الاعتبار الجوانب المتعددة للإنسان كالجانب الفطري وإلى جانبه شرّعت الشرائع والقوانين التي تقوي هذا الجانب ومعاً يتغلبان على الجانب الغريزي المتوحش، وبذلك يكون الإنسان مدنيّاً بطبعه أيضاً.

٣ - الغرائز: يخشى الإنسان من غرائزه التي تؤدي به إلى الهلاك ان لم يكن هناك ضوابط تضبط تلك الغرائز لأنها ستولد الإدمان، والإدمان يؤدي إلى هلاك الإنسان.

نقد النظرية:

نقد هذه النظرية سيكون من خلال ثلاثة جوانب:

الجانب الأول:

ان ما قاله راسل هي عبارة عن فرضية افترضها وأراد تطبيقها على ارض الواقع، ولكن ليس له أي دليل نقلي أو عقلي عليها، وهو بهذا يشابه ما قاله تايلر وسبنسر في نظرية الجهل.

الجانب الثاني:

أصحاب هذه النظرية خلطوا بين أمرين مهمين وهما:

١ - الداعي (الحاجة) إلى الدين.

٢ - اثر الاعتقاد بالدين.

في الحقيقة هم حملوا اثر الاعتقاد بالدين ووضعوه موضع الحاجة إلى الدين ولذلك قالوا: إن الخوف هو السبب في نشوء الدين ليصل

الإنسان من خلاله إلى الاطمئنان والأمان، وفي الحقيقة والواقع أن هذا الكلام غير صحيح وغير مقبول، لأنّ السكينة والإطمئنان اثر من آثار الاعتقاد بالدين وليس هو حقيقة الدين، باعتبار ان الدين هو الذي يعطي الإنسان الراحة والاطمئنان لا أن الدين هو نفس الراحة والاطمئنان.

ومن هنا نستنتج حقيقة مهمة وهي: ان الإنسان عندما يلتجئ في حالات الخوف والشدة إلى الله تعالى ، فإن هذا الخوف لا يمثّل دليلاً على نشوء الدين، وإنما ذات الالتجاء هو الدليل على ان الإنسان قد آمن بشيء في قرارة نفسه وهذا الشيء هو الوحيد القادر على ان ينجيه بما لا يحتمل الشك معه، وإلا لما كان قد تعلق به. وبالتالي يكون ذات الالتجاء دليلاً على وجود الدين وليس الخوف[1].

---

(١)يقول الشيخ جعفر الهادي في كتابه (الله خالق الكون) - ص ٣٣ - ٣٤ ـ ٣٥ ﴿ان الاعتقاد بوجود الخالق الاله سبحانه امر قد جبل عليه الانسان، وان برهان وجوده موجود في عقله ولذلك يجعل تصوّر الخوف سببا للانتباه الى وجود الاله الخالق عبر ذلك الاذعان الفطري وذلك البرهان العقلي لا سببا موجدا له في الذهن. وكم من فرق بين كون الشيء (داعيا) الى الامر لأجل ملازمة عقلية او عرفية بينهما، وبين كون الشيء موجدا لذلك الامر في رحاب الذهن ومبدعا له، والصحيح في المقام الاول دون الثاني.

ثم يتابع الشيخ قائلا: ولذلك يقول سبحانه (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥)، وكذلك قوله تعالى (وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ) (لقمان: ٣٢) فالمتحصل من هذه الآيات امران:

١ - ان الامواج الهائلة وما تثيره من المخاوف والاخطار ليست سببا لخلق وايجاد فكرة الاله الخالق في النفوس والاذهان، بل هي سبب للانتباه الى امر موجود في ضميره ما من ناحية الفطرة او من جانب العقل، وهو الله القادر والالتجاء الى حمايته والاحتماء بقدرته.⇦

الجانب الثالث:

في هذا الجانب نقول لـ(راسل) وغيره من أتباع هذه النظرية والقائلين بها:

إذا كان كلامكم صحيحاً فكيف نرى الأنبياء والرسل الذين بعثهم الله تعالى وكذلك أوصيائهم الذين فضلّهم على بقية عباده بكمال العقل لم نراهم يلتجئون إلى الله تعالى وينشدّون اليه بكل وجودهم؟ هل من المعقول ان يكون سبب انشدادهم والتجائهم إلى الله تعالى هو عامل الخوف من الطبيعة او الإنسان او الغرائز فقط؟

وكذلك الحال مع العباقرة والمفكرين والفلاسفة، سواء كانوا من الإغريق (كأفلاطون وأرسطو) أو من الأوربيين (كنيوتن وغاليلو وديكارت) أو من عباقرة الشرق (كابن سينا والخواجة نصير الدين الطوسي) فهل من المعقول ان كل هؤلاء العباقرة الذين اعتقدوا بوجود الخالق جل وعلا كانوا قد اعتقدوا به من اجل عامل الخوف فقط؟

ففي واقع الأمر هذا كلام غير ناهض وغير منطقي لا على المستوى الديني ولا على المستوى العلمي، فمن غير المعقول ان يترك الإنسان كل هذه الشواهد وينجرّ خلف بعض الافتراضات التي افترضها هؤلاء بأذهانهم وأرادوا تطبيقها على أرض الواقع بشكل متعسف.

⇦٢ - انه سبحانه يندد بالبشرية على توجههم اليه وتذكرّهم اياه في ظرف دون ظرف وحال دون حال، ومع انه كان يجب عليهم ان يتوجهوا اليه سبحانه بحكم فطرتهم وقضاء عقولهم في كل الاحايين وفي جميع الحالات لا في بعضها﴾

ومن هنا يمكننا إدانة راسل من خلال فمه على طريقة (من فمك ادينك)، وذلك من خلال اعترافه من حيث لا يشعر بأن الإنسان مخلوق من جنبتين: (ماديّة ومعنوية)، فهو من خلال كلامه يقول: ان الإنسان يخشى من الغرائز على نفسه إذا استحكمت عليه، والإدانة من خلال اعتراف راسل بوجود النفس وهي غير محسوسة، خصوصاً ان أبناء المادة لا يعترفون بكل شيء غير محسوس وغير ملموس (كل شيء غير ملموس فهو غير موجود) ولذلك فهم أنكروا وجود الله تعالى لأنهم قالوا كيف نعبد ربا لا نراه، ومن خلال اعترافه بالنفس ووجودها يكون قد اعترف بوجود الجنبة الروحية للإنسان من حيث لا يعلم او يشعر، وهذا بحد ذاته يقوي النظرية الدينية القائمة على أساس ان الإنسان مخلوق من جنبتين، وان أي عمل يقوم به الإنسان أيضاً له جنبتان.

وهذا ما قد أثبته القرآن الكريم في جملة آيات صريحة وواضحة، نذكر منها التالي:

١ - يقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...) (النساء: ١٠).

فالآية الكريمة صريحة وواضحة في ان العمل الذي يقوم به الإنسان له جنبتان، فالإنسان الذي يأكل أموال اليتامى فهو في ظاهر الأمر يأكل الطعام العادي الذي يأكله الجميع، ولكنه في الحقيقة يأكل النار وأن كان لا يشعر بها في الظاهر؛ لغفلته، إذن، الجنبة المادية تتمثل في أكل الإنسان الطعام والشراب العاديين والجنبة المعنوية (الروحية) تتمثل في ان حقيقة ما يأكله هو النار.

٢ - يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دعاكُم لما يُحْيِيكُمْ...) (الأنفال: ٢٤).

وهذه الآية دليل آخر على ما قلناه سابقا، فالآية من آيات الجهاد، والجهاد في ظاهره قتال، والقتال يكون بمختلف أنواع الأسلحة (كالسيف والرمح والنبل أو على مستوى آلات القتال الحديثة) وقد يتعرض الإنسان للجراح أو للموت أثناء القتال ولكنه في الحقيقة حياة، والدليل على ذلك: ان من يقتل في سبيل الله تعالى يرفض الإسلام ان يعتبره من الأموات بل عبر عنهم بالأحياء، كما جاء في قوله تعالى (وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء...) (البقرة:٢٥٤)، نعم نحن نراهم جثثاً هامدة لا تتحرك وانما في الحقيقة هم احياء عند الله يفرحون ويستبشرون بما لقوه عند ربهم في ثقافة الوحي (وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِه وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠).

٣ - يقول تعالى: (...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ...) (الحجرات: ١٢).

كذلك الحال مع هذا المثال القرآني وهو الغيبة، فهي في ظاهرها كلام (كلام على الغير بما لا يرضاه) ولكنها في حقيقتها كما يمثلها القرآن الكريم بأبشع صورة فيصور ان من يغتاب الناس كأنه يأكل لحومهم وهم أموات.

ولذلك فإن الإسلام عالج كلًا من هاتين الجنبتين معالجة شاملة بعكس أبناء المدرسة المادية سواء كانوا من المدرسة الاشتراكية أو الرأسمالية أو الشيوعية عندما قالوا ان الإنسان مخلوق من جنبه واحدة وهي الجنبة المادية فقط وان كل مشاكل الإنسان تحل من خلال جانبين فقط، هما: الجانب الاقتصادي أو الجانب الجنسي، وهو ما قاله فرويد، ولذلك كانت نظرتهم ومعالجتهم للأمور نظرة أحادية ضيقة، لان مشاكل الإنسان في الحقيقة تحل من خلال جوانب متعددة وليس من خلال جانب واحد أو جانبين.

ومن هنا يتضح الفرق الكبير والشاسع بين النظرية الدينية (والتي سنأتي على تبيانها بالتفصيل) الشاملة العميقة جدا وبين النظرية البشرية الضيقة الأحادية.

استطراد:

الحقائق التي تثبت أن الدين هو غير الخوف:

لّما قالوا ان الاعتقاد بالدين وبوجود الخالق تعالى سببه الخوف فقط، قلنا لهم: ان هذا الكلام غير صحيح، لان الاعتقاد بالدين وبوجود الخالق تثبته الكثير من الحقائق، منها:

١ - الفطرة.

٢ - الدليل النقلي (عبر مختلف الشرائع السماوية من النبي ادم عليه السلام إلى يومنا هذا).

٣ - الدليل العقلي.

والأدلة العقلية على وجود الخالق المنظم للكون عديدة ولكن للتوضيح سنضرب المثال الآتي:

لو أتينا بشخصين احدهما أميَ (لا يقرأ ولا يكتب) والآخر متعلم يعرف القراءة والكتابة وفي نفس الوقت أتينا بآلة الكتابة (الطابعة)، وطلبنا من الاثنين الكتابة عليها، فالشخص المتعلم سيكتب عليها بشكل منتظم مكونا الجمل والعبارات، أما الشخص الآخر الأمي فسنلاحظ انه لا يكتب شيئاً معيناً ومفهوماً وإنما سيضرب على أزرارها بشكل عشوائي، والعبارات الظاهرة ستكون لا معنى لها، وإنما هي عبارة عن تسطير للحروف بشكل عشوائي، فمن خلال العقل وكذلك من خلال ترتيب الحروف وتنظيمها عرفنا ان الأول متعلم والثاني غير متعلم (أمي)، وهكذا الحال مع الكون، فاستدلالنا على وجود خالق منظم وعليم ومدبر لهذا الكون الواسع يكون من خلال تنظيم الكون وترتيبه وعدم اختلال توازنه.

ولهذا نحن نقول: ان الله تعالى هو الخالق العظيم لهذا الكون، وهم يقولون: الصدفة هي التي خلقت هذا الكون.

وهنا نطرح تساؤلا: كيف يمكن للجاهل ان يخلق العالم؟!

فالصدفة جاهلة ولا تستطيع ان تخلق هذا الكون الواسع الفسيح وهذا النظام الدقيق الذي لا اختلال فيه[1]. بل إنها لا عقل لها،

---

(١) يطرح صاحب كتاب: تخلص من إلحادك سؤالا مهما وهو: (ما المانع ان يكون مصدر الكون هو الصدفة)؟ فيجيب قائلا:

﴿القول بالصدف هو جهل بأصول الاحتمالات، لان الصدفة لها شرطان لا ينفكان عنها. وهما الزمان والمكان.

فالصدفة تشترط زمانًا تقوم فيه بإحداث اثرها وتشترط وجودًا ماديًا مكانيًا تقوم عليه لينتج مفعولها. فكيف نقول بدور للصدفة في ايجاد الكون، مع ان كوننا جاء من اللازمان⇐

فالجاهل أفضل منها لأنه عاقل على الأقل، فكيف يصدر منها أفعال لا يمكن لغير العاقل القادر العالم أن يقوم بها؟!

التفاتة:

عندما بحثنا عن أبناء المادة وسبب إنكارهم للجانب الغيبي وجدناهم قد انقسموا إلى أقسام ثلاثة:

الأول: المبررون للإلحاد.

يقول تعالى: (... لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...) (البقرة:٥٥).

فإنكارهم كما تبين الآية ليس له منبع فكري وإنما أنكروا تماشيا مع الفكر الإلحادي الجديد القائم على الحس، وقضية اعتقادهم بالحس ليس من الأمور الحديثة عند الإلحاديين وإنما منذ القدم هم كانوا يعتقدون بهذا الأمر، ويبين القرآن الكريم هذا الأمر مع اليهود أيضاً، فهم دخلوا إلى الدين من خلال الحس عندما بين لهم ذلك النبي موسى عليه السلام من خلال عصاه التي انقلبت إلى ثعبان (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) (الأعراف: ١٠٧)

وكذلك خروجهم من الدين كان أيضاً سببه المادة والحس من خلال عبادتهم للعجل، كما يقول تعالى (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ) (طه: ٨٨).

⇐واللامكان؟ كيف يظهر اثر الصدفة دون ظهور الصدفة نفسها؟ كيف نعطي الصدفة اثرا قبل وجودها ووجود الزمان ووجود المكان اللذان هما شرطا الصدفة الاساسيان؟» - ص ١٧.

أقول: إن ما نريد توضيحه وقوله هو: انه ليس فقط الإعتقاد بالحس هو من الشبه القديمة عندهم وإنما عندما بحثنا عن شبههم (التي سنبينها لاحقا) وجدنا أكثرها شبهاً قديمة، وقد ذكرتها كتب التاريخ ولكنهم ألبسوها حلة جديدة وطرحوها بألفاظ جديدة مرة أخرى، فهي مجرد اجترار للماضي ومع كل هذا يتهمون المتدينين أنهم أبناء وأسرى وحبيسو الماضي.

الثاني: المتبعون للعادات والتقاليد القديمة.

يقول تعالى: (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٢).

الآية الكريمة تبين أمرين مهمين، وهما:

١ - تناقض الكلام فيما بين أبناء المادة أو الإلحاديين، فهم يقولون: نحن نسير على هدى آبائنا سواء كان ذلك -في نظركم أيها المتبعون للإله الواحد -حقا أم باطلا، والقران الكريم يبين ان آباؤهم لم يسيروا على الطريق الحق المستقيم ولم يهتدوا إليه، وإذا كان آباؤهم لم يهتدوا إلى الطريق الحق فكيف هم سيهتدون بهدى آبائهم؟

٢ - الأمر الذي تبينه الآية الكريمة هو أنهم هم أبناء الماضي وأسراؤه -وليس المتدينين- لأنهم ظلوا على عنادهم واتبعوا آبائهم غير المهتدين في الأساس، بينما المتدينون اتبعوا ما قاله الدين فمن وجد آباءه على هدى فلا ضير في إتباعه لهم ومن وجد آباءه على ضلال فلمَ يتبعهم؟

الثالث: الجاحدون رغم الاعتقاد بالموجود.

يقول تعالى: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ...) (النمل: ١٤).

يقول تعالى: (فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (النمل: ١٣).

أما هؤلاء فهم رغم معرفتهم بالحق، ولكنهم أصروا على عنادهم وكفرهم.

فإنكارهم وإصرارهم إنما كان من باب المكابرة والجحود بالرغم من وضوح طريق الحق عندهم.

النظرية الرابعة: توارث العقيدة.

السبب الأساس لنشوء الدين في هذه النظرية هو التوارث، فقال أصحاب هذه النظرية:

ان هناك أُناساً من البدائيين انشئوا الدين وتوارثوه جيلا بعد جيل حتى وصل إلى الجيل الحالي الموجود في عصرنا الحاضر.

أقول: في الحقيقة والواقع، هم وصلوا إلى هذه النتيجة عندما لم يصلوا إلى تفسير وجود الدين.

نقد النظرية:

نحن قلنا وبينا سابقا بأن الدين ضرب العادات والتقاليد المتوارثة والتي لا تتوافق مع منطق العقل والفطرة السليمة، وكذلك ذم من اتبعها من دون دليل عقلي او برهان، كما يقول ذلك الحق تعالى في قوله (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزخرف: ٢٣).

النظرية الخامسة: العقيدة (الدين) ظاهرة طفولية.

صاحب هذه النظرية هو العالم النفسي فرويد.

وحسب ما يعتقده فرويد: فإن الإنسان عندما كان طفلا صغيرا لا يستطيع درء الأخطار المحيطة به، فكان يلتجأ إلى حضن أمه لتدرأ الخطر عنه حيث يجد في حضنها الأمان وعندما كبر صار يرى في أبيه تفوقا على أمه في درء الخطر فصار يلتجأ إليه ولكنه عندما صار شابا صار يبحث عن شيء أو قوة اكبر من أبيه تحميه من الأخطار وهكذا نشأت فكرة الإله عند الإنسان.

نقد النظرية:

إن نفس بحث الإنسان عن الأمن أو الملجأ، ونفس بحث الضعيف عن القوي والجاهل عن العالم وهكذا في بحث الناقص عن الكامل، نفس هذا البحث هو دليل على وجود الله تعالى، كذلك نفس احتياج الإنسان يدل على فطرية الدين التي تؤدي إلى الاعتقاد بوجود الخالق تعالى.

بعبارة أخرى: إن ما جبل عليه الإنسان من احتياج للأكل لهو دليل على ان للإنسان مرجعاً يعود ويرجع إليه في تدبير أموره، وهذا المرجع لابدّ من ان يكون قادرا وقويا على تدبير الأمور وهذا القادر والقوي هو الله تعالى.

ويوضح السيد الطباطبائي هذا الأمر من خلال كلام له مع تلامذته عن لا بديّة الاعتقاد بوجود الحجة الإلهي، فيقول:

ان الإنسان عندما يشعر بالجوع - والشعور بالجوع من الأمور الفطرية لدى الإنسان - فلابّد من وجود ما يسد جوعه ولذلك خلق

الله تعالى الطعام ليسد حاجة الإنسان من خلاله (يسد جوعه) فلابد من وجود الطعام ليسد جوع الإنسان وكذلك الحال عندما يعطش الإنسان فلابدّ من وجود ما يسد عطشه فخلق الله تعالى الماء ليروي عطش الإنسان إذن، لابدّ من وجود الماء ليروي الإنسان وغيره من المخلوقات، وكذلك الإنسان حين يعتقد بفطرته التي جبل عليها ان الأرض في يوم ما سيحكمها عادل صالح وهذا الأمر قد اجتمعت عليه البشرية بأجمعها سواء ممن اعتنقوا الدين الإسلامي أو من غيره من أصحاب الشرائع السماوية الأخرى بل وحتى الإلحاديين أنفسهم يعتقدون بهذا الأمر (لابديّة وجود المنقذ) وقد أطلقوا عليه " superman "❖.

ونستنتج: أن أصل فكرة وجود الخالق القوي الذي يعود اليه الإنسان ويلجأ اليه في تدبير أموره هو أصل ثابت حتى وان اختلف البشر في المصاديق الدالة على هذه الفكرة، والطريف ان هذا الاختلاف في المصاديق هو من صنع البشر، ولذلك هو لا يضر بأصل الفكرة الرئيسية، وقد قلنا سابقا في مقدمة البحث أن تاريخ وحضارة البشر قد بينت انه بمجرد ان وطأت قدم الإنسان الأرض اعتنق الدين.[1]

---

(١)يورد الشيخ جعفر الهادي في كتابه (الله خالق الكون) جوابا جميلا جدا على هذه النظرية لا يسع المجال هنا لذكره من اراد الاطلاع على المزيد فليراجع المصدر المذكور، - ص٧٦.

النظرية السادسة: نظرية الاغتراب.

وهي من النظريات المادية لتفسير ظاهرة الدين، وهي النظرية السادسة.

أصحاب هذه النظرية وصفوا الإنسان بأنه يتكون من جنبتين، جنبة عالية (علوية - فوقية) وجنبة دانية (سفلية - تحتية).

الجنبة العلوية عند الإنسان قالوا بأنها تتمثل بمحاسن الأخلاق (كالشرف والكرامة والعفة والإيثار وغيرها من الصفات الحميدة)، أما الجنبة السفلية فتتمثل بالجانب الغريزي الحيواني عند الإنسان (كالطعام والنوم وغيرها من الصفات الغريزية الأخرى).

وقالوا: إذا استجاب الإنسان إلى غرائزه الحيوانية وسار خلف نداء الغرائز وتذكر فيما بعد ان هناك جنبه علوية لديه تدعوه إلى مكارم الأخلاق فسيشعر حينها باضطراب في داخله بين الجنبتين، ولكي يتخلص من هذا الاضطراب او التضارب الداخلي الذي يشعر به، سينتزع عند ذلك تلك الجنبة العلوية ويأخذها إلى قوة ما ورائية وهذه القوة تسمى الإله أو الرب وهي التي تتحكم فيها ويستمر الإنسان في الانسياق خلف غرائزه وشهواته.

بعبارة أخرى:

أساس مفهوم نشأة الدين عند هؤلاء هو التضارب الذي يحصل بين جنبتي الإنسان العلوية والتحتية (السفلية) فيغترب الإنسان عن نفسه، ومن هنا ينشأ الدين.

أقول:

أصحاب هذه النظرية يقولون: ان الإنسان عندما يشعر باضطراب بين جنبتيه العلوية والسفلية، يغترب عن نفسه فينشأ مفهوم الدين عنده، ولكن الواقع يثبت عكس ذلك تماما لان الإنسان كلما اقترب من نفسه أكثر كلما عرف ربه أكثر وهذا ما ينص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ...) (الحشر: ١٩).

نقد النظرية:

في البداية وقبل كل شيء سنطرح تساؤلا مهما وهو: هل أصحاب هذه النظرية ينتمون إلى المدرسة المادية أم لا؟

إذا كان الجواب: نعم، هم ينتمون إلى المدرسة المادية، فنقول: ان المدرسة المادية لا تؤمن بالجانب الما ورائي لأنها تؤمن بأصالة الحس فقط، وترفض كل شيء غير محسوس، وبما انهم وصفوا الإنسان بأنه يتكون من جنبتين فهم بذلك آمنوا بالجانب الما ورائي (الغيبي) ومن خلال تقسيمهم هذا فهم يكونون قد تركوا المدرسة المادية.

بعبارة أخرى:

طبيعة أبناء المادة هي أنهم لا يؤمنون بوجود أي شيء ما لم يكن من الأشياء المحسوسة والملموسة ولذلك فإنه حتى دراستهم للأشياء تكون أفقية، أي إنهم يدرسون الأشياء لذاتها فقط، لا لكي يكتشفوا ما ورائها، فعلى سبيل المثال هم عندما يدرسون القمر فهم يدرسونه لذاته لا لكي يكتشفوا من الذي أوجده وهكذا الحال مع بقية

دراساتهم سواء على مستوى الفلك أو الجيولوجيا أو غيرهما من الظواهر الكونية.

أما أبناء المدرسة الموحدة فدراستهم تكون أفقية عمودية، أي إنهم عندما يدرسون الأشياء يدرسونها لذاتها أولا ومن خلال تلك الدراسة الذاتية يتوصلون إلى اكتشاف ما ورائها، فيعرفون بذلك ان لها خالقا عظيما خلقها وهي لم تخلق عبثا لان خالقها حكيم لا يخلق الأشياء عبثا وإنما يخلقها لغاية وهدف فيبدأ بالبحث عن تلك الغاية والهدف اللذّين خلقت من اجلهما.

ومن هنا ينكشف لنا بأن الدراسة الدينية هي الأصح لأنها الأشمل لان الدين دعا الإنسان إلى دراسة الموجودات بنظامها الحالي (الذاتي) ومن خلاله يكتشف نظامها الفاعلي، ويكتشف أيضاً نظامها الغائي (لِمَ خُلقت)، وبذلك تكون الدراسة الدينية قائمة على حيثيات متعددة بعكس الدراسة المادية التي تقوم على حيثية أو نظرة أحادية.

أقول:

ان أبناء المادة عندما ادعوا ان منشأ الدين هو الجهل أو الخوف أو الاستغلال أو حتى الاضطراب أو غيرها من النظريات المادية الأخرى، هل يتصور هؤلاء إننا لا نملك أدلة فعلية على منشأ الدين أو أدلة واقعية وإثباتات على وجود الله تعالى؟

فإن كان هذا اعتقادهم وتصورهم فهم مخطئون لأننا نملك الأدلة الواقعية والإثباتات الحقيقية على وجود الله والتي سنأتي على طرحها واستعراضها لاحقاً ان شاء الله تعالى.

ب - النظرية الدينية لنشأة الدين:

بعد أن بيّنا ضعف النظريات الماديّة التي فسّر بها الماديون نشوء الدين والحجج الواهية التي قالوا: بأنها أسباب لنشوء الدين وسقوط تلك الحجج وقد بينا تعارضها مع أبجديات الدين الإسلامي.

نأتي الآن لنعرف ما هو رأي الدين أو رأي النظرية الدينية في نشوء الدين:

منشأ الدين هو الفطرة[1].

وتتضح فكرة نشأة الدين من الفطرة إذا عرفنا أن أفعال الإنسان تنقسم إلى أنواع عديدة، منها:

النوع الأول: الأفعال الاكتسابية.

وهي الأفعال التي يكتسبها الإنسان من التعلم (كتعلم الكتابة أو الخياطة) وغيرها.

النوع الثاني: الأفعال الطبيعية.

وهي التي تكون من خلال ردود الأفعال (كاصفرار الوجه عند الخوف أو احمراره عند الخجل) وغيرها.

النوع الثالث: الأفعال الغريزية.

وهي الأفعال التي يكون منبعها غريزياً (كالانجذاب نحو الجنس الآخر او حنان الام على ولدها او اجتناب الخطر) وغيرها من الأفعال

---

(١) الفطرة: بالكسر تعني الخلق (انظر القاموس المحيط: ج(٣) - ص ٢٢٩)، وكذلك يورد لها الفيروز ابادي في القاموس المحيط: ج(٢) - ص ١١٠ معاني كثرة منها (الخلقة التي خلق عليها المولود في رحم امه، والدين)

التي تكون مرتبطة بغريزة الإنسان، وهذه الأفعال تكون مشتركة بين الإنسان والحيوان.

النوع الرابع: الأفعال (الأمور) الفطرية.

وهذه الأفعال تولد مع الإنسان، فهو فطر عليها كحبه للكمال وكذلك من اهم الأمور التي فطر عليها الإنسان هو الدين، والدين يوصل الإنسان للكمال.

فالدين أمر فطري (جبلي) موجود في تكوين الإنسان وليس بإمكانه التخلي عنه وقد ذكروا أن فرعون على الرغم من ادعائه الربوبية إلا انه كان يعبد صنما في الخفاء. وهذا ما وضحه قوله تعالى حكاية على لسان الملأ (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...) (الأعراف: ١٢٧)، فقولهم (ويذرك والهتك) خير دليل على عبادة فرعون للأصنام في الخفاء، فهو التجأ بفطرته لمن يسد ضعفه وفقره ولكنه اخطأ المصداق الحقيقي لذلك.

إذن، الدين هو نزوع فطري نحو الأقوى نحو الكرم المطلق نحو الحي الذي لا يموت، وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة الفطرية من خلال قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه في قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام: ٧٦ - ٧٨).

ومن خلال هذه الآيات الكريمة نستفيد العديد من الحقائق، منها:

أولا:

إن استخدام النبي إبراهيم عليه السلام للأسلوب التدريجي للإقناع كان من أجل أن يرجع قومه إلى فطرتهم السليمة التي خلقوا وفطروا عليها قبل ان تتلوث بالشرك وعبادة الأصنام.

وقد يسأل البعض: لماذا استخدم النبي إبراهيم عليه السلام هذا الأسلوب؟

الجواب: حتى لا يتفاجؤوا ولا يستطيعوا الإنكار، فالذي تعوّد على الظلام وتشبّع به لا يمكن نقله إلى النور مباشرة، لأن ذلك سيسبب له العمى، كذلك الحال مع قوم النبي إبراهيم عليه السلام فقومه تشبعوا بالظلام من خلال عبادتهم للأصنام وكفرهم وفي هذه الحالة لو تكلم معهم النبي إبراهيم عليه السلام بصورة مباشرة فإن ذلك سيؤدى إلى إصرارهم على المعاندة والإنكار ولذلك استخدم الأسلوب التدريجي في المحاورة وتبيان الحجة.

الثاني: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي...)

إن قول النبي إبراهيم عليه السلام: (هذا ربي) -كما تبين الآية- جاء على نحو الاستدلال لا على نحو الاعتقاد، أي يكون القول واللفظ فقط بهذه الصيغة (قال هذا ربي؟!)، ولو أنه قاله على نحو الاعتقاد لكان شركاً بالله تعالى، وحاشا للنبي إبراهيم عليه السلام ان يكون مشركا، وهو الذي وصفه القرآن الكريم بأنه امة لوحده من العبودية لله تعالى كما جاء في قوله تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (النحل: ١٢٠).

الثالث: (...فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ)

الاستدلال على وجود الله تعالى من خلال قوله الذي تبينه الآية أعلاه، حيث اختار النبي إبراهيم عليه السلام أروع العبارات ليستدل بها على وجود الله تعالى، وهو قوله (لا أحب) وقد قال هكذا ليبين لهم أن الرب محبوب والحب فطرة (تكامل)، كما أن الدين فطرة وهل الدين إلا الحب، ولهذا اختار النبي إبراهيم عليه السلام قول (لا أحب) ولم يقل (لا أريد، لا أعقل، لا أستدل).

وكذلك من الأسباب التي دعت النبي إبراهيم عليه السلام إلى قوله هذا هو: أنه رأى في الكوكب ما يراه في نفسه من صفات المخلوقين من حيث الأفول والحركة.

و بعد أن أفل (اختفى) النجم رأى القمر حيث كان القمر اكبر من الكوكب واسطع نورا، ولكنه أيضاً اختفى، فقال عند ذلك (...لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) ثم انتقل من القمر إلى الشمس التي تكبر القمر بالحجم، ولكنها أيضاً اختفت قال (...قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) وهنا استخدم النبي إبراهيم عليه السلام أسلوب القوة والتهديد مع قومه، والسبب في ذلك: انه قد وصل إلى الحقيقة التي أراد أن يبينها لهم، وهي الاستدلال على وجود الله الخالق سبحانه، وهذا ما قصدناه عندما قلنا انه استخدم أسلوب التدرج، فمن خلال انتقاله من الكوكب إلى القمر إلى الشمس واستخدامه للعبارات الملائمة أوصل الحقيقة التي أرادها، وهي إرجاعهم إلى فطرتهم السليمة وتوضيح أن الرب هو ذلك الشيء الذي لا تنطبق عليه صفات المخلوقين.

وبعدها قال كما يحكي القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: ٧٩).

وبعد كل هذا نستنتج: ان الدين هو حقيقة الحقائق، وهو الكمال الذي ينشده الإنسان ويتمنى الوصول إليه، هذا بالإضافة إلى ان الإنسان مجبول على طلب الحقيقة والسعي الدائم لاكتشافها.

ومن هنا أيضاً نستدل على ان الإيمان بالله تعالى ومعرفته هو من الأمور الفطرية.

فائدة: في الأمور النسبية والفطرية:

إن الأمور التي تسود حياة الإنسان تنقسم إلى قسمين:

١ - الأمور النسبية.

٢ - الأمور المطلقة (الفطرية).

وسنبين الفرق بين هذين القسمين على نحو الاختصار، والفرق هو:

القسم الأول: الأمور النسبية.

وهذه الأمور تتغير بتغير الظروف والأحوال الخارجية وهي تختلف من إنسان إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر، وهي على أنواع منها:

النوع الأول: الأمور الذوقية

أي الأمور التي يكون الذوق الشخصي أو العام هو الحاكم فيها، ومثالها: أن يرى البعض بياض البشرة هو مقياس الجمال بينما يرى البعض الآخر السمرة هي الجمال.

النوع الثاني: ما يصلح وما لا يصلح

أي قياس الأمور باعتبار المصالح التي تستبطنها تلك الأمور أو المفاسد، ومثالها: أن نقول: إن هذه البناية تصلح ان تكون مدرسة ولكنها لا تصلح ان تكون سجنا، وبناية أخرى تصلح أن تكون مستشفى ولكنها لا تصلح ان تكون مدرسة وهكذا.

القسم الثاني: الأمور المطلقة (الفطرية).

أما هذه الأمور فتكون ثابتة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان، وهي أيضاً على أنواع منها:

النوع الأول: الأمور الرياضية.

كالخطوط المتوازية، فهي تبقى متوازية ولا يمكن ان تلتقي مهما تغير الزمان والمكان وكذلك الحال مع مجموع أضلاع المثلث فهي تساوي (١٨٠) درجة في كل مكان على سطح الكرة الأرضية وفي كل زمان، فهذا الرقم ثابت لا يتغير.

النوع الثاني: الأمور الفيزيائية.

كأن نقول: الحديد يتمدد بالحرارة، وهذه حقيقة ثابتة لا تتبدل في أي بلد او في أي زمان، كذلك الحال عندما نقول: إن الضوء أسرع من الصوت، فهي أيضاً من الحقائق الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير.

النوع الثالث: الحسن الذاتي والقبح الذاتي.

فالظلم قبيح بكل أنواعه سواء كان ظلم العباد أو ظلم الإنسان لنفسه فهو قبيح وهذا امر لا يختلف عليه اثنان في أي مكان أو زمان، وفي المقابل يكون العدل حسناً أيضاً في كل مكان وفي كل زمان.

النوع الرابع: الأمور الغيبية.

الغيب من الأمور المطلقة، فحتى وان اختُلف في مصاديق الغيب ولكن أصل فكرة الغيب هي فكرة ثابتة لا تتغير، فحتى أبناء المادة (الإلحاديين) عندما أنكروا وجود رب العالمين فهم بالمقابل اعترفوا بأمور خارج نطاق المادة، مثل النفس والغرائز النفسية كما بينا.

النظرية الاجتماعية في المدرسة المادية والمدرسة الدينية.

هناك سؤال طرحه الماديون مفاده: هل للدين الإسلامي نظرية اجتماعية مكتملة؟

ولكي نجيب على هذا السؤال سنوضح بعض الأمور من خلال عدة خطوات، وهي:

الخطوة الأولى: ما هو المجتمع؟

المجتمع: هو عبارة عن مجموعة من البشر تحكمهم قوانين وأنظمة.

الخطوة الثانية: هل الإنسان مدني بطبعه؟ أو أنه بفطرته اجتماعي أم هو مضطر للاجتماع مع الغير؟

الجواب على هذا السؤال سيكون من خلال بيان رأيين:

الأول: رأي المدرسة المادّية.

اختلف علماء المدرسة المادّية في الإجابة على هذا السؤال، فنمهم من قال: إن الإنسان بفطرته اجتماعي ولكنه بطبعه متوحش، وهناك من جمع بين الاثنين ولم يفرق بين الطبع والفطرة، أما القسم الثالث فقالوا: إن الإنسان بفطرته وبطبعه هو غير اجتماعي ولكنه رأى إذا لم يعش ويجتمع مع الآخرين فانه سيفقد حياته، ولهذا فهو مضطر

للاجتماع والعيش مع غيره، وهناك العديد من النظريات الأخرى في هذا المجال ولكن لا يسعنا ذكرها جميعا.

الثاني: رأي المدرسة الدينية.

النظرية الإسلامية قالت: إن الإنسان بفطرته اجتماعي، واجتماعه مع الآخرين والتعايش معهم هو امر نابع من فطرته، ويؤكد هذا القول قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...) (الحجرات: ١٣)، فبالإضافة إلى ان خطاب الآية هو خطاب عام وموجه لكل بني البشر كذلك نستنتج من الآية ان احد أهداف خلق الإنسان هو التعايش مع الآخرين من خلال التزاوج والتعارف وغيرها.

استطراد:

عندما بحثنا عن تخصيص الخطاب القرآني لفئات المجتمع وجدناه يكون على أنحاء كثيرة، منها:

تخصيص الخطاب في ثقافة القرآن الكريم:

١ - تخصيص على أساس الأخوة الخلقية:

وهي الآيات التي خاطبت الإنسان من جهة انتسابه إلى الإنسانية العامة، ومنها قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ...) (البقرة: ٢١/ النساء: ١). يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ...) (الانفطار: ١٦/ الانشقاق: ٦).

٢ - تخصيص على أساس الدين والإيمان:

وهي الآيات التي خاطبت صنفاً خاصاً من الإنسان، أخذت فيه قيد الإيمان والتدين، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ...)

(النساء: ١٩/ النور: ٢١). يقول تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...) (آل عمران: ٦٥).

٣ - تخصيص الخطاب على أساس العلم والجهل:

والخطاب هنا للإنسان بقيد اتصافه بالعلم أو خلوه عنه، كما في قوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...) (الزمر: ٩).

٤ - تخصيص الخطاب على أساس المستضعف (ظالم أو مظلوم):

والملاحظ هنا هي صفة الظلم أو المظلومية.

فمن جهة المستضعِف (الظالم): يقول تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...) (القصص: ٤).

ومن جهة المستضعَف (المظلوم). يقول تعالى: (...يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ...) (القصص: ٤).

٥ - خطاب مختص برسل السماء:

والخطاب هنا لخصوص من لهم علاقة بالسماء من نحو النبوة، يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ...) (الأنفال: ٦٤).

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ...) (المائدة: ٤١ و٦٧).

وهكذا الآيات التي خاطبت بقية الأنبياء عليهم السلام كما في قوله تعالى: (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) ﴿الأعرف ١٤٤﴾

الخطوة الثالثة: أصالة المجتمع.

هل الأصالة في التجمعات البشرية تعود للفرد فقط أو للمجتمع فقط أم للاثنين معا؟

الجواب، أيضاً سنبين فيه رأيين:

الأول: رأي المدرسة الماديّة.

تعددت المدارس المادية في تحديد الجواب لهذا السؤال، فمنها من قال بأن الأصالة تعود للمجتمع فقط، ومنها من قال تعود للفرد فقط.

الثاني: رأي المدرسة الدينية.

النظرية الإسلامية بينت بأن الأصالة في المجتمع تكون للاثنين معاً: للفرد وللمجتمع، وقد تفنن القرآن الكريم في تبيان هذه الحقيقة من خلال عدة بيانات، منها:

أ - الأصالة للمجتمع بشكل عمودي (طولي) من خلال فترة زمنية طويلة.

وهو ما حدث مع اليهود عندما قتلوا أنبياءهم فيقول تعالى: (...قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ...) (البقرة: ٩١)، والآية تخاطب اليهود في زمن النبي ﷺ في المدينة حيث لا يوجد نبي غيره ﷺ حتى يقتلوه، إذن، هي تشير إلى ما فعله آباؤهم وأجدادهم من قبل ولكنهم كانوا راضين بفعل أسلافهم وبذلك فهم شركائهم ، وهذا ما يورده العلامة الطبرسي في تفسيره، فيقول:

﴿(قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاء اللّهِ مِن قَبْلُ): أي قل يا محمد لهم فلم قتلتم أنبياء الله، وقد حرّم الله في الكتاب الذي انزل عليكم قتلهم وأمركم فيه بإتباعهم، وفرض عليكم طاعتهم وتصديقهم.

ثم ينقل العلامة عن الزجاج قوله:

وإنما أضاف إليهم فعل آبائهم وأسلافهم لأحد الأمرين:

احدهما: ان الخطاب لمن شهد من أهل ملة واحدة ومن غاب منهم واحد، فإذا قتل أسلافهم الأنبياء، وهم مقيمون على مذهبهم وطريقتهم، فقد شركوهم في ذلك.

و الآخر: إنهم رضوا بأفعالهم، والراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم﴾[1].

ب – الأصالة للفرد بشكل أفقي (عرضي) عبر فترة زمنية قصيرة.

وهذا يتضح من خلال قصة عاقر ناقة صالح عليه السلام، فالذي عقر الناقة فرد واحد ولكن العذاب والهلاك حلّ على الجميع، لان الجميع رضوا بفعله، كما جاء في قوله تعالى: (...فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) (الشمس: ١٤).

الخطوة الرابعة: الجبر الاجتماعي.

هل للمجتمع تأثير على الفرد بصورة جبرية؟

نبين رأيين إجمالاً:

رأي المدرسة الماديّة:

حيث قالوا، نعم؛ باستطاعة المجتمع ان يؤثر جبراً على الفرد.

رأي المدرسة الدينية:

النظرية الإسلامية فنّدت التأثير الجبري للمجتمع على الفرد، واستدلّت على رأيها بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...) (المائدة: ١٠٥)، وكذلك ضرب القرآن الكريم العديد من الأمثلة على هذا الأمر، منها:

---

(١) مجمع البيان: ج(١) – ص ٣٠٥.

المثال الأول: نبي الله إبراهيم عليه السلام.

يقول تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا...) (النحل: ١٢٠).

فعلى الرغم من المحيط الكافر الذي كان يعيش فيه النبي إبراهيم عليه السلام إلا انه لم يستطع ان يؤثر فيه ويغيّر عقيدته، لعل البعض يقول ان النبي إبراهيم عليه السلام كان فردا واحدا فلماذا عبر عنه الله تعالى بـ (امة)؟

فنقول: تعبير القرآن الكريم هنا تعبير عن الأمة النوعية، أي كناية عن أن وقوفه أمام الأعداد المتجمهرة من الكفار كان يعني أنه يمثل جبهة مضادة لهم، فكان لوحده يمثل أمة أمامهم.

المثال الثاني: مؤمن آل فرعون.

يقول تعالى: (وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) (يس: ٢٠).

وكذلك الحال مع مؤمن آل فرعون فهو بقي على إيمانه وتدينه رغم المجتمع الفاسد الذي كان يعيش فيه ورغم بطش فرعون وسطوته إلا انه لم يؤثر ذلك على إيمانه.

المثال الثالث: آسيا بنت مزاحم.

يقول تعالى: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (التحريم: ١١).

نرى ان القرآن الكريم قد نوّع في ضرب الأمثلة للناس، وهذه المرة جعل للمرأة نصيبا فقد ضربها مثلا للحفاظ على دينها وصمودها وثباتها رغم أنها كانت تعيش مع طاغية كفرعون الذي ادعى الربوبية

كما يقول تعالى على لسانه (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعات: ٢٤)، ولكن على الرغم من كل ذلك فقد تحملت ما تحملت ولم يؤثر فيها بطش فرعون والمجتمع الفاسد الذي كانت تعيش فيه وبقيت محافظة على إيمانها ودينها حتى أصبحت مثلا يحتذى به من قبل الرجال والنساء.

إذن، من خلال كل ما بيناه نثبت ان المجتمع لا يؤثر جبرا على الفرد، نعم له تأثير عليه ولكن هذا التأثير يكون تأثيرا نسبيا ومحدوداً فيستطيع الإنسان إذا حكّم عقله وفعّل إرادته ان يقف بوجه هذا الانحراف ويبقى محافظا على قيمه ودينه.

الخطوة الخامسة: المجتمع إلى أين؟ أو ما هو مصير المجتمع؟

وأيضاً نشير إلى رأيين إجمالاً:

رأي المدرسة الماديّة:

انقسمت المدرسة الماديّة في تحديد مصير المجتمع إلى قسمين: قسم كانت له نظرة ضبابية غير واضحة حول نهاية ومصير المجتمع، وقسم آخر كانت له نظرة سوداوية حول مصير المجتمع.

فأصحاب النظرة الضبابية يطلق عليهم في الوقت الحاضر بـ(اللا أدرية او اللا أدروية) وهؤلاء ليس لديهم علم حول نهاية المجتمع وجل جوابهم حين يسألون هو: لا نعلم ولا ندري.

أما أصحاب النظرة السوداوية، فهؤلاء يشبّهون المجتمع بالفرد حيث قالوا: إن الإنسان الفرد كلما ازداد في العمر أصبح أكثر دهاء وذكاء ونفاقا، والمجتمع أيضاً كلما ازداد علما وتطوّرا كلما ازداد تعقيدا حتى يصل إلى مرحلة القتال بين البشر، وهكذا حتى تنتهي

الحياة، وهذا هو ما عبرنا عنه بالنظرة السوداوية التي تدعو إلى اليأس في الحقيقة.

رأي المدرسة الدينية:

النظرية الإسلامية لها رؤية خاصة ومختلفة فهي تدعو إلى الأمل والتفاؤل وتبين ان مصير الأرض (المجتمع) إلى الأفضل والأحسن، ولها أدلتها على ذلك من قبيل قوله تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) (الأنبياء: ١٠٥)

و قوله تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ...) (النور: ٥٥).

الخطوة السادسة: العوامل التي تقدم المجتمع والعوامل التي تؤخره.

هناك العديد من العوامل التي تساعد على بناء المجتمع وتقدمه إنسانيًا ليكون قريبًا من مرضاة الله تعالى، وبالمقابل هناك عوامل تعمل على تراجع المجتمع وتأخيره وتخلّفه إنسانيًا وإن كان متطورًا تكنلوجياً، ومن هذه العوامل ما يأتي:

١ - العلم والجهل:

يقول تعالى: (...إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء...) (فاطر:٢٨).

يقول تعالى: (...يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ...) (المجادلة: ١١).

وهناك الكثير من الآيات التي تبين أهمية وفضل العلم والعلماء، والعلم يعد من أهم العوامل التي تعمل على تقدم المجتمعات وبعكس الجهل الذي يولد حالة من التخلف تؤدي إلى تراجع المجتمعات وتأخرها، والجهل لا يكون على مستوى التعلم فقط وإنما للجهل مستويات متعددة، منها الجهل الأخلاقي مثل الذي كان عليه قوم النبي لوط عليه السلام كما يوضحه القرآن الكريم بقوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (النمل: ٥٥)، فجهلهم جعلهم يفعلون ما يفعلوا من شذوذ أخلاقي.

وهناك الجهل العقائدي مثل الذي كان عليه بنو إسرائيل كما يوضحه قوله تعالى (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) (الأعراف: ١٣٨)، فهم بسبب جهلهم انحرفوا عقائديا.

إذن، بالعلم تتقدم الأمم وبالجهل تتراجع كما يصور ذلك الشاعر بقوله:

العلم يرفع بيتاً لا عماد له — والجهل يهدم بيت العز والكرم

٢ - العدل والظلم:

العدل أيضاً من العوامل التي تساعد على تقدم الأمم والمجتمعات كما يقوله تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...) (الحديد: ٢٥).

ولكن عندما ينحسر العدل ويتفشى الظلم وينتشر الجهل عند ذلك تتراجع المجتمعات.

٣ - الوحدة والتشتت:

أيضاً من العوامل التي تبني المجتمع وتقوي أواصره وتساعد على تقدمه هو عامل الوحدة، فمن خلالها يصبح المجتمع قوياً متماسكاً، وهذا يؤدي إلى تقدمه ورقيّه، وقد صوّر لنا ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ...) (آل عمران:١٠٣)، حيث نرى في الآية المباركة حثّاً على الوحدة ونهياً عن التفرقة لان التفرقة تؤدي إلى التشتت، وهذا يؤدي إلى تضعيف المجتمع، وما يؤكد هذا المعنى هو قوله تعالى: (...وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ...) (الأنفال: ٤٦).

٤ ـ التقوى والفساد الأخلاقي:

إذ لا شك أن التقوى والتزام الشريعة تعني الوصول بالمجتمع إلى أوج كماله الممكن، وبعكسه الفساد الأخلاقي الذي يعمل على تحلّل المجتمع، وبالتالي هدمه، يقول تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) (ص:٢٨).

المحطة الخامسة: لغتان قرآنيتان لإرجاع الإنسان إلى الإيمان:



استخدم القرآن الكريم لغتين لإرجاع الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وهاتان اللغتان هما:

اللغة الأولى: لغة الاستدلال.

يقول تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور:٣٥).

الآية الكريمة تطرح سؤالا مهما على كل من أنكروا وجود الله تعالى وهو:

أن كل إنسان قبل خلقه لم يكن شيئاً مذكورا، والسؤال هو: من الذي أوجده من ذلك العدم؟

والسؤال الآخر: إذا كان الخالق عدماً أيضاً وغير موجود فكيف للعدم ان يوجد الأشياء؟

فإن كان جوابهم: أن الخالق هو الصدفة.

فنقول: الصدفة جاهلة - وقد بيّنا كيف ان الصدفة جاهلة سابقا - ولا يمكن للجاهل ان يوجد الأشياء، ويخلق هذا الكون المنتظم والمترابط (كما وضحنا ذلك أيضاً)، وبالتالي فإننا نستطيع إثبات أن من خلق هذا الكون بكل ما يحتويه من مخلوقات هو خالق عظيم عالم بمقاليد الأمور ومدبر لها وليس جاهلاً كالصدفة كما يدّعون، وهكذا فإن حقيقة وجود الله تعالى حقيقة ثابتة مطلقاً ولا تقبل النقاش والجدال.

اللغة الثانية: لغة الفطرة.

هذه اللغة تركز على حقيقة مهمة وهي: ان الإنسان عندما خُلق وخرج إلى الدنيا، فإنه جاء ومعه شيء مهم وهو الفطرة السليمة، ولكن من خلال المحيط الذي يعيش فيه الإنسان يمكن أن تتلوث هذه الفطرة وينسى الإنسان المصداق السليم للفطرة التي جبل عليها، وهنا أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل والحجج الإلهيين والأئمة ليرجعوا الناس إلى تلك الفطر السليمة التي خلقوا وجبلوا عليها.

ولهذه اللغة مصاديق خاصة وعديدة في القرآن الكريم:

مصاديق لغة الفطرة في القرآن الكريم:

المصداق الأول: التذكير على ما جبلت عليه النفس.

١ - يقول تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) (الغاشية: ٢١).

٢ - يقول تعالى: (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) (عبس: ١١).

٣ - يقول تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ) (المدثر: ٤٩).

٤ - يقول تعالى: (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم: ٦٧).

وهنا قد يرد سؤال: إذا كان الدين فطرة، والقران جاء لتذكير الإنسان بفطرته، فهل سيكون القرآن صعباً أم سهلاً؟

الجواب: القرآن الكريم صعب وسهل، فهو سهل بمعارفه الفطرية وصعب بمعارفه الفكريّة، ولهذا قال تعالى: (يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) مرة و (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا) أخرى..

المصداق الثاني: العهد والميثاق.

يقول تعال: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...) (يس: ٦٠).

العهد المقصود به في الآية الكريمة ناظر إلى ما قبل خلق الإنسان، أي العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم وهم لا يزالون ذرات صغيرة، وفطرهم وجبلهم عليه وهو التوحيد. وهذا ما يثبته قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) (الأعراف: ١٧٢).

وكذلك الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الأمر.

فعن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: وسألته عن قول الله عز وجل: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى)، قال: (اخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة، فخرجوا كالذر، فعرفهم وأراهم نفسه ولولا ذلك لم يعرف احد ربه) وقال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كل مولود يولد

على الفطرة - يعني على المعرفة بأن الله عز وجل خالقه - كذلك قوله: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...) (لقمان: ٢٥))[١].

وقد بيّنّا أنواع العهود والمواثيق في بداية البحث.

المصداق الثالث: الخطر.

يقول تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥).

متى ما أحس الإنسان وشعر بالخطر المحدق به رجع إلى الله تعالى، وهذا ان دلّ على شيء فهو يدل على ان الاعتقاد بالله موجود ومغروز في فطرة الإنسان

وهذا يدل أيضاً على ان الخوف والخطر قد ارجعا الإنسان إلى فطرته السابقة التي فطر عليها وليس هما من ولّدا الفطرة.

المصداق الرابع: الفطرة.

يقول تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...) (الروم: ٣٠).

و هذه الآيات من أكثر الآيات وضوحا ودلالة على فطرية الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده تعالى في أعماق النفس البشرية[٢] وهذا ما أكدت عليه الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، ونذكر منها:

---

(١) البرهان في تفسير القران: ج(٣) - ص ٢٣٦، ح(٣).

(٢) يذكر الشيخ جعفر الهادي في كتابه (الله خالق الكون - ص ١٤٨ - ١٤٩)، يقول: (ان الميل الى الله والاعتقاد بوجوده والانجذاب نحوه شيء طبيعي في كل انسان وليس للإنسان نفسه او غيره أي اثر في تكوينه وايجاده، وذلك عندما سئل الامام الصادق عليه السلام ⇐

عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت: (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطر النَّاسَ عَلَيْهَا)؟ قال: (التوحيد)[1].

وعن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الاله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: (...فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...). ما تلك الفطرة؟ قال: (هي الإسلام، فطرهم الله حين اخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى) (الأعراف: ١٧٢)، وفيه المؤمن والكافر)[2].

وبالإضافة إلى ذلك هناك العديد من الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام وتدل على فطرية الإيمان، منها:

ما روي أن رجلاً قال للصادق عليه السلام: يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد كثر عليّ المجادلون وحيروني، فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك ان شيئا من الأشياء قادر على ان يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث[3].

⇐عن المعرفة (أي معرفة الله) صنع من هي؟ قال: من صنع الله عز وجل وليس للعباد فيها صنع).

(١) الكافي: ج(٢) - ص ١٢، ح(١).

(٢) البرهان في تفسير القران: ج(٦) - ص ١٥٠، ح(٣).

(٣) بحار الانوار: ج(٣) - ص ٤١، ح(١٦).

المحطة السادسة: دعوة الإسلام لدراسة الموجودات بنظامها الحالي (الداخلي – الفعلي)

عندما نطالع النصوص الدينية، نجد أنها تدعو الإنسان إلى دراسة شاملة للموجودات في نظامها الحالي، وفي هذه المحطة سنتناول مفردات من تلك الموجودات ونظامها الحالي، وسنتمم البحث في المحطة التالية عن الأساليب التي استعملها القرآن الكريم في بيان ذلك، وهنا نذكر عدة نقاط:

١ - الكون يسير بسنن وقوانين متقنة تحكمه.

وهذا ما تؤكده العديد من الآيات الكريمة، ومنها قوله تعالى: (...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ...) (النمل: ٨٨).

ويقول تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...) (السجدة: ٧).

٢ - الكون محكوم بنظام موحد.

يقول تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ...) (الملك: ٣).

من خلال هذه الآية نكتشف حقيقة قرآنية مهمة وهي ان السماوات السبع التي خلقها الله تبارك وتعالى تسير وفق نظام موحّد بحيث لا تتبادل المواقع والمواضع ولن تجد فيها أي خلل.

٣ - الكون متحرك وليس ثابتاً:

يقول تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٤٠).

يقول تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ...) (النمل: ٨٨).

من خلال هاتين الآيتين نستدل على ان كل شيء في هذا الكون متحرك، ولابدّ من وجود محرك يحركه، فمن هو محركه؟ فإذا طرحنا هذا السؤال على أبناء المدرسة المادية سيكون جوابهم: ان الموجودات في الكون أودعت فيها خاصية الحركة، أي إن كل شيء في الكون يحرك نفسه بنفسه، فنقول: جيد، ولكن من الذي أودع فيها هذه الخاصية الحركية؟

ولكي يتخلصوا من كل هذه الأسئلة الموجهة إليهم والتي لا يملكون لها جوابا طرحوا العديد من الفرضيات أو النظريات، وهي:

النظرية الأولى: نظرية السفسطة.

أصحاب هذه النظرية قالوا: ان كل شيء في الكون بما فيه نحن البشر هو عبارة عن خيال، أي لا يوجد إنسان ولا سماء ولا ارض وإنما هي عبارة عن تخيلات بأنها موجودة، وهؤلاء أطلق عليهم فيما

بعد بالسفسطائيين. ولكن العالم ديكارت[1] ضرب هذه النظرية عندما قال مقولته الشهيرة: (أنا أفكر إذن أنا موجود).

النظرية الثانية: الوجود الذاتي للكون.

أصحاب هذه النظرية قالوا بأن الكون اوجد نفسه بنفسه.

نقول: هل الكون قبل ان يُوجِد نفسه كان موجودا؟ فإن كان الجواب نعم، فنقول من الذي أوجده؟ إذ لا شك أن الكون ممكن، لأنه متغير، وكل متغير فهو حادث، وبالتالي فهو ممكن، فيحتاج إلى علة توجده، ولا يمكن أن نتصور أنه أوجد نفسه بنفسه، إذ هذا معناه وجود المعلول بلا علة.

وان كان الجواب: لا، فنقول كيف يمكن لشيء غير موجود أصلا ان يوجد شيئاً ويكونه؟

النظرية الثالثة: الكون أزلي الوجود ابدي البقاء.

أما أصحاب هذه النظرية فقالوا ان الكون أزلي الوجود (قديم غير مسبوق بعدم) وابدي البقاء (لا نهاية له)، وهذه النظرية ينقضها ما توصلوا إليه بأنفسهم من خلال العلم الحديث من أن للكون عمراً (بداية) وانه مسبوق بعدم ولكنهم اختلفوا في تحديد هذا العمر، أما كونه أبدياً فكذلك اثبتوا من خلال دراساتهم بأن الكون سينهار في

---

(١) رينيه ديكارت: هو فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي وهو صاحب المقولة الشهيرة (انا افكر إذاً انا موجود). كان ديكارت من المشككين في المعرفة الحسيّة سواء منها الظاهرة او الباطنة حتى انه شك في وجوده ووجود العالم الحسي ولكن شكه هذا اصبح يشكل دليلا قويا على وجوده حتى قال (كلما شككت ازددت تفكيرا فازددت يقينا بوجودي).

يوم ما، وبما انه سينهار فهذا يدل على عدم أبديته وان له نهاية ونهايته تدل على عدم أزليته.

ومن خلال ما وضحناه سابقا نكتشف سقوط هذه النظريات وغيرها وتبقى النظرية الوحيدة الصحيحة هي النظرية الدينية والتي تثبت ان الكون ممكن ولابدّ للممكن من واجب وهذا الواجب هو الله جل جلاله.

٤ - الجاذبية الكونية:

يقول تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...) (لقمان: ١٠).

يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا...) (فاطر: ٤١).

من القوانين المهمة التي توصل إليها الإسلام ودعا الناس إلى دراستها من خلال القرآن الكريم هو قانون الجاذبية، فوجود السماء ووقوفها بغير عمد مرئية وثبوتها لهو من الدلائل الكبرى التي توصلنا إلى وجود هذا القانون، وكذلك الحال مع الأرض فثبوتها وثبوت المخلوقات عليها رغم دورانها فهو أيضاً من الأدلة على وجود هذا القانون ، وبذلك نعرف أن الإسلام قد سبق نيوتن في الإشارة إلى هذا القانون بمئات السنين.

٥ - نشأة الكون:

يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...) (الأنبياء: ٣٠).

وفي بيان هذه الآية روي عن أبي جعفر عليه السلام، فإنَّ قول الله عز وجل: (كانتا رتقا) يقول: كانت السماء رتقا لا تنزل المطر، وكانت الأرض رتقا لا تنبت الحب، فلما خلق الله تبارك وتعالى الخلق، وبث فيها من كل دابة، فتق السماء بالمطر، والأرض بنبات الحب[1].

٦ - اتساع الكون:

سابقا كان الاعتقاد السائد هو ان الكون له حجم معين ولا يتسع، حيث قالوا: ان الكون متكون من مجرة واحدة، وهي ما يطلق عليها اسم مجرة (درب التبانة) وهذه المجرة تتكون من ملايين الكواكب والنجوم وغيرها، ولكن العلم اثبت فيما بعد عكس ذلك تماما، حيث وجدوا من خلال الدراسات التي أجروها على الكون انه يتكون من عشرات -بل ربما مئات وآلاف وملايين- المجرات وكل واحدة من هذه المجرات تتكون من بلايين من الكواكب والنجوم وبعضها غير مكتشف حتى الآن وكل كوكب من هذه الكواكب اكبر من الأرض بملايين المرات وأما مجرة درب التبانة فهي واحدة من تلك المجرات وكذلك وجدوا ان المسافة بين الكواكب هي أيضاً غير ثابتة وإنما متسعة، وكل هذه الاكتشافات التي توصل إليها العلماء هي في الحقيقة اكتشافات متأخرة ولا يتعدى عمرها ال(٣٠٠) سنة والإسلام سبقهم باكتشافها من خلال القرآن الكريم حيث اثبت من خلال القرآن الكريم ان

---

(١) البرهان في تفسير القران ج(٥) - ص ٢٢٠، ح(١)، والرواية طويلة لا يسعنا المجال لذكرها كاملة اخذنا منها موضع الحاجة فقط.

الكون متسع قبل (١٤٠٠) سنة حيث يقول تعالى (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات: ٤٧).

٧ - نظام الزوجية:

نظام الزوجية هو احد أروع القوانين التي يقوم عليها الكون فمن خلال هذا القانون تبقى الكائنات الحيّة في حالة من الاستمرارية والبقاء وقد حفل القرآن الكريم بالكثير من الدلائل على هذا القانون منها:

قوله تعالى: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الذاريات: ٤٩).

وقوله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...) (يس: ٣٦).

وقوله تعالى: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...) (الزخرف: ١٢). والشواهد كثيرة في هذا المجال.

ولو دققنا النظر في الآية الأولى من سورة الذاريات لوجدناها تبين حقيقة مهمة وهي ان كل شيء خلقه الله تعالى خاضع لهذا النظام فعلى سبيل المثال:

١ - الإنسان:

يقول تعالى: (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (النجم: ٤٥).

وقوله تعالى: (أَلَمْ يكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى) (القيامة: ٣٧ - ٣٩).

وقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...) (الروم: ٢١). والشواهد كثيرة في هذا المجال.

٢ - الحيوانات:

يقول تعالى: (...وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا...) (الشورى: ١١).

٣ - النباتات:

اثبت العلم الحديث ما جاء به القران الكريم قبل (١٤٠٠) سنة عندما تحدث عن تزاوج النباتات[1]:

يقول تعالى: (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ... وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (ق: ٧).

وقوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا ... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى) (طه: ٥٣).

ولكن قد يسأل البعض: كيف يمكن للنباتات ان تتزاوج فيما بينها؟

الجواب: ان الله جلت قدرته جعل لكل شيء سبيلاً ومن هذه السبل التي تساعد على تزاوج النباتات هي الرياح كما في قوله تعالى (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ...) (الحجر: ٢٢)، حيث تقوم الرياح بنقل حبوب اللقاح إلى مسافات بعيدة جدا من النباتات الذكرية لتوصلها إلى النباتات الأنثوية فيتم التلاقح.

وكذلك غيرها من السبل التي سخرها الله تعالى لهذا الأمر، كالنحل والنمل والفراش والحشرات الأخرى.

---

(١) اكتشف العلم الحديث التصنيف النباتي مع زيادة المعرفة في القرن الثامن عشر الميلادي من قبل عالم النبات السويدي (كارلوس لينيوس او كما يلقب ب (لينيه)) وهو احد رواد علم التصنيف الحديث وهو اول من وضع نظام التسمية الثنائية أي (اسم الجنس واسم النوع).

ولكن هل يتوقف نظام الزوجية عند حدود الإنسان والحيوان والنبات؟

الجواب: كلا، فكما أسلفنا أن قوله تعالى: (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ...) يدل على ان كل شيء خلقه الله تعالى خاضع لهذا النظام فحتى الجمادات تخضع لهذا النظام أيضاً فعلى سبيل المثال الكهرباء فهي تتكون أيضاً من زوج من الشحنات السالبة والموجبة ولا يتم العمل الكهربائي إلا من خلال اتحادهما مع بعضهما البعض وكذلك الحال مع المجال المغناطيسي فهو أيضاً يتكون من قطبين احدهما سالب والآخر موجب وخطوط المجال المغناطيسي تدور حول هذين القطبين.

بل وحتى اصغر الأشياء في هذا الكون -التي هي الذرة- تتكون من زوجين وهما الإشعاع السالب والإشعاع الموجب فهما يتزاوجان ويتحدان ومن خلال اتحادهما تتكون التفاعلات الكيميائية وغيرها.

التفاتة:

قد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو: لماذا خلق الله تعالى كل شيء قائماً على نظام الزوجية؟

نقول: ان الله تعالى عندما خلق الكون وأخضعه لهذا النظام كان ذلك لغاية وحكمة وهي تفرده بالواحد الأحد الذي لا ندّ له، فجلت عظمة الله وجلت قدرته.

٨ - الثقب الأسود:

وهو ما عبر عنه الحق تعالى في كتابه العزيز بقوله (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) (التكوير: ١٥ - ١٦).

اختلفت آراء المفسرين في تفسير هذه الآية المباركة فكل مفسر فسرها حسب علمه وإلمامه بمعنى الآيات وسنذكر بعض تلك الآراء:

فالعلامة الطبرسي فسرها بالنجوم فقال:

الخنّس وهي النجوم تخنس بالنهار، وتبدو بالليل (والجواري) صفة لها، لأنها تجري في أفلاكها.

الكنّس: من صفتها أيضاً، لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كناسها، ويتابع العلامة قائلا: وقيل معناه أنها تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى، وتكنس في وقت غروبها، فهذا خنوسها وكنوسها.

وهناك من فسرها بالكواكب[1] كما يذكر ذلك العلامة الطباطبائي، فيقول:

الخنّس جمع خانس والخنوس: الانقباض والتأخر والاستتار والجواري جمع جارية...، والكنّس جمع كانس والكنوس دخول الوحوش بيتها كالظبي والطير كناسه أي بيته الذي اتخذه لنفسه واستقراره فيه.

ويقول العلامة: وتعقب قوله: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) بقوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) يؤيد كون المراد بالخنّس الجوار الكنّس الكواكب كلها أو بعضها[1].

---

(١) الفرق بين النجوم والكواكب: هو ان الاولى (النجوم) شموس كشمسنا، والثانية (الكواكب) عبارة عن اجسام باردة كالأرض تنعكس عليها اشعة الشمس فتضيء، ويمكن تمييزها على صفحة السماء بثبوت نورها، في حين تكون النجوم متلألئة بالنور. (تفسير الامثل ج(١٩) - ص ٤٦٠ - حاشية الصفحة).

ومنهم من فسرها على أنها الملائكة الذين جرّوا (حملوا) العلم للرسول ﷺ كما تذكر الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، والتي منها التالي:

عن الأصبغ بن نباته، عن علي عليه السلام، قال: سأله ابن الكواء، عن قوله عز وجل: (فلا اقسم بالخنّس، الجوار الكنّس)، قال: (ان الله لا يقسم بشيء من خلقه، فأما قوله (الخنّس) فأنه ذكر قوما خنسوا علم الأوصياء ودعوا الناس إلى غير مودتهم، ومعنى خنسوا: ستروا). فقال له (الجوار الكنّس)؟ قال: (يعني الملائكة، جرت بالعلم إلى رسول الله ﷺ فكنسه عن الأوصياء من أهل بيته لا يعلم به احد غيرهم ومعنى كنسه: رفعه وتوارى به)[٢].

وكذلك ذكرت بعض الروايات انه الإمام الثاني عشر من أئمة الهدى عليهم السلام، فعن ام هانئ، قالت: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول الله عز وجل: (فلا اقسم بالخنّس، الجوار الكنّس)، قالت: فقال: (امام يخنس سنة ستين ومائتين، ثم يظهر كالشهاب يتوقد في الليلة الظلماء، وإذا أدركتِ زمانه قرّت عينك)[٣]، وهذا من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم بإذن الله تعالى.

---

(١) الميزان في تفسير القران ج(٢٠) - ص ٢١٦ - ١٢٧، ويذكر العلامة ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره الامثل رأيًا يشابه رأي العلامة الطباطبائي انظر ج(١٩) - ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(٢) البرهان في تفسير القران: ج(٨) - ص ٢٢٥، ح(٥).

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٢٤، ح(٣).

أما العلم الحديث فقد توصل إلى اكتشاف ثقوب سوداء، وهذه الثقوب يمكن ان نشبهها بالمكنسة الكهربائية فهي تبتلع (تشفط أو تسحب) كل ما يتحطم في الجو جرّاء انفجارات الكواكب وغيرها، فهناك رأي من الآراء يذكر ان هذه الثقوب السوداء هي ذاتها ما عبر عنها تعالى بقوله (الجوار الكنّس) والله أعلم.

٩ - الغلاف الجوي:

يقول تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا...) (الأنبياء: ٣٢).

الغلاف الجوي: هو عبارة عن غلاف أو حاجب جوي يحمي الأرض من الشهب والنيازك الساقطة ومما يهدد حياة المخلوقات وهذا الغلاف كعلم تجريبي (وضعي) قد وصل اليه العلم الحديث مؤخرا ولكن الإسلام توصل إليه قبل ذلك بكثير[1].

١٠ - بصمة الأصابع:

يقول تعالى: (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ) (القيامة: ٤).

---

(١) اقول: ولكن يبقى السؤال كيف يحمي هذا الغلاف الارض من كل ما يهدد الحياة والاحياء؟

الجواب: نحن ذكرنا ان الشهب والنيازك الناتجة عن تحطم الكواكب وغيرها تهدد الارض ولولا وجود هذا الغلاف لاصطدمت هذه المخلفات بجسم الانسان في كل ثانية وكذلك لاصطدمت بأجسامنا الأشعةُ الكونيةُ التي تصل الى غلاف الارض من اجسامها الاولية وهذه الاشعة لأنها تكون محملة بطاقة كامنة عظيمة ولاحترق كل شيء على سطح الارض، فالغلاف الجوي يعمل على تشتيت طاقة تلك الاشعة وتبديدها فما يصل الينا إلا المقدار القليل من تلك الاشعة، فإذن لولا الغلاف الجوي الذي يعمل عمل السقف لما استطعنا العيش بهدوء واستقرار على سطح الارض ولما كانت هناك حياة واحياء.

من العلوم التي اكتشفها القرآن الكريم ودعا الناس لدراستها هو علم البصمة البشرية، فهذه المساحة الضيقة الصغيرة قد ميّز بها الحق تعالى كل إنسان عن غيره فلا يمكن لاثنين ان يتشابها في نفس البصمة[1]، ومن عجائب هذا الأمر أنه حتى التوأم لا يمكن ان يمتلكا نفس البصمة مع أنهما في بعض الأحيان يكونان من بويضة مخصبة واحدة وهذا ان دلّ على شيء فهو يدل على عظمة الخالق جلت قدرته، وقد اكتشف العلم الحديث هذه العجيبة الإلهية في زمن قريب جدا وقد سبقهم القرآن الكريم إلى الإشارة إليها قبل أكثر من ألف سنة.

١١ - نسبية الزمن:

يقول تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ...) (النحل: ١).

وقوله تعالى: (...ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) (السجدة: ٥).

---

(١) ينقل الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي في كتابه (القران والكون - ص ١٦٣) يقول: ﴿ولقد بقيت هذه الاية المعجزة في غيب الله الى ان اظهرها الله للناس في القرن الماضي فحسب، اذ اعلن الباحث الالماني (ج.س.أ. ماير):

ان ترتيب الخطوط البارزة في الكفين والقدمين لا يمكن ان تتطابق عند شخصين مختلفين قطعا، واعلن بعد ذلك في سنة (١٨٥٦ م)، ان الخطوط الحليمية - تسمية تطلق على الخطوط البارزة في البنان - تبقى ثابتة لا تتغير ولا تتبدل منذ ولادة الانسان حتى وفاته، ويذكر الدكتور تجربة علمية دلل بها العالم الالماني على استنتاجه هذا، فينقل: اخذ طبقة بنانه الايمن، ثم عاد بعد مضي اربعين سنة، في عام (١٨٩٧ م) واخذ نفس طبقة البنان ثانية، فوجد - بعد دراسته - انه لا يزال كما هو لم يطرأ عليه شيء من التعديل او التغيير البته)، ومن اراد المزيد من المعلومات فليراجع المصدر المذكور.

وقوله تعالى: (...إِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ...) (الحج: ٤٧).

وقوله تعالى: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج: ٤).

من خلال هذه الآيات المباركة التي ذكرناها نستطيع إثبات ان هناك أزمنة تختلف عن الزمان الذي نحن فيه، إذن، الزمن الإلهي يختلف عن باقي الأزمنة وقد أشار القرآن الكريم إلى نسبية الزمن قبل العلم الحديث ودعا الناس إلى كشف هذه الحقيقة العلمية ودراستها.

ثقافة الزمان في القرآن الكريم

القواسم المشتركه للأحداث:

الأحداث التي تجري على الأرض على مستوى الفرح والترح تجمعها قواسم مشتركة أحدها يتمثل بالجامع الزماني الذي يتضح من خلال موارد ثلاثه :

١- المصاحبه والتي تعني مزامنة الحدثين وإشتراكهما بزمن الوقوع وهذا المورد يتضح من خلال قوله (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) (يوسف:٣٦).

فالمعية التي جمعت يوسف مع الفتيين هي معية زمانيه أي جمعهم عنصر الزمن في الدخول للسجن .

٢-التعقيب ويعني توالي الحدثين وحدوثهما بصورة متعاقبه من دون مهلة طويلة بينهما فالحدث الأول سابق والثاني لاحق له بصورة مباشره وهذا المورد يتضح من خلال قوله (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ

رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) (آل عمران:٣٨،٣٩) فإستجابة الدعاء حصلت بصورة مباشره بعد الدعاء.

٣- التراخي ويعني توالي حدثين مع وجود فاصل زمني طويل وهذا المورد يتضح من خلال قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) (البقرة:٢٤٣)، فالله أمات أولئك القوم وأحياهم بعد مدة طويله ، والعجيب إننا عندما نعتقد برجعة أئمتنا عليهم السلام وحكمهم لأقطار الأرض بعد الظهور المقدس لإمامنا المهدي عجل الله فرجه يشكل علينا الغير ويستصعب الأمر ولم يتمعن في قوله: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) (يس:٧٨،٧٩)، في حين أن الآيات الشريفة التي بينت إماتة وإحياء بعض الأقوام في عالم الدنيا كثيره فالله أمات السبعين رجلا من بني إسرائيل الذين أختارهم موسى لميقاته وأعادهم للحياة مرة أخرى بعد طلب موسى (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة:٥٥،٥٦) وعزير كذالك أماته الله مئة عام ، وبعض المفسرين علل ذلك بأن سبب إماتة هذا النبي تتمثل في صعوبة فهم العلوم التي تحمل طابعا غيبيا فعزير النبي أراد معرفة كيفية حصول المعاد الجسماني والله أخبره بأن تعلم هذا الدرس يكلفه موت مئة سنة وبقاء روحه معلقة كي يفهم

ذالك فأماته الله بناءا على طلبه وتلبية لرغبته (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:٢٥٩) بل في مورد موسى ولقائه بالخضر (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) (الكهف:٦٠)، موسى أخبر فتاه إنه على إستعداد كامل لمسير ثمانين سنة كي يلتقي بالخضر ويستحصل منه العلم الذي آتاه الله إياه -الحقبة عند العرب تعادل ثمانين سنه.

وأكثر الفلاسفه لا يعتقدون بالمعاد الجسماني وإنما يؤمنون بالمعاد الروحاني وأسباب رفضهم للفكرة المذكورة طرحت و صيغت ضمن أطر ومسميات علميه كشبهة الآكل والمأكول وشبهة إستحالة إعادة المعدوم والرد عليهم يكون من خلال آيات سورة يس التي ذكرناها قبل قليل.

في مستدرك الوسائل للشيخ النوري هناك رواية تقول أن هناك أربعة أوقات يستجاب عندها الدعاء (عند هبوب الرياح وعند زوال الأفياء وعند نزول القطر وعند أول قطرة دم تسيل من دم الشهيد في سبيل الله) فالزمان له تأثير على الدعاء ولذلك فإن أئمتنا وضعوا لنا أوقاتا خاصة لإجابة الدعاء وإنطلاقا من هذا المبدأ وجدنا في الروايات الشريفه أن الحسين دعى عندما قتل أصحابه وولده علي الأكبر لأن

أحد أوقات إستجابة الدعاء وقت نزول أول قطرة دم للمستشهد في سبيل الله.

فلو لم يكن للوقت خصوصيه في إستجابة الدعاء لما خصص الله تعالى وقتا له فعلى سبيل المثال قوله: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَه) (الأنعام:٥٢) فالحق تعالى ذكر زمن الدعاء في هذه الآيه وخصصه (الغداة والعشي).

والزمان يمثل بعداً رابعاً والكلام فيه يكون بحيثيات عده :

١- الزمان وجد مع خلق الكون فهو متداخل معه ولا يمكن الفصل بينهما وهذا دليل على وجود بداية ونهاية له.

٢- الزمان هو الوقت والوقت منه الطويل كالقرون ومنه القصير كالدقائق والثواني.

٣- حتى الآن لم يتوصل العلم لإكتشاف أطول مدة زمنيه وأقصر مدة زمنيه ، وقد رصد أهل الإختصاص بعض الكائنات ولاحظوا أنها تولد وتعيش وتموت بجزء من ألف مليون جزءا من الثانيه !!

٤- القرآن الكريم قسم الزمان إلى قسمين:

القسم الأول: زمن تقليدي مرتبط بالأرض وهو التوقيت المعروف بوحدات الثانيه والدقائق والساعات والأيام والأشهر والسنين والعقود والقرون.

القسم الثاني: زمن نسبي وهو موجود ويحكم عوالماً أخرى وهو على أقسام.

٥- القرآن ذكر تفاصيل الزمانين التقليدي والنسبي وأشار لها وبتفاصيل مهمة.

أولا : الزمن التقليدي وهو على قسمين :

أ- الزمن التقليدي الطويل بينه من خلال عدة عبائر:

- القرون الأولى (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) (طه:٥١).
- (يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج:٤).
- (كلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى) (الرعد:٢).

ب) الزمن التقليدي القصير بينه الحق تعالى بسياق عام وفق عبائر دالة عليه :

- قوله "لايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ " ﴿الأعراف:٣٤﴾
- قوله "يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ"﴿النمل:٤٠﴾
- قوله "كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ"﴿النحل:٧٠﴾
- قوله: (خَطِفَ الْخَطْفَةَ) (الصافات:١٠).

أما على مستوى التفاصيل فالقرآن الكريم ذكر تفاصيل للزمن التقليدي ك :

- تفاصيل اليوم كالفجر والضحى والعصر والليل .
- الأيام (فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ)(البقرة:١٩٦).
- الأشهر (شَهْرُ رَمَضَانَ) (البقرة:١٨٥).
- السنين (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) (يونس:٥).
- القرون (الْقُرُونِ الْأُولَى) (طه:٥١)

ثانيا : الزمن النسبي وهو على قسمين :

١- زمن نسبي لم تبين مدته مقارنة بالزمن التقليدي كقوله تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ) (الأعراف:٥٤)، أي بمعنى ستة مراحل ولكن مدة كل مرحله من هذه المراحل ليست معروفه

بحسب زمننا التقليدي وقوله: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ) (الروم:٥٥).

فالساعة في الزمان النسبي قد تعادل ملايين بل مليارات السنين من زمننا التقليدي .

٢- زمن نسبي ذكر مقداره مقارنة بالزمن التقليدي وهذا المطلب يتضح في عدة موارد:

عالم المنام فهاذا العالم يشترك مع عالم السماوات والأرض ولكنه يختلف عنه فأصحاب الكهف ناموا بحسب عالم المنام (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا) والتي عادلت يوما أو بعض يوم بحسب الزمن التقليدي (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ).

(٣٠٩ سنة بالزمن النسبي = يوم أو بعض يوم بالزمن التقليدي)

عروج الملائكة والروح إلى السماء كما ورد بقوله: (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (المعارج:٤)، ففي أحد العوالم اليوم الواحد بالزمن النسبي يعادل خمسين ألف سنة في الزمن التقليدي .

(اليوم النسبي الواحد = خمسون ألف سنة من الزمن التقليدي).

في عالم آخر يوم نسبي واحد يعادل ألف سنة من الزمن التقليدي (وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ) (الحج:٤٧).

(يوم نسبي واحد = ألف سنة من الزمان التقليدي).

١٢ - نهاية الكون:

يقول تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ...) (الأنبياء:١٠٤).

لقد كشف القرآن الكريم حقيقة نهاية الكون وانه ليس أبدياً والقران الكريم حافل بالآيات التي تؤكد هذه الحقيقة، ومنها ما تحدثت عنه سورة التكوير أو سورة الانشقاق أو غيرهما من السور القرآنية التي وضحت وأكدت هذا الأمر، بينما ظل علماء الغرب يتخبطون في التيه والضلال ما يقارب الثلاثة قرون حتى توصلوا إلى ان الكون سينهار في يوم ما ويزول.

وسبب تخبطهم هذا هو ابتعادهم عن النهج الوحياني المتمثل بالقران الكريم حيث ظلوا يعتقدون ان العقل أو التجربة لوحدهما قادران على اكتشاف كل شيء دون الحاجة إلى الوحي الإلهي. ولكن ما توصلت إليه دراساتهم كشفت لهم عكس ذلك تماما حيث كشفت لهم ان العقل والتجربة بمفردهما غير قادرين بل ولا يستطيعان الوصول إلى ما وراء الطبيعة دون المساعدة من قبل الوحي الإلهي (مصدر الغيب) لأنه (العقل) محدود وليس مطلقاً والتجربة ليست قادرة على الوصول إلى الما وراء، وهذا ما أكده عتاة وكبار شيوخ الإلحاد في العالم.

الخلاصة:

بعد كل ما ذكرناه نجد ان كل هذه الاكتشافات التي توصل إليها العلم الحديث جاءت متأخرة بالنسبة إلى كشف القرآن الكريم عنها، وبذلك تكون المدرسة الدينية قد سبقت المدرسة المادية في دعوة البشرية إلى دراسة الموجودات الكونية دراسة فعلية بنظامها الداخلي (الحالي او الفعلي).

نقطة احتجاج:

هنا نستطيع الاحتجاج على أبناء الإلحاد والذين يعتقدون أنهم قد استفادوا كثيرا من نظرية (تطوّر الأنواع) لداروين ، من خلال اعتقادهم ان داروين قد حل مشكلة كبيرة لهم وهي مشكلة: من الذي اوجد الكون؟ ومن هو خالقه؟ وذلك من خلال دراسته للخلية وخصائصها.

و لكن في حقيقة الأمر وواقعه لو تتبعنا ما قاله داروين في كتابه (أصل الأنواع) نجده يعترف بأن هناك موجداً وخالقاً للكون حيث يقول: وان هناك شيئا من الفخامة في هذا المنظور للحياة، بالاشتراك مع قدراتها العديدة المختلفة، في انه قد تم نفخها بواسطة الخالق[1].

بالإضافة إلى ذلك نجد أننا لو ركزنا على دراسات داروين على الخلية نجدها كلها تتحدث عن صفات الخلية الداخلية (الفعلية) وكيف تطوّرت، ولم يتكلم (داروين) عن أصل وجود الخلية ومن أين أتت؟ وهو بهذا يعترف بالنظام الحالي أو الفعلي للخلية.

ومن خلال ذلك نستنتج ان داروين قد اعترف بوجود نظامين للخلية: احدهما فاعلي من خلال مقولته (انه قد تم نفخها بواسطة الخالق) أي قد اعترف بوجود خالق للخلية، والثاني النظام الفعلي من خلال دراسته لصفات الخلية، وإذا كان هناك خالق للخلية فمن الأولى ان يكون هناك خالق للكون.

---

(١) اصل الانواع (تشارلس داروين) - ص ٧٧٧.

المحطة السابعة: الأساليب التي دعا لها الإسلام لدراسة النظام الحالي (الداخلي – الفعلي) للموجودات:



بينا ان الدين الإسلامي قد دعا الناس من خلال القرآن الكريم إلى دراسة الموجودات في الكون، ولكن يبقى السؤال: ما هي الأساليب التي اتبعها الدين لدعوة الناس إلى دراسة تلك الموجودات؟

الجواب: استخدم الدين العديد من الأساليب التي من خلالها دعا الناس إلى دراسة الموجودات وكشفها، وسنبين بعض هذه الأساليب:

الأسلوب الأول: الدعوة المباشرة للاكتشاف.

من الأساليب التي دعا بها الإسلام الناس لدراسة النظام الداخلي للموجودات هو أسلوب الدعوة المباشرة، وقد بين القرآن الكريم هذا الأسلوب من خلال شبكة آيات قرآنية، منها:

١ - يقول تعالى: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ...) (العنكبوت: ٢٠).

٢ - يقول تعالى: (قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ...) (يونس: ١٠١).

الأسلوب الثاني: القسم.

بمعنى أن الله تعالى قد يُقسم ببعض الموجودات ليُلفت أنظارنا إلى أهميتها، وبالتالي دراستها، ومنها:

١ - يقول تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) (التكوير: ١٥ - ١٦).

٢ - يقول تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) (الشمس: ١). ٣ - يقول تعالى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) (الطور: ٦).

وغيرها العديد من الشواهد القرآنية التي استخدمها القرآن الكريم كدليل على هذا الأسلوب، وهنا سؤال: لماذا استخدم الحق تعالى هذا الأسلوب للدعوة؟

الجواب: نحن نعلم جيدا ان الله تعالى عندما يُقسم فقسمه جل وعلا ليس كقسمنا -نحن البشر- فالله تعالى لا يقسم عبثا لأنه جل وعلا منزه عن العبثية، ولكنه استخدم أسلوب القسم لبيان أهمية المقسوم به والدعوة لدراسته وكشف أسراره، فنستنتج ان القسم بحد ذاته هو دعوة لدراسة نظام الموجودات الحالي وبيانها وكشف أسرارها، بالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان كلما ازداد تعمقا في دراسته للموجودات كلما عرف عظمة الخالق جل جلاله.

التفاتة:

يقول تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ) (الحاقة: ٣٨ - ٣٩).

من خلال هذه الآية المباركة يريد الحق تعالى ان يبين حقيقة مهمة وهي ان هناك أموراً خلقها الله تعالى تبصرها عين الإنسان المجردة

وهناك أموراً أخرى لا تبصرها، ومن خلال ذلك تتحفز الرغبة عند الإنسان في معرفة تلك الأمور فيبدأ بالتفكير في اختراع شيء ما يساعده على التوصل إلى تلك الأمور واكتشافها، ومن هذه الأمور التي توصل إليها العقل البشري هو اختراع الميكروسكوب وغيره العديد من الأجهزة الأخرى التي تساعده في كشف تلك الأمور التي لا تبصرها عينه المجردة.

ولكن قد يقول البعض: ان هذه الآية ناظرة إلى أمور غيبية خلقها الله تعالى.

فيُجاب: نعم قد يكون ذلك ممكنا، وعندئذ نأخذها من خلال الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام فهم المطلعون على تلك العوالم.

الأسلوب الثالث: الوصف.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا) (الحج: ٥).

تبين الآية الكريمة دقة القرآن الكريم في وصف النظام الحالي (الداخلي) للإنسان وكذلك تبين الآية كيفية تطوّر هذا النظام، ومن خلال ذلك تتبين أهمية هذا الأسلوب الذي اتخذه القرآن الكريم للدعوة لدراسة نظام الموجودات الحالي، وبالإضافة إلى ذلك يتضح

الهدف من اتخاذ القرآن الكريم هذا الأسلوب لكي يعلّم الإنسان الطريقة الصحيحة للتدرج في دراسة ومعرفة النظام الحالي لبقية الموجودات.

التفاتة:

يقول تعالى: (وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (نوح: ١٦).

لو تدبرنا جيدا في هذه الآية لوجدنا الحق تعالى يفرق فيها بين نور القمر وسراج الشمس وفي أية أخرى أيضاً يفرق فيها بين نور القمر وضياء الشمس كما في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً...) (يونس: ٥).

بعبارة أخرى: مرة عبر الحق تعالى عن نور الشمس بأنه سراج ومرة أخرى عبر عنه بأنه ضياء وعبر عن ضياء القمر بالنور؟ فما الهدف من ذلك؟

الجواب: الهدف من ذلك هو لبيان حقيقة نور القمر واختلافه عن نور الشمس أو ضيائها لان القمر في حقيقته ليس منيرا وإنما هو عاكس للنور الذي يأخذه من الشمس ويعكسه ليلا، أما الشمس فهي مصدر النور الحقيقي ولذلك وصفه تعالى بأنه مرة (ضياء) ومرة أخرى (سراج)، وقد توصل العلم الحديث إلى هذه الحقيقة مؤخرا - الفرق بين النور والضياء - ولكن كما نرى فقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أكثر من ألف سنة، ومن هنا نعرف أهمية هذا الأسلوب الذي اتخذه القرآن الكريم.

الأسلوب الرابع: الاستفهام.

يقول تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ، أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ) (الواقعة: ٥٨ - ٥٩).

يقول تعالى: (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) (الواقعة: ٦٣ - ٦٤).

يقول تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ) (الواقعة: ٦٨ - ٦٩).

يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ...) (الفرقان: ٤٥).

يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) (الفيل: ١).

وغيرها العديد من الآيات القرآنية التي بين من خلالها القرآن الكريم هذا الأسلوب، والهدف منه هو إثارة التفكير عند الإنسان ليقوده إلى التأمل في الموجودات فيبدأ بدراستها.

المحطة الثامنة: دعوة الإسلام لدراسة الموجودات بأنظمتها الثلاثة (الفاعلي والفعلي والغائي):



بعد أن بيّنّا الأساليب التي من خلالها دعا الإسلام الإنسان إلى دراسة الموجودات في الكون بكل أنواعها على مستوى نظامها الفعلي (الحالي)، نجد الإسلام لم يكتف بذلك، بل دعا الإنسان إلى الانطلاق من خلال النظام الفعلي إلى ما هو أعظم من ذلك، أي دعاه لمعرفة خالق هذه الموجودات وما هي الغاية أو الهدف من خلقها، وهذا ما نجده واضحا في قوله تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه: ٥٠)، وحيث ان هذه الآية المباركة توضح لنا الأنظمة الثلاثة التي دعا الإسلام الإنسان لدراستها والتي يقوم الكون عليها:

(ربنا الذي أعطى): تبين هذه الفقرة من الآية الكريمة النظام الفاعلي، أي الخالق الذي خلق هذه الموجودات خصوصا وهذا الكون عموما.

(كل شيء خلقه): أما هذه الفقرة فتبين النظام الفعلي (الداخلي أو الحالي) والذي يختص بدراسة خصائص الموجودات.

(ثم هدى): أما هذه الفقرة فتبين الغاية والهدف من خلق هذه الموجودات، والغاية الحقيقية من خلقها هو الرجوع إلى خالقها في يوم القيامة.

ويبقى السؤال هل هذه الدراسة تشمل جميع الموجودات في هذا الكون؟ وهل كلها أشار إليها القرآن الكريم؟

الجواب: نعم، كلها شملها القرآن الكريم بهذه الدراسة وجميعها قد أشار إليها من خلال شبكة آيات متفرقة في عموم القرآن الكريم وسنبين بعضا منها:

١ - السماوات وما تحتويه من كواكب ونجوم:

يقول تعالى: (اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) (الرعد: ٢).

من خلال هذه الآية الكريمة وضحت المدرسة الدينية كيفية خلق السماوات، فبدأت أولاً ببيان من الذي خلقها من خلال قوله تعالى (الله الذي رفع السماوات) حيث بينت نظامها الفاعلي، ثم بعد ذلك بدأت بتبيان صفاتها الداخلية وكيف رفعها الله تعالى بغير عمد كما في قوله تعالى: (...بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ...) حيث بينت نظامها الفعلي، وكذلك من الأمور المهمة التي أشارت إليها هذه الآية أنها بينت ان هذه

الموجودات خصوصا والكون عموما محكوم بقوانين منظّمة ومحكمة تديره، من خلال قوله تعالى (كل يجري لأجل مسمى يدبّر الأمر بفصّل الآيات)، وبعد ان بينت كل هذه الأمور انتقلت لتبين الغاية من خلقها وهو الرجوع إلى الله تعالى كما في قوله تعالى (لعلكم بلقاء ربكم توقنون) حيث بينت النظام الغائي.

٢ - الأرض:

يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ... وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ، وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) (الرعد: ٣ - ٥).

(وهو الذي مدّ الأرض): أشارت الآية إلى النظام الفاعلي، أي بينت خالقها وهو الله تعالى.

(وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار...، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد): أشارت الآية الكريمة هنا إلى الصفات الداخلية للأرض (خصائص الأرض)، حيث بينت نظامها الفعلي (الداخلي).

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ): اما هنا فأشارت الآية إلى الحياة بعد الموت، أي الرجوع إلى الله تعالى وهو الهدف والغاية من خلقها، حيث بينت نظامها الغائي.

٣ - الأنعام:

يقول تعالى: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ...، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً...) (النحل: ٥ - ٨) إلى قوله تعالى: (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ...) (النحل: ٢٢).

(والأنعام خلقها): إشارة إلى النظام الفاعلي من خلال الإشارة إلى خالقها.

(لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل اثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس...، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة...): إشارة إلى الخصائص أو صفات هذه الأنعام من خلال الإشارة إلى نظامها الفعلي.

(إلهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة): إشارة إلى الغاية والهدف من وراء خلقها من خلال الإشارة إلى نظامها الغائي.

٤ - الغيوم والأمطار:

يقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ... يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ... وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ... وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (النور: ٤٣ - ٤٦).

لم يقتصر القرآن الكريم على دراسة موجود دون آخر وإنما هذه الدراسة شملت جميع الموجودات فنجدها شملت حتى الغيوم والأمطار:

(ألم تر ان الله يزجي سحابا) و(والله خلق كل دابة من ماء): توضيح للنظام الفاعلي من خلال الإشارة إلى خالقها.

(ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله...، يقلب الله الليل والنهار): توضيح للنظام الفعلي من خلال تبيين خصائصها وصفاتها.

(والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم): توضيح للنظام الغائي من خلال تبيين الغاية من خلقها.

٥ - الإنسان:

ونذكر هنا آيتين:

١ - يقول تعالى: (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى...) (الحج: ٥).

من خلال هذه الآية المباركة يوضح القرآن الكريم الأنظمة الثلاثة التي خلق بها الإنسان، ففي البداية بيّن من الخالق من خلال الإشارة إليه في قوله تعالى (فإنا خلقناكم) حيث بينت النظام الفاعلي، فلابدّ من وجود فاعل أو خالق خلق الإنسان، ثم انتقلت الآية لتوضح النظام الثاني وهو النظام الفعلي من خلال تفصيل كيفية خلق الإنسان والمراحل التي مر بها من خلال قوله تعالى (خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلّقة وغير مخلّقة لنبين لك ونُقِر في الأرحام ما نشاء إلى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم).

وبعد أن بينت النظامين الفاعلي والفعلي انتقلت لتوضح الغاية والهدف من خلق الإنسان كما بينت سابقا الغاية من خلق بقية الموجودات وهو الرجوع إلى الله تعالى في يوم القيامة من خلال قوله تعالى (ومنكم من يُتوفى) حيث وضحت النظام الغائي.

٢ - يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق: ٦).

كذلك الحال مع هذه الآية فهي أيضاً تبين الأنظمة الثلاثة:

(إلى ربك): نظام فاعلي (تبيين الخالق).

(يا ايها الإنسان إنك كادح): نظام فعلي (تبيين الصفات).

(فملاقيه): نظام غائي (تبيين الغاية والهدف).

فنستنتج من خلال كل ما بينّاه أن الدين الإسلامي ذو نظرة ثلاثية لدراسة الموجودات من خلال تبيان أنظمتها الثلاثة (الفاعلي والفعلي والغائي)، فمن خلال النظام الفاعلي نعرف ان لهذه الموجودات بكافة

أنواعها وأشكالها خالقاً خلقها، ومن خلال النظام الفعلي نعرف صفات وخصائص هذه الموجودات، ومن خلال النظام الغائي نعرف الغاية والهدف من خلق هذه الموجودات.

وقد يتساءل البعض هل الدين الإسلامي لا يؤمن بوجود الأسباب والمسببات؟

فنقول: كلا، الدين الإسلامي يؤمن بوجود الأسباب والمسببات ولا ينكر وجودها أبداً، ودعوته لدراسة هذه الموجودات هي بحد ذاتها دعوة لدراسة أسبابها ومسبباتها، ومن هنا نعرف ان الدراسة الدينية هي الدراسة الصحيحة لأنها الدراسة الشاملة، بعكس غيرها من الدراسات المادّية القائمة على النظرة الأُحادية من خلال تركيزها على جانب وإهمال بقية الجوانب الأخرى.



المحطة التاسعة: الفرق بين خلق الله تعالى وصنع الإنسان:

بعد أن دعا الإسلام لدراسة الموجودات بكافة أنواعها وبيّن أنظمتها الثلاثة ودراسة تلك الأنظمة، قد يتبادر إلى الأذهان سؤالٌ مهمٌ وهو: هل هناك فرق بين خلق الله تعالى وبين صنع الإنسان؟ خاصة ونحن نرى ان الإنسان قام بصناعة العديد من الأمور؟

ولكي نجيب على هذا التساؤل لابدّ من توضيح بعض الفروق بين صنع الإنسان وبين ما خلقه الله تعالى، ولكن قبل تبيين الفروق سنطرح سؤالاً: هل ان ما صنعه الإنسان جاء به من عنده أم أنه جاء به من مادة أولية وضع من خلالها؟

فإن قال: من مادة أولية (وهو الخيار المنحصر هنا). فنقول: من الذي أوجد أو خلق تلك المادة؟

وكذلك نسأل: هل ان الإنسان يستطيع أن يركّب المواد مع بعضها البعض ويصنع منها ما يصنع من غير الاستفادة من العقل؟ فسيردُّ: بالتأكيد (كلا)، فنقول: إذن، من الذي اوجد العقل عند الإنسان لكي يركّب تلك المواد عبر موازنات دقيقة؟

ومع كل هذا سنبين بعض تلك الفروق ونذكر منها:

الفرق الأول: خلق الله تعالى يكون شاملًا.

يقول تعالى: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان: ٢).

الآية كريمة تؤكد وتبين حقيقة مهمة وهي: ان خلق الله تعالى يكون شاملًا (خلق كل شيء) أي يمكننا القول بأنه خلق كليّ، بينما صنع الإنسان يكون محدوداً فالإنسان لا يستطيع صنع كل شيء لسبب بسيط وهو ان الإنسان بحد ذاته محدود فكيف للمحدود ان يصنع كل شيء هذا بالإضافة إلى انه حتى هذا الصنع المحدود الذي صنعه الإنسان أخذه من صنع الله تعالى الكلي.

الفرق الثاني: الغاية والهدف في خلق الله تعالى.

يقول تعالى: (...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ...) (آل عمران: ١٩١).

يقول تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء: ١٦).

إنَّ خلق الله تعالى لا يكون عبثاً، إذ قد ثبت في محله أن الله تعالى منزه عن العبثية ولذلك فخلقه جل وعلا يكون لغاية وحكمة، وهي إيصال الخلق إلى مرحلة الكمال الممكن لهم، فمثلا عندما يبين الحق تعالى الغاية من خلق الجن والإنس يوضح أنها العبادة كما في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)، ولكن العبادة ليست هي الهدف أو الغاية النهائية من خلق الجن

والإنس، وإنما العبادة تكون وسيلة للوصول إلى الغاية الحقيقية ، وهي الكمال، والذي أكده قوله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) (الحجر: ٩٩) واليقين المقصود به في الآية الكريمة هو الموت أي الرجوع إلى الله تعالى في المعاد.

فالعبادة هي كمال وجودي، بها يتكامل الإنسان ليصل إلى مرتبة الرضا الإلهي، وهذا الهدف غير نهائي، لأن المقصود منه غير نهائي.

بينما صنع الإنسان في كثير من الأحيان يخلو ويفتقد الغاية والهدف، بل في بعض الأحيان يكون لمجرد اللهو واللعب.

الفرق الثالث: الدقّة في خلق الله تعالى.

يقول تعالى: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (القمر: ٤٩).

نظام الخلق عند الله تعالى هو نظام محكم ومنظم بشكل دقيق بحيث لا نرى فيه الزيادة أو النقصان كما يعبر الحق تعالى (بالحق) ولكي نفهم هذا الأمر بشكل أوضح نأخذ المثال التالي:

مثلا غاز الأوكسجين الذي هو نسمة الحياة بالنسبة للإنسان والحيوان، نجد من خلال حكمة الله تعالى ودقته في الخلق أنْ جعل هذا الغاز -ذا النشاط الفعال- مفردا في الهواء من غير ان يتحد مع بقية الغازات الأخرى، لأنه لو اتحد مع بقية الغازات لحدث ما حدث من كوارث في هذا الكون.

وكذلك نجد الدقة في خلق الله تعالى حيث جعل نسبته مقدرة بـ(٢١٪) فلو زادت هذه النسبة عن حدها بمقدار قليل لأصبح كل شيء في الكون معرضاً للاحتراق بمجرد ان تصيبه ولو شرارة بسيطة، لأن

هذا الغاز مما يُساعد على الاشتعال، وكذلك لو قلّت هذه النسبة بمقدار معين لحدث اختناق للإنسان والحيوان ولم يكن هناك ذكر للحياة على سطح الأرض.

ولذلك قلنا: ان قانون الخلق عند الله تعالى يكون محكوماً بقوانين منظمة، بعكس قانون صنع الإنسان، الذي لا يخلو من الخطأ في كثير من الأحيان من خلال الزيادة أو النقصان، وهذا يعود إلى نقص عقل الإنسان وقدرته المحدودة.

الفرق الرابع: عدم غفلة الله تعالى عن مخلوقاته.

يقول تعالى: (...وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ) (المؤمنون: ١٧).

ان كل شيء خلقه الله تعالى هو خاضع لمراقبته جل وعلا فلا شيء يفلت من قبضته كما يبين ذلك قوله تعالى (...لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (سبأ: ٣)، وهذا الشيء لا ينطبق على الإنسان فالإنسان عندما يصنع شيئاً ما ويبدأ بنشره وتسويقه فإنه لا يخضع بعد ذلك لمراقبته، بل حتى وان راقبه فمراقبته له لا تكون بصورة دائمة وإنما تكون لفترة محدودة وتنتهي.

الفرق الخامس: الله تعالى لا يصيبه التعب عند خلقه الخلق.

يقول تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) (ق: ٣٨).

الآية الكريمة تبين ان الله تعالى عندما خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما وما عليهما، فإنه تعالى لم يصبه التعب كما عبرت عنه الآية بـ(اللغوب)، بعكس الإنسان الذي يصيبه التعب والعناء لأبسط الأمور، ولهذا نرى هناك تقسيماً في اوقات العمل، فكل انسان له وقت محدد ومعين يعمل فيه بالإضافة إلى أن لكل انسان عمله المختص به فلا يستطيع انسان واحد ان يدير كل الأعمال.

الفرق السادس: خلق الله تعالى يكون على مرتبة واحدة.

يقول تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون: ١٤).

من الفوارق المهمة بين خلق الله تعالى وبين صنع الإنسان هو ان خلق الله تعالى يكون على مرتبة واحدة وهي مرتبة الأحسن وهذه المرتبة تشمل كل شيء، أي:

١ - على مستوى الخلق:

يقول تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ).

٢ - على مستوى القصص:

يقول تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...) (يوسف: ٣).

٣ - على مستوى الحديث:

يقول تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ...) (الزمر: ٢٣).

٤ - على مستوى الأسماء الحسنى:

يقول تعالى: (وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى...) (الأعراف: ١٨٠)[١].

إذن، نستنتج ان الله تعالى عندما خلق المخلوقات جميعها خلقها وفق النظام الأحسن وهو ما يعبر عنه في مشرب من المشارب الفكرية بقاعدة (ليس بالإمكان أفضل مما كان)، أي ان الله لمّا خلق الأشياء خلقها بأحسن صورها وهو ما يؤكده قوله تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين: ٧) وليس للإنسان او غيره القابلية على ان يكون بأفضل مما خلقه الله تعالى عليه، وهذا ليس لأن الله غير قادر - حاشا لله - بل لأن المخلوقات غير قابلة أي إن العجز في المخلوقات وليس في الله تعالى.

ولعل البعض هنا يسأل سؤالا: إذا كان الله تعالى خلق كل شيء وفق نظام الأحسن فلماذا خلق الله إبليس وهو شر كله؟ أي أين الخلق الأحسن في هذا؟

الجواب: حتى إبليس لما خلقه الله تعالى خلقه وفق هذا النظام، والدليل انه عبد الله تعالى ستة آلاف سنة كما ورد في الأثر، ولكنه بعد ذلك انحرف عن الطريق المستقيم فاختار لنفسه طريق الشر.[٢]

---

(١) **أقول:** ومن هنا نفهم معنى قول الامام الهادي عليه السلام في زيارة الجامعة الكبيرة (فما احلى اسماءكم)، أي انهم (سلام الله عليهم اجمعين) لهم احلى الاسماء لان اسماءهم مشتقة من اسماء الله جل جلاله.

(٢) إن الله تعالى خلق الموجودات كلها لأجل غاية معينة، وغاية الموجودات المريدة المختارة هي أن تصل إلى كمالها الممكن لها بحسب ما تبذله من جهد وما تريده من أفعال، بشرط أن يصدر ذلك الجهد بمحض إرادتها، لا بجبر من الله تعالى، وبالتالي، فإن الشيطان خُلق حاله حال بقية الكائنات المختارة ليصل إلى كماله، ولكنه أبى –بإرادته– وأراد الضلال، وهذا لا ينافي إرادة الله تعالى التشريعية في إيصاله إلى الكمال، كما لا ينافيها ضلال كثير من بني آدم.

ولأن الله تعالى خلق كل شيء وفق النظام الأحسن فلم يخلق الله المخلوقات مجبرة (وقد بينا ذلك بالتفصيل)، فحتى الملائكة هناك بعض النظريات تؤكد أنهم مختارون وليسوا مجبرين ودليلهم على صحة ما يقولونه هو ان هناك ملائكة، وهناك ملائكة مقربين كما جاء في قوله تعالى: (الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) (النساء: ١٧٢) فهؤلاء صاروا مقربين لأنهم عرفوا الله أكثر من غيرهم من الملائكة فعبدوه أكثر، ونتيجة ذلك وصلوا إلى مقام القرب الإلهي.

الفرق السابع: خلق الله تعالى يهتدي لكماله.

يقول تعالى: (قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) **(طه:٥٠)**.

إن الله تعالى عندما يخلق الأشياء يجعل لها في ذات الوقت طريقا تهتدي من خلاله لكمالها، فالله عندما خلق النباتات جعل لها ما تهتدي من خلاله إلى كمالها من خلال النظم الطبيعية التكوينية، وكذلك الحال مع الحيوانات حيث جعل لها الغرائز والتي من خلالها تهتدي إلى طرق كمالها، وكذلك الحال مع الإنسان حيث ميزه تعالى عن بقية المخلوقات بالعقل، وجعله -من خلال العقل- يهتدي لطريق كماله.

أما صنع الإنسان، فالإنسان عندما يصنع لا يفكر في هذه الأمور، وحتى عندما يفكر فهو يفكر في صنع جديد يختلف عن الصنع الأول، ويصنفه على مراحل بينما خلق الله تعالى هو بذاته يسير لكماله.

الفرق الثامن: خلق الله تعالى يعود إليه.

يقول تعالى: (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) **(البقرة: ١٥٦)**.

كل شيء خلقه الله تعالى لابدّ أن يعود إليه في يوم القيامة، أما صنع الإنسان فلا يعود إليه مطلقاً.

إذن، بعد كل ما ذكرناه يتضح الفرق بين خلق الله تعالى وبين صنع الإنسان المأخوذ أساسا من خلق الله، ولذلك ينبغي على الإنسان ان يعرف حجمه ومن الذي خلقه وأوجده وماذا يشكل في هذا الكون الفسيح الواسع، وعليه ان يخضع لربه منيبا إليه ولا يبارزه بالمعاصي وبإنكار فضله عليه.



المحطة العاشرة: مفهوم الدين:



سنبين ما هو مفهوم الدين من خلال عدة خطوات:

الخطوة الأولى: ما هو الدين؟

الدين: مصطلح يطلق على مجموعة من الأفكار والعقائد التي تهدف إلى بيان الغاية من الحياة والكون، وهو دائماً ما يكون مرتبطًا بما وراء الطبيعة، وله قوانين وقضايا ثابتة يلزم على معتنقيه الالتزام بها. وله مواصفات وحدود واضحة يلزم توفرها فيه ليكتسب عنوان الدين حقيقة.

ولكن السؤال: ما هي هذه المواصفات التي إذا اتصف بها الدين صار ديناً حقيقياً؟

الجواب: المواصفات هي:

١ - أن يكون الدين سماويا إلهيا وليس بشريا وضعياً.

٢ - أن يكون الدين فيه منظومة معرفية يُمكن أن تدل عليها الفطرة والعقل، بأدلة قطعية لا تقبل التشكيك، (كالتوحيد وإثبات وجود الله

تعالى)، ولكن هذا النظام المعرفي لا يكون كاملا إلا إذا توفرت فيه الأقسام التالية:

أولا: أن تكون فيه قضايا فلسفية عقلية (كإثبات وجود الله تعالى).

ثانيا: أن تكون فيه معلومات الأمور الطبيعية وأخرى غير طبيعية (تجريبية).

ثالثا: أن تكون فيه الحقائق التاريخية (كقصص الأنبياء).

رابعا: أن تكون فيه المعارف القلبية (الشهودية) (كالتقوى وإصلاح النفس والجهاد وغيرها).

خامسا: أن تكون فيه سنن إلهية

وبالإضافة إلى النظام المعرفي يجب أن يكون في الدين نظام قيمي (إنشائي) وهذا النظام يتمثل من خلال القيام بالأعمال (كإقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة) أو الأخلاق (كعدم التكبر وغيرها).

٣ - أن يكون فيه نص مقدس سماوي بعيدا عن التحريف (من خلال الزيادة والنقصان).

٤ - أن يكون هادياً للبشر.

ولو طبقنا هذه المواصفات الأربعة على الديانات أو الشرائع الموجودة في وقتنا الحاضر بكافة أنواعها نجدها لا تنطبق إلا على الدين الإسلامي فهو سماوي الهي وفيه منظومة متكاملة (معرفية وقيمية) ويحمل نصا سماويا غير محرف وهو يهدي إلى طريق الحق.

وقد يسأل البعض: هل هذه المواصفات كانت غير مجتمعة في الديانات والشرائع حتى في زمن بعثة الأنبياء؟

فنقول: كلا، في زمن الأنبياء كانت هذه المواصفات مجتمعة وكانت الديانات والشرائع صحيحة ولكنها حُرفت فيما بعد فأصبحت هذه المواصفات غير مجتمعة ولذلك نحن قلنا في زمننا الحاضر وليس سابقا.

الخطوة الثانية: أقسام التدين.

ينقسم التدين إلى قسمين:

القسم الأول: التدين غير المستدل:

وهذا النوع من التدين يؤخذ من التقليد، أي كالإنسان الذي يولد داخل بيئة متدينة فيأخذ دينه من تلك البيئة، ولكن السؤال الذي يطرح: هل كل من يولد في بيئة متدينة يكون متدينا؟

نقول: كلا، فهناك الكثيرون ممن ولدوا في بيئات متدينة ولكنهم أصبحوا فيما بعد من المنحرفين وغير المتدينين، ولكن تبقى هذه الحالة لا تشكل ظاهرة عامة، وإنما هي حالات شاذة منفردة ولذلك نحن عندما نريد ان نرتب أثراً ما على ظاهرة معينة نرتبه على الحالات العامة وليس على الحالات المنفردة الشاذة.

التفاتة:

نحن نريد التركيز على حقيقة مهمة وهي: ليس كل ما ورد عن الآباء والأمهات فهو صحيح، بل إن الكثير من انحرافات الناس سابقاً كانت بسبب الإتباع الخاطئ لدين الآباء والأجداد، ولذلك فإن الأنبياء والرسل عندما بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم ودعوهم إلى التوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، كان ردهم جميعاً هو أننا لا نترك ما وجدنا عليه آباؤنا وأجدادنا، كما يوضح ذلك قوله تعالى: (بَلْ

قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) (الزخرف:٢٢)، ونجد أيضاً ان القرآن الكريم عاب عليهم هذا الأمر بل ويتعجب القرآن من جوابهم وكأنهم كانوا قد تواصوا جميعا بهذا الجواب كما في قوله تعالى: (أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (الذاريات: ٥٣)، ولذلك نجدهم ظلوا على ضلالهم وانحرافهم والسبب في ذلك هو أتباعهم الخاطئ لآبائهم الذين كانوا في الأساس أصحاب عقيدة منحرفة وضالة.

ولهذا نجد ان الدين الإسلامي بالرغم من انه دين اليقين ولكنه لا يمنع من وجود الشك بشكل مطلق، ويدعو إلى أن يكون الشك منهجيًا لا عبثيًا، بمعنى أن يكون الشك منطلقًا للمؤمن للبحث عن الحقيقة إلى أن يصل إليها بالقطع واليقين، فينفي عن نفسه الشك. فإذا كانت عقيدة الآباء أو الأمهات أو حتى البيئة التي ولد فيها الإنسان عقيدة غير صحيحة فهنا على الإنسان ان يحقّق ويبحث إلى أن يصل إلى الحقيقة بالقطع واليقين الذي لا يبقى معه أي شك، ولكن بالمقابل إذا كانت عقيدة الآباء أو الأمهات أو البيئة عقيدة صحيحة فلا إشكال في ذلك.

القسم الثاني: التدين المبرهن والمستدل عليه.

أصحاب هذا القسم من التدين لم يكتفوا بالبيئة المحيطة المتدينة التي ولدوا فيها وإنما قاموا بالبحث عن الدين الصحيح والاستدلال عليه بالأدلة والبراهين لكي تترسخ العقيدة الحقة داخلهم، وهذا النوع من التدين هو الأفضل –بل اللازم تحصيله– بالتأكيد، لان الأول قائم

على التقليد أما الثاني فهو قائم على البحث عن العقيدة الصحيحة والاستدلال عليها من خلال الأدلة الصحيحة.

الخطوة الثالثة: أقسام المتدينين.

بعد ان بينا ما هو الدين وعرفنا أيضاً أقسامه، نأتي الان على معرفة ما هي أقسام المتدينين:

القسم الأول: متدين حريص على دينه.

في هذا القسم يكون المتدين حريصاً على دينه من خلال شعوره بالمسؤولية اتجاه دينه.

القسم الثاني: متدين أناني ولو على حساب دينه.

والقسم الأول أفضل بكثير من القسم الثاني، حيث ان صاحب القسم الأول لحرصه على دينه فهو يعمل جاهدا ليقوي إيمانه ويصبح عنصرا فعّالا في مجتمعه، أما القسم الثاني فجلّ اهتمامه نفسه فقط ولا علاقة له بما يجري حوله من أحداث.

ولهذا السبب نجد ان علماء الأخلاق يقسمون التقوى على أساس ذلك إلى قسمين، وهما:

الأول: تقوى فاعلة.

فالمتقي بهذا النوع من التقوى يكون عنصرا فعّالا ومؤثراً في المجتمع فحتى ان كان المجتمع يعاني الكثير من الأخطاء ومظاهر الانحراف فهو يحاول جاهدا أن يغير ويصحّح تلك المظاهر وذلك الانحراف قدر استطاعته، وذلك يكون من خلال تنبيه الناس ودعوتهم إلى الرجوع

إلى الله تبارك وتعالى ولا يقتصر في دعوته على السلوك في طريق واحد، بل يستخدم لدعوته أنواعا مختلفة من الوسائل.

الثاني: تقوى خاملة.

اما المتقي بهذا النوع من التقوى فيكون غير قادر على التغيير وتصحيح الانحراف في مجتمعه ولأنه غير قادر على ذلك، نجده في اغلب الأحيان يلتزم داره مبررا ذلك بأنه يبغي الحفاظ على دينه.

وبكل تأكيد فإن القسم الأول أفضل بكثير من القسم الثاني، لان الإنسان في القسم الأول يكون عاملا بصورة جديّة ومحاولا قدر استطاعته التأثير في المجتمع متوكلا في ذلك على الله تبارك وتعالى، جعلنا الله وإياكم من المتقين بالتقوى الفاعلة المؤثرة ووفقنا لما يحبه ويرضاه انه سميع مجيب.

الخطوة الرابعة: ما يتوقعه الناس من الدين؟

الطموح شيء لابدّ منه في حياة الإنسان ، وواحد من أهم مطامح الناس هو أنهم يتوقعون من الدين شيئا، لكن هذا التوقع يقع على مراتب ثلاث، وهي:

المرتبة الأولى: توقع عالٍ (بأقصى درجاته).

يتوقع البعض ان تفاصيل كل شيء (من علوم وغيرها) موجودة في القرآن الكريم أو في منظومة الدين بشكل عام ودليلهم على توقعهم هذا هو قوله تعالى: (...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...) (النحل: ٨٩)، ولكن المفسرين انقسموا حول صحة هذا التوقع إلى قسمين:

القسم الأول: مفسرون قالوا ان هذا التوقع غير صحيح وان القرآن هو كتاب هداية فقط والآية مختصة بكل ماله علاقة بالهداية وهو ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي في ميزانه حيث يقول:

﴿وإذ كان كتاب هداية لعامة الناس وذلك شأنه كان الظاهر ان المراد بكل شيء كل ما يرجع إلى أمر الهداية مما يحتاج إليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقية...، ومن صفته الخاصة أي المتعلقة بالمسلمين الذين يسلمون للحق انه هدى يهتدون به إلى مستقيم الصراط...﴾[1].

القسم الثاني: أما القسم الآخر من المفسرين فقد دعموا هذا التوقع قائلين: نعم ان في القرآن أو المنظومة الدينية تبيان كل شيء، وعلى كل المستويات والمجالات، ولكن كل هذا موجود في صدر المعصوم فقط وإذا ظهر المعصوم سيبين كل شيء، والقران دعم هذا الاعتقاد بقوله تعالى: (...وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...) (آل عمران: ٧)، وقوله تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...) (العنكبوت: ٤٩)، وقوله تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا...) (فاطر: ٣٢). وقوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) (الواقعة: ٧٧-٧٩).

المرتبة الثانية: توقع أدنى.

وقسم من الناس اعتبروا ان الدين عبارة عن عبادة وتنفل فقط، فاقتصروا على الصلاة والصيام وغيرها من الأمور، وفي الواقع هذا

---

(١) الميزان في تفسير القران: ج(١٢) - ص ٣٢٤ - ٣٢٥.

الاعتقاد غير صحيح وهو يسقط أمام شبكة آيات القرآن الكريم ونظرياته فالدين دين علم وعمل وحركة كما يقول تعالى: (وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...) (التوبة: ١٠٥)، وقد بيّن رأيه الحق في كل المجالات (النفس والاجتماع والتاريخ) وغيرها من المجالات العلمية والعملية.

المرتبة الثالثة: التوقع المعتدل (المتوسط).

أصحاب هذه المرتبة يتوقعون ان أصول كل شيء موجودة في القرآن الكريم ولذلك قالوا: بما اننا الان نعيش في زمن الغيبة فلذلك علينا ان نعمل على هذه الأصول ونستخرج منها التفريعات وعند ظهور الإمام (عجل الله تعالى فرجه) سوف يُظهر بقية العلوم وتفاصيلها.



المحطة الحادية عشرة: الأساليب القرآنية لبيان السنن التاريخية:

نحن ذكرنا سابقا ان الدين لكي يكون فيه نظام معرفي متكامل، فإنه لابدّ ان يحتوي على سنن إلهية، ومن هذه السنن هي السنن التاريخية، والقران الكريم يبين هذه السنن الإلهية التي تحكم الكون بأساليب مختلفة، منها:

الأسلوب الأول: إعطاء فكرة على مستوى القضية الكليّة (العامة).

وفي هذا المجال نذكر ثلاث آيات:

١ - يقول تعالى: (...لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...) (الأعراف: ٣٤).

الأجل المقصود به في الآية الكريمة هو الموت، والموت قد يصيب في بعض الأحيان الأفراد كما في قوله تعالى: (...إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...) (النساء: ١٨)، وأحيانا أخرى يصيب الجماعات أو الأمة بأكملها كما في قوله تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا

لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا) (الكهف: ٥٩)، فالآية تبين ان الموت هنا لم يصب فرداً بعينه وإنما أصاب كل القرى.

وقد يسأل البعض: هل ان كل أفراد القرى كانوا ظالمين ولذلك كان الهلاك جماعيا؟

فنقول: لا، ولكن الهلاك عمّ الجميع لأنهم رضوا بفعل الظالمين وداهنوهم ولم يؤدوا دورهم في النهي عن المنكر فأصابهم الهلاك، وهو ما يعرف بـ(قانون أو سنّة التعميم).

ولكن نزول العذاب لم يكن عشوائيا إنما كان محكوما بقانون، أي ان العذاب لم يأت فجأة، ولكن حين اكتملت جميع حلقات العذاب نزل العذاب، ولو تدبرنا في الآية المتقدمة لوجدنا قوله تعالى: (...لَمَّا ظَلَمُوا...) أي عندما اكتملت جميع حلقات الظلم أهلكهم الله تعالى.

وبذلك نصل إلى حقيقة مهمة وهي: ان السنن الإلهية (كالعذاب وغيرها) عندما تنزل على الأمم وتهلكها فلا يكون نزولها صدفة، وإنما بعد ان تكتمل جميع حلقات القانون أو السنّة الإلهية يحل العقاب، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل: ٦١)، هنا الآية توضح جيدا وتؤكد ما قلناه سابقا، حيث تبين ان العذاب لو كان ينزل على الأمم بدون استكمال كل حلقاته، لما رأينا الحياة على سطح الأرض، ولما كان احد باقياً تماما، ولكن الله تعالى يؤخرهم إلى وقت معين، وهذا الوقت يتعين عندما يتحقق اكتمال جميع حلقات العذاب، فحينذاك لا يتأخر العذاب ساعة ولا يتقدم، وإنما يكون

حتمي النزول في الوقت المحدد له، وخير شاهد ودليل على قولنا هذا هم بنو أميّة، فهؤلاء قبل قتلهم الإمام الحسين عليه السلام كانوا ظلمة وعاثوا في الأرض فسادا ولكن رغم ذلك لم ينزل عليهم العذاب وإنما نزل العذاب عندما استكملت حلقاته بقتلهم الإمام الحسين عليه السلام وكذلك قتلهم زيد الشهيد (رضي الله عنه) فبمجرد أن تم قتلهم حلّ عليهم العذاب، وهذا ما تؤكده الروايات الواردة:

فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ان الله عز ذكره أذن في هلاك بني أمية بعد إحراقهم زيد بسبعة أيام[1].

وتوضح سورة الكوثر هذا المعنى أيضاً حيث يقول تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ، إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) فرب العزة وعد نبيه صلى الله عليه وآله بأن مبغضيك يا محمد ستكون ذريتهم منقطعة حتى وان كانت موجودة في زمانك ولكن سيأتي عليها زمن تنقطع فيه، وستكون أنت صاحب الذرية الصالحة، وأنت وذريتك سترثون الأرض ومن عليها (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) (النور: ٥٥).

٢ - يقول تعالى: (وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً {٧٦/١٧} سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً) (الإسراء: ٧٦ - ٧٧).

(١) الكافي: ج(٨) - ص ١٦١، ح(١٦٥)، ويعلق الشيخ الكليني في حاشية الكتاب حيث يقول (لعل هذا العمل كان من متممات اسباب نزول النقمة والعذاب عليهم وإلا فهم فعلوا اشد واقبح من ذلك).

الآية الكريمة دليل قراني آخر على ان العذاب لا ينزل إلا إذا اكتملت كل فصول وحلقات العذاب ومراحله، الآية تتحدث عن قريش، فعلى الرغم من أفعالهم السيئة اتجاه النبي ﷺ واتهامهم له بالتكذيب والبهتان والسحر إلا أن العذاب لم ينزل عليهم، ولكن بمجرد ان اخرجوا النبي ﷺ من مكة نزل العذاب، حيث بدأت تجارتهم تضعف بالإضافة إلى ان رب العالمين ابتلاهم بنقص الأموال والأولاد حتى هلكوا، وبعد ذلك أرجع الله تعالى رسوله الكريم ﷺ إلى مكة فاتحا منتصرا، وهذا الأمر لم يحدث فقط مع قريش، وإنما هي سنّة إلهية شملت جميع أقوام الأنبياء الذين اخرجوا أنبياءهم وخذلوهم، فبمجرد طردهم لأنبيائهم يحل عليهم العذاب وهذا هو ذات المعنى الذي أكدته الآية (سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا...).

أقول:

ومن خلال هذه السنن والقوانين الإلهية نستطيع الرد على من يقول: ما هي الأسباب التي تمنع الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه) من الظهور؟

فنقول: ان ظهور الإمام محكوم بسنن وقوانين لم تكتمل بعد، وما ان تكتمل سيأذن الله تعالى بخروجه، اللهم عجل لوليك الفرج واجعلنا من أنصاره وأعوانه انك أنت ارحم الراحمين.

٣ - يقول تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ، اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (فاطر: ٤٢ - ٤٣).

وأيضاً هنا الآية الكريمة تمثل دليلا آخر على ان الذي لا يعتبر بالسنن الإلهية التي جرت على الأمم السابقة فإن مصيره سيكون كمصير تلك الأمم، فالآية تبين حال امة من الأمم السابقة الذين كانوا يقسمون إن جاءهم رسول سيكونوا أفضل من الأمم التي سبقتهم، ولكن ما حصل كان على العكس تماما مما قالوه، فبعد ان جاءهم الرسول كذبوه وطردوه، فصاروا أسوء من الأمم التي سبقتهم ونزل عليهم العذاب، وهذه هي السنن الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول.

التفاتتان:

التفاتة (١):

عندما بحثنا في القرآن الكريم وجدنا ان السنن الإلهية تكون على أنواع، وهي:

١ - سنّة إلهية مطلقة، أي غير محكومة لسنة أخرى.

كسنة الموت، فهذه السنّة حتى وان صار فيها تأخير أو تقديم ولكن الارتفاع النهائي لهذه السنّة غير ممكن لأنها من السنن الحتمية الوقوع التي لا تتبدل ولا تتغير - وقد بينا ذلك مفصلا في كتابنا المعاد من هدي القرآن والعترة-.

٢ - سنّة محكومة بسنّة أخرى.

كسنّة القضاء والدعاء، فالدعاء يرد القضاء وان تحتّم نزول القضاء وهذا ما أكدته الروايات الشريفة:

فعن صفوان، عن بسطام الزيات، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: ان الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد ابرم إبراما[1].

وعن أبي همام إسماعيل بن همام، عن الرضا عليه السلام، قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: ان الدعاء والبلاء ليترافقان إلى يوم القيامة، ان الدعاء ليرد البلاء وقد ابرم إبراما[2].

وكذلك النصوص القرآنية أكدت هذا الأمر وهو قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الأنفال: ٣٣).

التفاتة (٢):

في الآية الكريمة أعلاه أمانان لرد العذاب:

١ - وجود النبي صلى الله عليه وآله: فبركة وجوده صلى الله عليه وآله ترفع العذاب.

٢ - الاستغفار.

فمن خلال هذين الأمانين توقفت السنة الإلهية بنزول العذاب، وهو رد لمن يسأل: لماذا لم ينزل العذاب على امة النبي صلى الله عليه وآله كما حدث مع الأمم السابقة؟ حيث نجد الجواب في الآية أعلاه كما بيناه.

---

(١) الكافي: ج(٢) - ص ٤٦٩، ح(٣).

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٦٩، ح(٤).

الأسلوب الثاني: استعراض قراني سردي لما جرى على الأمم السابقة.

من خلال هذا الأسلوب نستطيع استعراض القوانين التي تفيدنا في الحاضر والمستقبل، من خلال التالي:

١ - يقول تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ) (البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥).

الآية الكريمة كما نعلم هي من الآيات التي توضح حال المنافقين (والمنافق: هو الذي يظهر خلاف ما يبطن) وتبين أن للحقد والشر الذي يضمره ويحمله القلب الفاسد الذي يحمله المنافق أثراً مباشراً على الخارج بحيث إنه يؤدي إلى حرق الحرث والنسل كما عبرت الآية، ولذلك فإن احد القوانين التي نستخلصها هو قانون (**صناعة الداخل تؤثر في صناعة الخارج**).

وسنبين هذا القانون بصورة أوضح من خلال مصاديق قرآنية أخرى تأتي تباعاً.

٢ - يقول تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ...) (الأعراف: ٩٦).

لو دققنا النظر في الآية الكريمة لوجدنا قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ...) خاطب الذين (امنوا) ولم تقل الآية (اسلموا) مما يعني ان هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام، ولكن ما هو هذا الفرق؟

الجواب: لكي يكون الإنسان مسلماً فما عليه إلا ان يردد الشهادتين بلسانه، فبمجرد ان ينطق الشهادتين يُصبح مسلماً، أما إذا أراد أن يكون مؤمنا فعليه أن يكمل ثلاث مراحل ليكون بعد ذلك مؤمنا وهذه المراحل تتمثل بالتالي:

١ - الإقرار باللسان ويكون من خلال نطق الشهادتين.

٢ - العمل بالأركان من خلال القيام بالواجبات (كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها من الأركان الأخرى).

٣ - الإقرار بالقلب ويكون من خلال التقوى. فالتقوى أمر داخلي (قلبي) وبعد ان يُتِمَّ تلك المراحل الثلاثة بنجاح يصبح الإنسان مؤمنا.

وبالتالي نفهم لماذا قالت الآية (امنوا واتقوا)، إذ من خلال التقوى صلُحت دواخلهم وطهُرت ففتح الله عليهم بركات السماء والأرض، أي لمّا صلح الداخل صلح الخارج، ولذلك قلنا: إن صناعة الداخل تؤثر في صناعة الخارج.

وهنا نستطيع الرد على من يقول: إذا كان الله تعالى كله خيراً فكيف خلق الشر؟

فنرد: ان الشر الذي نراه من حولنا لم يخلقه الله تعالى ، فهو أمر عدمي، وهو من لوازم المعاصي والذنوب، فحين أصبحت الدواخل فاسدة انتشر الفساد والشر في الخارج، وهذه هي طبيعة السنن والقوانين الإلهية، بعضها مرتبط ببعض، فإن كان داخل الإنسان يحمل الخير والتقوى فإنّ ذلك سينعكس على المحيط الخارجي متمثلا

بنزول البركات والخير، وان كان داخل الإنسان يحمل الفساد والشر انعكس ذلك أيضاً على ما يحيطه بالخارج فينتشر الفساد.

شبهة:

قد يورد البعض هنا شبهة حول هذا القانون مفادها:

إذا كان للداخل كل هذا التأثير الكبير على الخارج، فكيف نرى كثيراً من الدول متطورة ويعيش شعبها في رفاهية ويسر رغم أن دواخل شعوبها غير صالحة؟

الجواب: نجده في قوله تعالى: (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) (الأنعام: ٤٤).

أي إن بعض الأقوام عندما ينسون ذكر الله تعالى وما ذكّر به الأنبياء من المفاهيم والقيم، التي هي موجودة في فطرهم، فهذا يعني أن دواخلهم قد أصبحت فاسدة ولكن بالرغم من هذا فان الله تعالى ينزل عليهم الخير، ولكن لو تأملنا نهاية الآية لوجدنا قوله تعالى: (...حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) وهذا يعني أنه حتى وان فتح الله تعالى عليهم أبواب الخير ولكن في الحقيقة هو فتح استدراج وليس فتح خير دائم كما يظن البعض.

ولو قارنّا بين الآيتين لفهمنا المعنى جيدًا حيث الآية في سورة الأنعام تقول (...فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ...) أي (من أنواع النعم ، امتحانا لهم بالصحّة والتوسعة بعد السقم والنقم ، إلزاما للحجّة وإزاحة للعلّة ، كما يفعل الوالد البارّ بولده العاقّ المخاشنة

تارة والملاطفة أخرى ، لصلاحه)[1] بينما الآية في سورة الأعراف تقول: (...لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ...) التي تعني: (لو سعنا عليهم الخيرات ويسرناها لهم من كل جانب ، بإنزال المطر وإخراج النبات وغير ذلك)[2] وهنا تتجلى عظمة إعجاز القرآن الكريم في توضيح المعاني القرآنية وتبيانها بصورة واضحة. فإن فتح البركات على المؤمنين لأجل التوسعة عليهم، أما غيرهم فقد تفتح لهم أبواب كل شيء لكن من دون بركة ومنفعة، وإنما لأجل الاختبار.

٣ - يقول تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ...) (الأنفال: ٥٣).

وهذه الآية هي من الآيات التي توضح القانون المتقدم، حيث نرى من خلال سياق الآية ان فيها وعداً إلهياً بأن الله لا يغير الخارج إلا إذا تغير الداخل، بل نجد ان الله تعالى قد ربط بين النعمة وبين داخل الإنسان، فإن فسد داخله تغيرت النعمة، وإن استقام داخله استقامت النعمة، ولذلك فدائما على الإنسان ان يكون ملتفتا لهذه الحقيقة المهمة، وأن يحافظ على استقامة داخله لتستقيم نعم الله تعالى عليه.

ونفهم من خلال هذا القانون أيضاً أنه لماذا أمر الإسلام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث ان هناك البعض ممن يطلقون على أنفسهم تسميات (كالحداثويين او التنويريين او غيرها) يعترضون على ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويعتبرونها نوعاً من أنواع

---

(١) زبدة التفاسير للكاشاني ج٢ ص٣٩١.

(٢) التفسير الأصفى للكاشاني ج١ ص٣٨٩.

التدخل في حياة الإنسان، ولكن في حقيقة الأمر وواقعه أن هؤلاء لا يفهمون القانون الإلهي جيدا، فالله تعالى جعل جزءً من القوانين التي تحكم هذا الكون مرتبطة بداخل الإنسان مباشرة، وكما قلنا سابقا: كلما صلح داخل الإنسان صلح ما يحيط به والعكس صحيح.

هذا بالإضافة إلى ان البلاء الذي يأتي نتيجة الفساد لا يطال الإنسان الفاسد فقط وإنما يعمّ الجميع، لذلك شرّع الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل وأوجبهما، وهذا التشريع جاء لدرء الخطر من ان يعمّ الجميع وليس كما يعتقد هؤلاء انه تدخل في الحياة الخاصة.

ومن هنا نفهم معنى قول الرسول ﷺ: (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1]، وكيف ان الرسول ﷺ أناط المسؤولية بالجميع وليس لفرد دون آخر.

٤ - يقول تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء: ١٦).

في الآية الكريمة إشارة صريحة إلى القانون الذي ذكرناه سابقاً (صناعة الداخل تؤثر في صناعة الخارج)، حيث ان في الآية أمر (أمرنا مترفيها) ومتعلق الأمر مقدر أي (أمرناهم بالطاعة) لان الله تعالى لا يأمر بالجور والفسق - حاشا لله - ولمّا أمرهم بالطاعة وخالفوا الأمر الإلهي (ففسقوا) أي فسدت دواخلهم فحل عليهم العذاب والغضب الإلهي.

---

(١) عوالي اللئالي لابن أبي جمهور ج١ ص ١٢٨.

٥ - يقول تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ ، يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ...) (المائدة: ٦٦ - ٦٨).

الآية تتحدث عن اليهود والنصارى وكيف تحقق معهم القانون الإلهي وذلك لأنهم لم يعملوا بما جاء في التوراة والإنجيل، ولكن لو تأملنا جيداً في الآية الكريمة لوجدنا قوله تعالى: (وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ) والسؤال الذي يطرح هنا: ما هو الشيء الذي نزّل على اليهود والنصارى غير التوراة والإنجيل وجعله الباري عز وجل شرطاً أن لو استقاموا عليه وبالإضافة إلى عملهم بما جاء في التوراة والإنجيل لنزلت عليهم البركات؟

الجواب: الشيء الذي جعله الله تعالى شرطا والذي لو استقاموا عليه لفتحت عليهم بركات السماء والأرض هو أمر الوصاية (الإمامة) بعد النبوة، وقد جعله الباري تعالى في قبالة التوراة والإنجيل، والآية التي تليها في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) تدعم ما قلناه، فقد جعل الله تعالى ما انزله على رسوله ﷺ أيضاً في قبالة القرآن الكريم، وفي الآية المباركة أمر بتبليغ ذلك الشيء الذي انزله عليه وإذا لم يبلغه فإن أتعاب النبي ﷺ في تبليغ الرسالة ستذهب أدراج الرياح، وهو قوله تعالى: (وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ).

وكذلك الآية التي تليها تدعم ما قلناه أيضاً، وهو قوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) أي إن الآية تريد أن تخبر اليهود والنصارى أنكم إذا لم تستقيموا على أمر الوصاية (الإمامة) من بعد النبوة فإنكم لن تفلحوا أبداً، ومن هنا نفهم الطريقة الدقيقة للقران الكريم في تبيان الحقائق المهمة من خلال تسلسل الآيات، وكل آية تدعم معنى الآية التي تليها وتوضحه.

والشواهد في القرآن الكريم على أمر الوصاية من بعد النبوة كثيرة، نبين منها:

١ - موسى والتوراة ووصيّه هارون:

فموسى عليه السلام عندما ذهب إلى الميقات ترك خلفه أخاه هارون وصياً له على قومه، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى (...اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي...) (الأعراف: ١٤٢)، ولكن هل إن أكثر بني إسرائيل اتبعوا هارون؟ ، كلا؛ فأكثرهم كانوا ضد هارون، والقران الكريم يوضح هذا المعنى في قوله تعالى: (...إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي...) (الأعراف: ١٥٠)، أي إن الأكثرية كانوا ضد أمر الوصاية، وهو ما ورد في قوله تعالى: (...وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ).

ولكن لو تدبرنا في الآية المتقدمة لوجدنا كلمة (منهم امة مُقتصدة وكثير) قد وضعها الحق تعالى قبالة الأكثرية، وهذا يدل على إنها جاءت تدل على الأقلية، ومن هنا نستطيع الرد على من يقول: كيف ترتد الأغلبية أو الأكثرية وتبقى الأقلية صامدة؟

فنقول: خير دليل هو ما حدث مع هارون عليه السلام، فالأكثرية كانت ضده والأقلية صمدت معه، وهو ذاته ما حدث بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث إن أكثر أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ارتدوا من بعده ولم يبق مع الإمام علي عليه السلام إلا القلة القليلة وهو ما جاء في روايات المعصومين عليهم السلام.

عن ابي جعفر عليه السلام، قال: كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي رحمة الله وبركاته عليهم[1].

وعن الحسن بن محبوب، عن الحارث، قال: سمعت عبد الملك بن أعين يسأل أبا عبد الله عليه السلام فلم يزل يسأله حتى قال: فهلك الناس إذا؟ فقال: أي والله يا ابن أعين هلك الناس أجمعون، قلت: أهل الشرق والغرب؟ قال: أنها فتحت على الضلال، أي والله هلكوا إلا ثلاثة نفر: سلمان الفارسي، وأبو ذر والمقداد ولحقهم عمار، وأبو ساسان الأنصاري، وحذيفة وأبو عمرة فصاروا سبعة[2]،[3].

---

(١) الكافي: ج(٨) - ص ٢٤٥.

(٢) الاختصاص (للمفيد) - ص ٦.

(٣) اقول: وما يؤكد هذا القول هو ما رواه البخاري في صحيحه (ج(٧) - ص ٢٠٨) حيث ينقل: عن عطاء بن يسار، عن ابي هريرة، عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، قال: بينا انا قائم فإذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال هلم: فقلت، اين؟ قال: الى النار والله. قال: وما شأنهم؟ قال: انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقرى، ثم اذا زمرة حتى اذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم فقال هلم، قلت: اين؟ قال: الى النار والله. قلت: وما شأنهم؟ قال: انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقرى فلا اراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم.

٢ - النبي ﷺ والقران الكريم ووصيّه علي عليه السلام:

كما وضحنا في ما تقدم، حيث الآية (٦٧ من سورة المائدة) تبين أمر الله تعالى إلى نبيه الكريمﷺ بتبليغ أمر الولاية للإمام علي عليه السلام من بعده، وكذلك هنا الآية تعرض ذات الأمر الذي حدث مع هارون عليه السلام كيف أن الأكثرية ممكن ان تضل وتنحرف وتبقى الأقلية على الطريق الحق المستقيم، وهو ما يبينه قوله تعالى: (...وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...) فنجد أن الآية تتكلم عن الناس أي إن الأكثرية لم ترد ان يبلغ النبي ﷺ هذا الأمر الذي جعله الحق تعالى قبالة تبليغ أمر الرسالة.

وهنا من الممكن ان يطرح سؤال مفاده: ما حدث مع اليهود والنصارى من تغيير النعم عليهم نتيجة ابتعادهم عن وصي نبيهم، هل من الممكن ان يحدث مع المسلمين نتيجة ابتعادهم عن وصي نبيهم أيضاً؟

الجواب: نجده في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ...) (الأنعام: ٦٥)، فالآية تبين أربعة أنواع للعذاب وهي:

النوع الأول: (عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ)، ويشمل الرمي بالحجارة كما فعل الله تعالى مع أصحاب الفيل حيث قال (تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) (الفيل: ٤)، أو كالصيحة أو الصاخة وغيرها من أنواع العذاب الأخرى.

النوع الثاني: (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ)، كالطوفان والزلازل والجدب وغيرها.

النوع الثالث: (أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً)، كالتفرقة والتشتت.

النوع الرابع: (وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ)، الحرب فيما بينكم.

والأنواع الثلاثة الأخيرة كلها قد حلت بالأمة الإسلامية نتيجة ابتعادها عن امر النبي ﷺ وهو الالتزام بوصاية الأئمة من بعده.

الأسلوب الثالث: التأمل والتدبر بكل الملفات القرآنية السابقة لاستخراج مجموع القوانين التي حكمت تلك الملفات التاريخية.

يقول تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ...) (الروم: ٩).

ان السير والنظر الواردين في الآية الكريمة مقصود بهما التفكر والتدبر بما في الأرض ودراسته من خلال دراسة الاحفوريات وعلم الجيولوجيا، وكذلك معرفة كيف كانت عاقبة الأمم التي سبقتنا وهل كان هلاكهم وعقابهم محكوماً ومنظماً بقوانين أو من دون قوانين، فإذا كان محكوما بقوانين فعلينا معرفة تلك القوانين.

والهدف من ذلك هو لنعرف كيف نتعامل معها لان تلك القوانين لا تشمل فقط تلك الأمم ولكن من الممكن ان تشملنا نحن أيضاً ولذلك دعانا الحق تعالى من خلال القرآن الكريم للتفكر والتأمل والمعرفة.

المحطة الثانية عشرة: الحقائق التي تحكم السنن والقوانين:



كل السنن والقوانين التي ذكرناها تحكمها حقائق ثلاثة، وهذه الحقائق هي:

الحقيقة الأولى: حقيقة الاطّراد.

يقول تعالى: (...فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (فاطر: ٤٣).

وهذا يعني أن هذه السنن والقوانين الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى (وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ) (الأنعام:٣٤)، وأحد مصاديق الكلمات في القرآن الكريم هي السنن والقوانين الإلهية، وعندما بحثنا عن الكلمات في القرآن الكريم وجدناها تقع على قسمين:

القسم الأول: كلمات تدوينية.

وهذه تشمل الكتب السماوية كالقران الكريم وآياته وغيره من الكتب السماوية الأخرى - التوراة - والإنجيل - والزبور والصحف.

القسم الثاني: كلمات تكوينية.

وهي تعني ذواتاً على أرض الواقع كالأنبياء والأئمة والحجج الالهيين.

على سبيل المثال النبي عيسى عليه السلام فهو كلمة من كلمات الله تعالى، لقوله تعالى: (...وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ...) (النساء: ١٧١)، وقد يشكل البعض قائلاً: إن هذه الكلمة مختصة بالنبي عيسى عليه السلام قد اختصه الله بها لخصوصية فيه، والجواب نجده في قوله تعالى: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ) (التحريم: ١٢)، والمقصود بالكلمات الواردة في الآية هما النبيان زكريا ويحيى (عليهما السلم) لأنهما كانا من المعاصرين للسيدة مريم عليها السلام، فالسيدة مريم عليها السلام صدّقت بالنبيين زكريا ويحيى اللذين عبرت عنهما الآية بأنهما (كلمات ربها).

وكذلك من المصاديق الأخرى على أن الكلمات هي ذوات تشمل الأنبياء والأئمة والحجج الإلهيين ما جاء في قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...) (البقرة: ١٢٤)، فما هي هذه الكلمات الواردة في الآية؟

الجواب نجده في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام:

عن المفضل بن عمران، عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...) ما هذه الكلمات؟ قال: هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وهو انه قال: يا رب أسالك بحق محمد وعلي وفاطمة والحسن

والحسين، إلا تبت عليّ، فتاب الله عليه انه هو التواب الرحيم، فقلت له: يا بن رسول الله، فما يعني عز وجل بقوله: (فأتمهن)؟ قال: يعني فأتهمن إلى القائم عليه السلام اثني عشر اماما،...[1].

ومن طرق الغير روي أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (لما أذنب آدم بالذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء فقال: أسالك بحق محمد إلا غفرت لي؟ فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك.

لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلمت انه ليس احد أعظم عندك قدرا ممن جعلت اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: يا آدم انه آخر النبيين من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك)[2].

ومن خلال ما ذكرناه نعرف ما هي هذه الكلمات التي ابتلي بها النبي إبراهيم عليه السلام ومن خلالها غفر لآدم عليه السلام.

التفاتة: هل ابتلي النبي إبراهيم عليه السلام بالكلمات فقط أم كانت هناك ابتلاءات أخرى ابتلي بها عليه السلام؟

الجواب: بالطبع كانت هناك ابتلاءات أخرى ابتلي بها النبي إبراهيم عليه السلام منها تركه زوجته هاجر وولدها في مكة وأمره بذبح ولده النبي إسماعيل عليه السلام وغيرها من الابتلاءات الأخرى.

---

(١) البرهان في تفسير القران: ج(١) - ص ٣١٧ - ٣١٨، ح(١).

(٢) الدر المنثور في التفسير المأثور (السيوطي)، (يقول السيوطي في تفسير هذه الاية: اخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب).

التفاتة:

إن الابتلاء بحد ذاته هو من السنن والقوانين الإلهية، وهو يكون على نوعين:

الأول: ابتلاء نتيجة الذنوب.

وهذا النوع من الابتلاء يبتلى به الإنسان نتيجة ذنوبه ومعاصيه.

الثاني: ابتلاء لرفع الدرجة.

كابتلاء الأنبياء والأئمة، فهؤلاء لا يبتليهم الله تعالى لذنوبهم والعياذ بالله ولكن ابتلاءهم يكون لرفع الدرجة كما حدث مع النبي إبراهيم عليه السلام فمن خلال ابتلائه ونجاحه في كل تلك الابتلاءات صار إماماً، وهذه المرتبة قد حاز عليها من بعد النبوة كما جاء في قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا...) (البقرة: ١٢٤)، وهو دليل على عظمة هذا المقام.

وكذلك من الآيات التي توضح سنّة الابتلاء هو قوله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ) (البقرة: ٢١٤).

فالآية الكريمة تبين أن دخول الجنّة أو النصر ليس بالأمر الهيّن ولا يأتي بسهولة كما يظن البعض، وإنما لابدّ من وجود ابتلاءات يمر بها الإنسان لكي يحصل على هذا المقام السامي.

الحقيقة الثانية: الحقيقة الربانية (الإرادة الربانية).

وهنا يطرح سؤالٌ: هل هذه السنن والقوانين تحكمها الإرادة الربانية فقط أم يحكمها نظام الأسباب والمسببات فقط؟

ينكر البعض وجود الأسباب والمسببات ويكتفي بالإرادة الربانية، والبعض الآخر ينكر وجود الله (الإرادة الربانية) ويكتفي بالأسباب والمسببات، أو ما يطلق عليها في الوقت الحاضر بالحقائق العلمية؟

وفي الحقيقة كلا الاعتقادين خاطئ، فلا يمكن إنكار وجود الله تعالى، وكذلك لا يمكن إنكار الأسباب والمسببات، والاعتقاد الصحيح هو الجمع بين الاعتقادين، حيث نقول: إن جميع الظواهر التي تحدث، فهي إنما تحدث بإرادة الله تعالى، ولكن الله جل جلاله جعل كل ظاهرة من هذه الظواهر محكومة بقوانين وعندما تكتمل كل حلقات القانون تحدث الظاهرة، وبالتالي فهي لا تخلو من الجانب العلمي (السبب والمسبب) وكذلك لم تخرج عن إرادة الله تعالى.

بعبارة أخرى:

أن هذه الظواهر التي تحدث بكل قوانينها العلمية ونتائجها، لابدّ لها من برمجة وتنظيم خاص بها، ونحن نرى أن كل شيء حولنا يحتاج إلى برمجة، فعلى سبيل المثال: الجهاز النقال - الموبايل - فهو يحتاج إلى برمجة خاصة به والشركة المصنّعة هي التي تقوم بوضع البرنامج الخاص به، وكذلك الحال مع السيارة فهي تحتاج إلى برنامج خاص بها موضوع من قبل الشركة التي قامت بصناعتها، هذا على مستوى صنع الإنسان المحدود، فكيف إذا كان على مستوى هذا الكون العظيم الهائل؟! فهل من المعقول أن لا يحتاج هذا الكون إلى مبرمج؟

من الطبيعي أن يكون له مبرمج عظيم، وهو الله جل جلاله.

فنستنتج من ذلك: أن هذه القوانين والسنن الإلهية محكومة بإرادة الله تعالى. وتحت سيطرة برمجة خاصة، ومتى ما اكتملت حلقات البرمجة حدثت الظاهرة.

الحقيقة الثالثة: حقيقة الاختيار.

ووسط كل هذه السنن والقوانين يبقى الإنسان مختاراً لا مجبراً، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على تكريم الإنسان من قبل الله تعالى وقد بينّا هذه الحقيقة بالتفصيل في ما سبق.

المحطة الثالثة عشرة: تبيين أشكال السنن الإلهية:



ذكرنا أن هناك سنناً إلهية في الكون والإنسان، وأنها محكومة لثلاث حقائق تقدمت، وهنا نريد بيان أن الله تعالى يبين هذه السنن والقوانين من خلال أشكال مختلفة، ومنها:

أولا: القضية الشرطية.

وهذه تتوضح من خلال شرط وجزاء والجزاء مرتبط بالشرط، مثلا:

١ - يقول تعالى: (...إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ...) (الرعد: ١١).

فالشرط في الآية الكريمة يتضح من خلال تغيير داخل النفس البشرية، أما الجزاء هو حصول التغيير على مستوى الواقع الخارجي للمجتمع، وهذا ما بيناه سابقا من خلال قانون (صناعة الداخل تؤثر في صناعة الخارج).

٢ - قول تعالى: (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا) (الجن: ١٦).

الشرط في هذه الآية هو الاستقامة على الطريق الحق المستقيم، أما الجزاء فهو السقي بالماء أو بالعلم (بالنظر إلى ظهر الآية وبطنها)، ونلاحظ في كلا الآيتين أن الجزاء مرتبط بالشرط.

ثانياً: القضية العلمية المحققة.

وهذه تتضح من خلال معرفتنا بالظواهر الطبيعية كالخسوف وغيرها.

التفاتة:

هناك سنن (مواثيق) في القرآن الكريم تكون مرتبطة بعدد معين، نذكر منها:

أولا: العهد(الميثاق) واحد والجزاء واحد.

يقول تعالى: (...لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم: ٧).

فالعهد يتمثل بشكر الإنسان للنعمة (لَئِن شَكَرْتُمْ).

وأما الجزاء فيتمثل من خلال زيادة النعمة (لأَزِيدَنَّكُمْ).

هذا على مستوى الشكر والإيمان، وكذلك الحال على مستوى الكفر، بمعنى أنه كلما كفر الإنسان بالنعمة ولم يشكرها، فإن الجزاء المترتب عليه هو نقصان النعمة، بل هو العذاب الشديد كما صرحت الآية الكريمة.

ثانياً: أربعة عهود بثلاثة جزاءات.

يقول تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...) (المائدة: ١٢).

العهود الثلاثة هي:

العهد الأول: (لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ).

العهد الثاني: (وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ).

العهد الثالث: (وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ).

أما الجزاءات **فهي:**

الجزاء الأول: (لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ).

الجزاء الثاني: (وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ).

الجزاء الثالث: (قَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ).

ثالثا: عهد واحد بأربعة جزاءات.

يقول تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا) (نوح: ١٠ - ١٢).

العهد هو: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ).

أما الجزاءات فهي:

الجزاء الأول: (إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا).

الجزاء الثاني: (يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا).

الجزاء الثالث: (وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ).

الجزاء الرابع: (وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا).

أقول:

لو تدبرنا جيداً في الآية السابقة لعرفنا أهمية الاستغفار وكيف أنه ارتبط بخير الدنيا والآخرة، فمن الأمور الدنيوية التي ارتبط بها الاستغفار هي: زيادة المطر وزيادة الرزق على مستوى الأموال والأولاد، أما الأمور الأخروية فهي دخول الجنة، وهي مُنى كل إنسان مؤمن، ولكن الاستغفار يجب أن يكون استغفاراً قلبياً لا مجرد لقلقة باللسان فقط، وللاستغفار مفهوم خاص عند الإمام علي عليه السلام يبينه حينما قال لِقَائِلٍ قَالَ بِحَضْرَتِه أَسْتَغْفِرُ اللَّه : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ، أَتَدْرِي مَا الاسْتِغْفَارُ ، الاسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ ، وهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: أَوَّلُهَا النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى ، والثَّانِي الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْه أَبَداً ، والثَّالِثُ أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ ، حَتَّى تَلْقَى اللَّه أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ ، والرَّابِعُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ، ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا ، والْخَامِسُ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَه بِالأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ ويَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ ، والسَّادِسُ أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَه حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّه.(١)

---

(١)نهج البلاغة/ ج٤ ص٩٨

رابعا: ثلاثة مواثيق بجزاءين.

يقول تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) (هود:٥٢).

العهود الثلاثة هي:

العهد الأول: (اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ).

العهد الثاني: (ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ).

العهد الثالث: (وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ).

وأما الجزاءان فهما:

الجزاء الأول: (يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً).

الجزاء الثاني: (وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ).

المحطة الرابعة عشرة: نظريات نشأة الكون:



بعد أن أنهينا الحديث عن نظريات نشأة الدين وبيّنا رأي المدرسة المادّية في نشأة الدين من خلال العديد من النظريات التي طرحوها ونقدنا تلك النظريات نقداً قرآنياً علمياً، وبيّنا سقوط هذه النظريات وتهاويها أمام أبجديات المعارف الإسلامية، ثم بيّنا رأي المدرسة الدينية في نشأة الدين، واكتشفنا من خلال ذلك أن المدرسة الدينية تقوم على نظرة متعددة الزوايا تشمل كل شيء في هذا العالم وما بعده، نأتي الآن على النظريات التي طرحت لتعريف نشأة الكون، وسنبين تلك النظريات أيضاً من خلال رأي المدرسة المادّية ورأي المدرسة الدينية.

النظريات الماديّة لنشأة الكون:

النظرية الأولى: نظرية المثاليين (الخياليين أو السفسطة).

أصحاب هذه النظرية أنكروا وجود الكون جملة وتفصيلا[1]، وقالوا: إن كل هذه الموجودات من ارض وسماء والمخلوقات الأخرى هي عبارة عن تهيئات (خيال) لا صحة لوجودها.

---

(١) ١ - يذكر الشيخ جعفر الهادي في كتابه (الله خالق الكون - ص ٤٩٢)، عندما يناقش هذه النظرية الاتي:

﴿تقوم هذه النظرية على اساس انكار العالم الخارجي او التشكيك في امكانية اثباته خارج الذهن، أي ان الانسان لا يستطيع ان يصل الى الحقائق الخارجية بأدوات المعرفة المجهز بها.

ويذكر الشيخ عدداً من الادلة التي استدلوا بها على كلامهم - ص ٤٩٤، ومن جملة تلك الادلة:

١ - وقوع الخطأ في الحوادث: حيث قالوا مع ان حواسنا هي اقوى الوسائل لاتصالنا بالعالم الخارجي إلا انها لا تخلو من الخطأ والاشتباه)

يرد الشيخ قائلا: لو لم يكن الواقع موجوداً لما استطاع الانسان ان يدرك ان حواسه قد اخطأت الواقع.

٢ - الاختلاف في القيم والتقاليد: قالوا ان الاشياء تتصف بالحسن او القبح عند طائفة بينما بعكسها عند اخرين، فلو كان الانسان قادرا على الوصول الى الحقائق لأدرك الواقعيات كما هي ولما اختلف في تقسيم الاشياء ووصفها بالحسن تارة والقبح تارة اخرى.

يرد الشيخ قائلا: ان اختلاف الناس في التقسيم انما هو في الامور التي تكون للمدنيّة والبيئات والتحوّلات الحضارية دخالة وتأثير في تحسينها وتقبيحها، في حين ان هناك ثوابت في القيم لا يختلف فيها اثنان كقبح الظلم والخيانة، وحسن العدل والوفاء وما شاكل ذلك.

٣ - اختلاف المفكرين في مسائل العلوم: قالوا لو كان الانسان قادرا على ان يصل الى الحقائق كما هي وقادرا على كشف معلومة من غير تخلّف فلماذا وقعت الاغلاط في الآراء والافكار، ولماذا التناقضات الكثيرة في النظريات والخلاف بين روادها واصحابها، اوليس اختلافهم هذا خير دليل على عدم قدرة الانسان على الوصول الى تلك الحقائق، وادراك تلك الواقعيات؟⇦

ولكن يبقى السؤال: لماذا قال هؤلاء مثل هذا الكلام؟

الجواب: قالوا ذلك بسبب إنهم لم يستطيعوا ان يجيبوا على السؤال الذي طرح عليهم: من أين أتى هذا الكون؟ هذا هو التفسير الوحيد لجوابهم وليس هناك تفسير آخر لكلامهم الذي لا يصمد أمام ابسط الإثباتات، وقد أخذت هذه النظرية فترة من الزمن ثم سقطت بعد ذلك وتلاشت لأنها لا تصمد أمام أدلة أهل الفكر والرأي.

النظرية الثانية: نظرية الصدفة.

أصحاب هذه النظرية تبنوا أسسا ثلاثة:

الأساس الأول: قالوا: إن الكون بكل ما يحتويه من مخلوقات له وجود واقعي حقيقي وبذلك يكونون قد نقضوا النظرية الخيالية.

⇐يرد الشيخ قائلا: صفوة القول ان المفكرين مع اختلافهم في الاصول والفروع يتفقون في كثير من الامور البديهية والنظرية، بحيث يكون المتفق عليه بينهم اكثر من المختلف فيه.

٤ - المدرك هو الصور العلمية لا غير: قالوا ان الاعتقاد بالأشياء خارج اذهاننا يقوم على اساس اننا نراها ونلمسها مع ان الذي نلمسه ليس إلا صورا ذهنية، وبهذا ليست الاشياء التي ندركها سوى افكار.

يرد الشيخ: الواقعيون لا يدّعون بأن الانسان ينال نفس الواقع الخارجي مع ماله من الاثار، وانما يدّعون بأنه ينال الخارج عن طريق الصور الذهنية﴾

وكل تلك الادلة يوردها الشيخ بالتفصيل ذكرناه على نحو الايجاز ومن اراد المزيد فليراجع المصدر المذكور.

واخيرا ينقل الشيخ رأيا جميلا للعلامة الطباطبائي في كتابه (اصول الفلسفة: ج(١) - ص ٨٦ - ٨٧)

(ان هناك طريقا اخر لحسم فسادهم وهو التعامل معهم حسب مقتضى عقائدهم فهم ينكرون الحياة والعذاب وينفون العلم والادراك، ولا يعترفون بإحسان وشعور، فعلى هذا لا عتب على الانسان ان يعاملهم معاملة الجمادات، اذ هم والجماد - حسب اعترافهم - سواسية لا يفترقان ابدا).⇐

الأساس الثاني: تبنوا رأي أزلية المادة[1].

أقول:

ولكن من خلال الأبحاث والتجارب التي أجروها في مختبراتهم ثبت لديهم ان المادة غير ازلية حيث قالوا ان كل الموجودات في الكون بمرور الزمن تفقد جزءً من طاقتها (وقودها) وسيأتي يوم من الأيام تفقد فيه كل طاقتها وبذلك تنتهي وتفنى وما يكون له نهاية لابد أن يكون له بداية.

فما نستنتجه من أبحاثهم هو أن المادة غير أزلية من خلال قولهم ان الموجودات تفقد طاقتها لان فقدان الطاقة هذا يعني ان طاقتها غير ذاتية وإذا كانت غير ذاتية فهي غير أزلية وإذا كانت غير أزلية فهي بالتأكيد تكون قد سُبقت بعدم، وهنا سيأتي السؤال: من الذي أوجدها أو أخرجها من كتم العدم إلى حيّز الوجود؟

الأساس الثالث: اعترفوا بأن الكون منظم وغير فوضوي، ولكن هذا التنظيم - حسب رأيهم - جاء من تلائم الكون مع بعضه البعض عبر ملايين السنين.

بعبارة أخرى: أن هذا النظام في الكون تولد نتيجة الفوضى[2].

⇦(١) ﴿فلا يبحث اصحاب هذه النظرية عن علة وجود المادة وانما يركزون بحثهم على تفسير الانظمة والتنوعات الموجودة في العالم المادي﴾ / الله خالق الكون - ص ٥٠١.

(٢) ﴿ان الصدفة - في كلامهم - يعني ان الحركات اللاإرادية الكثيرة لأجزاء المادة اوجدت نظاما جزئيا، وتتابع الحركات واستمرارها وجدت انظمة جزئية وانتهى انضمام بعضها الى بعض وتراكم بعضها على الاخر الى قيام النظام الكلي السائد للكون﴾ / الله خالق الكون - ص ٥٠١ - ٥٠٢﴾. ⇦

وهنا سيفرض سؤال نفسه: هل للفوضى القابلية والقدرة على إيجاد النظام؟

النظرية الثالثة: نظرية الخاصية.

أصحاب هذه النظرية قالوا بأن الكون عبارة عن مجموعة من المواد ولكل مادة من هذه المواد خاصية لا تنفك عنها وهي التي تحركها وتجعلها تتطور وتستمر، وان خواص تلك المواد هي التي أنشأت الكون.

نقد النظرية:

أولا:

هم قالوا: إن الكون يتكون من مجموعة من المواد، والسؤال هنا: من أين أتت تلك المواد؟ ومن الذي أوجدها؟ فمن غير المعقول أن تكون هي من أوجدت نفسها باعتبار أنها لم تكن ثم كانت (وفاقد الشيء لا يعطيه).

ثانيا:

قالوا: بأن كل مادة من تلك المواد تمتلك خاصية مختصة بها ولا تنفك عنها، والسؤال: من الذي اوجد تلك الخواص في المواد؟ وهل

⇐اقول: يورد الشيخ جعفر السبحاني في كتابه (الالهيات: ج(١) - ص ٤٢) قولاً للبروفيسور (ادوين كونكلين) يوضح رداً جميلا على قولهم ان الكون نشأ من الفوضى او من تراكم الحركات اللاإرادية.

يقول البروفيسور (ادوين كونكلين): (ان هذا الافتراض لا يختلف عن قولنا: (ان قاموسا لغويا ضخما انتجته المطبعة اثر انفجار فيها).

من الممكن لتلك المواد ان توجِد هذا النظم البديع والمتقن الذي نراه من تلقاء نفسها من دون تدخل عامل خارجي وفاعل حكيم وقادر؟

فإن كان جوابهم على هذا السؤال هو إرجاع النظام في الكون إلى خواص المواد فقط من دون وجود خالق مبدع وراء ذلك بحجة أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس والملموس، أي لا يشاهدون الخالق ولأنهم لا يشاهدون الخالق فهم ينكرونه، فنقول لهم: هذا الكلام مرفوض، حيث إنكم كما تنسبون الكون إلى خواص المواد فمن الممكن كذلك نسبته إلى الخالق المبدع والحكيم[1] وبما إنكم لا تمتلكون حجة قاطعة على قولكم وفرضيتكم فبذلك نحن لا نكون ملزمين بقبولها، لان ترجيح احد الأمرين على الآخر لابدّ ان يكون من منطق حجة ثابتة وبرهان قاطع.

ثالثا:

قالوا: إن لكل مادة خاصية لها ومختصة بها فقط، وهي المسؤولة عن بقائها وحركتها وتطوّرها، وحينئذٍ نسألهم: هل بإمكان خاصية تلك المادة ان ترتبط مع بقية خواص المواد الباقية؟ خاصة ونحن نرى حالة التلاؤم في نظام الكون، فمن الذي اوجد هذا التلاؤم إذا كانت خواص المواد لا ترتبط مع بعضها البعض؟

نعم: بالإمكان القبول بهذه الفرضية لو كانت الأشياء في الكون مبعثرة ومفككة ومتناثرة، بيد اننا نرى العجب العجاب من التلاؤم والتناسق في النظام الكوني، بالإضافة إلى ان خاصية المادة غاية ما

---

(١) انظر مصدر الله خالق الكون - ص ٥٠٧.

تبلغه هو تكامل المادة المختصة بها - حسب فرضيتهم - وبذلك هي لا تستطيع ان ترتبط مع بقية خواص المواد وتخلق هذه الحالة العجيبة من التلاؤم من دون وجود منظم خبير وخالق قدير.

ولتوضيح الأمر نضرب المثال الآتي:

حسب التجارب والتقارير المختبرية فإن هناك حالة ترابط عجيبة بين الإنسان والنبات، فلا يستطيع النبات العيش من دون الإنسان ولا العكس أيضاً صحيح، لان النبات يمد الإنسان بغاز الأوكسجين والإنسان يمد النبات بغاز ثاني أوكسيد الكاربون، وبذلك فإن كلاً منهما يعوّل على الآخر في البقاء والاستمرار، وحالة الترابط هذه جاءت من خلال انسجام وتلاؤم الخواص بين تلك المواد - الاوكسجين وثاني اوكسيد الكاربون - ولولا هذا التلاؤم لما احتاج احدهما - الإنسان والنبات - لبقاء الآخر، ومن المستحيل ان تكون حالة الترابط هذه جاءت فقط من خلال ترابط خواص تينك المادتين من دون وجود مدبر وخالق مبدع وحكيم جعل حالة الترابط هذه لتستمر الحياة وتسير إلى حالة التكامل من خلال تكامل المخلوقات مع بعضها البعض، وهذا الخالق المبدع والحكيم هو الله جلت قدرته.

رابعاً:

قالوا: بأن هذه المواد أو الأشياء في الكون جاءت إلى مواقعها بالصدفة.

في الواقع هذا كلام غير معقول ولهذا هو غير مقبول، لأننا وببساطة نرى ان الكون يتكون من بلايين الكواكب والمجرات، فكيف لكل الكواكب والمجرات ان تسير في خطوط متقنة من تلقاء نفسها

بدون ان تتصادم مع بعضها البعض، وبذلك نعود إلى فكرة أنه لابدّ من وجود متقِن عظيم نظّم مسيرتها في خطوطها من دون تصادم، وهذا المتقِن هو الله جل جلاله.

أقول: وهناك التفاتة رائعة للشيخ جعفر السبحاني في كتابه (الإلهيات) عندما ينقل بعض الكلمات لخبراء العلم من المخترعين والمكتشفين:

يقول (كلودم هزاوي) مصمم العقل الالكتروني:

طلب مني قبل عدة سنوات القيام بتصميم آلة حاسبة كهربائية، تستطيع ان تحل الفرضيات والمعادلات المعقدة ذات البعدين، واستفدت لهذا الغرض من مئات الأدوات واللوازم الألكتروميكانيكية، وكان نتاج عملي وسعيي هذا هو (العقل الالكتروني)، وبعد عدة سنوات متمادية صرفتها لإنجاز هذا العمل، وتحمل شتى المصاعب وأنا أسعى لصنع جهاز صغير، يصعب عليّ أن أتقبل هذه الفكرة وهي ان الجهاز هذا يمكن ان يوجد من تلقاء نفسه دون حاجة إلى مصمم.

ويستمر قائلا:

وإذا استلزم ان يكون للعقل الالكتروني هذا مصمم فكيف يمكننا إذن ان ننفي هذا القول بالنسبة إلى أجسامنا بما فيها من خواص حياتية وأعمال فيزيائية وتفاعلات كيميائية، فلابدّ من وجود مصمم حكيم وخالق لهذا الكون الذي انا جزء حقير منه»[1].

(١) الالهيات: ج(١) – ص ٤١.

فإذا كان لا يستطيع كلودم ان يتحمل فكرة جهاز صغير يمكن ان يأتي من تلقاء نفسه وهذا على مستوى صنع البشر، فكيف يتحمل هؤلاء ان لا يكون لهذا الكون العظيم والهائل خالق ومبدع ومصمم؟!

النظرية الرابعة: النظرية الماركسية (الديالكتيكية).

من أهم الأعمدة التي تقوم عليها هذه النظرية هو صراع المتناقضات. وهذا الصراع يقوم على أساس وجود أشياء تناقضت فيما بينها، ولما تناقضت تطوّرت، ولما تطوّرت تبادلت الظواهر فيما بينها، وهكذا حتى نشأ الكون بالصورة التي هو عليها الآن.

أقول:

رد على هذه النظرية المفكر والفيلسوف الكبير العظيم السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) في كتابه (فلسفتنا)، فمن أراد معرفة ذلك والاطلاع عليه فليراجع المصدر المذكور فإنه لم يبقي في القوس منزعاً.

إذن، نستنتج ان تعدد نظرياتهم هذا هو خير دليل على عدم وقوفهم على أرض صلبة وان كل ما عندهم بنوه على تخيلات لا صحة لها على ارض الواقع، ونجد هذا المعنى واضحا في كتاب سحر الواقع (لريتشارد دوكينز)[1]:

---

(١) يعتبر ريتشارد دوكينز من اشد المؤمنين بنظرية داروين (تطوّر الانواع) حيث تتلاءم جدا مع الالحاد، والطريف ان داروين نفسه اعترف ان ما قبل الخليه جاء بنفخة الهية (كما بينا ذلك سابقا).

﴿ان العودة لزمن يبلغ عشرة آلاف سنة عن الإنسان المعاصر ليست فترة كافية لتبيان فرق مميز، فصورة الوجه لسلفك قبل (١٠،٠٠٠) سنة لن تختلف في شيء عن شخص معاصر، إذا نحينا جانبا الاختلافات الظاهرية في نمط الملابس وغيرها. ولن يكون أكثر اختلافا عنّا إلا بقدر اختلاف أناس عصريين عن أناس عصريين آخرين. ماذا عن مئة ألف سنة أين لنا ان نجد جدك الأكبر رقم (٤٠٠٠)؟ حسن، والآن ربما يكون ثمة اختلاف يمكن ملاحظته، ولعله مجرد زيادة بسيطة في سمك الجمجمة، وخاصة أسفل الحاجبين، لكنه لا يزال مجرد اختلاف طفيف، والآن هيا ننطلق قليلا إلى الوراء في الزمن، فإذا مررت بالمليون سنة الأولى، ستجد ان صورة جدك الأكبر رقم (٥٠،٠٠٠) قد اختلفت بما يكفي لتؤول إلى نوع مختلف﴾[1].

أقول:

ان دوكينز هنا يطرح نظرية علمية، والمفروض ان النظرية العلمية تقوم على معطيات علمية دقيقة وليس مجرد افتراضات، وكلامه في الحقيقة كله عبارة عن افتراضات ليس لها أدلة علمية حقيقية (وهو بذلك ينتقد نفسه بنفسه لأنه في كتابه (حوارات سيدني)[2] لم يعترف إلا بالكلام العلمي وذي الدليل، وفي كتابه هذا (سحر الواقع) يتكلم عن الاحفوريات التي وجدوها ويقسمها إلى ثلاثة أنواع، فمرة يقول: نستطيع ان نعرف عمرها من خلال الصخور، وأخرى يقول يمكننا ان

---

(١) سحر الواقع لريتشارد دوكينز والذي ترجمه الى العربية المترجم (عنان علي الشهاوي).

(٢) حوارات سيدني - ص ٢٨.

نعرف عمرها من خلال النظائر المشعّة والذرات التي تحتويها من نتاج تحلل الحيوانات، ولكن بعد ذلك يعود وينقض كلامه بالقول (جميعها تواريخ تقريبية، ولا تؤخذ كتواريخ بالغة الدقة)[1].

النظرية الخامسة: فرضية قانون الجاذبية لنشأة الكون.

من ضمن الفرضيات التي يطرحها أبناء المدرسة الماديّة (الالحاديون) لنشأة الكون هو قانون الجاذبية.

نقد الفرضية: يورد صاحب كتاب (تخلص من الحادك) ردا جميلا، قائلا:

﴿وقد اعتمد ستيفن هاوكنج على هذه المقدمة (مذكورة في الكتاب) ان قانون الجاذبية يكفي لظهور الكون، كما أوضح ذلك في كتابه الأخير (التصميم العظيم). وقد انتشر تقرير هاوكنج في الصحف العلمية وتناقلته وسائل الأنباء، وتداولته المواقع الشعبية بكثافة!

ويعلق صاحب الكتاب قائلا:

وبغض النظر عن سقوط هذا الزعم ذاتيا بمجرد التفكير في مصدر قانون الجاذبية، او من الذي قننه ومن الذي أعطاه صفة التدخل وإظهار الأثر؟

بغض النظر عن هذه البديهيات الأولية فإن قوانين الجاذبية لا يؤدي إلى دحرجة كرة البلياردوا، فالقانون وحده عاجز عن أي شيء

---

(١) سحر الواقع ص ٤٤.

بدون ظهور الشيء، فقانون الجاذبية لن ينتج كرة البلياردوا وإنما فقط يحركها إذا ظهرت وضربت بعصا البلياردوا.

فقانون الجاذبية ليس شيئاً مستقلاً، وإنما هو وصف لحدث طبيعي، وقانون الجاذبية لن يحرك كرة البلياردوا دون قوة تضغط على عصا البلياردوا وتحركها، وهنا فقط تتحرك كرة البلياردوا ويظهر اثر قانون الجاذبية»[1].

أقول:

بالتالي فإن هذه الفرضية قد سقطت كما سقطت سابقاتها من النظريات التي طرحوها والتي علّقوا نشأة الكون عليها، ولكن هذه الفرضية في الحقيقة قد سقطت بسبب أمرين، هما:

الأول: هذه الفرضية جاءت متأخرة، ويبقى السؤال قائمًا (قبل وجود قانون الجاذبية الذي يحافظ على مواد الكون، هذه المواد في الأصل من أين أتت ومن الذي أوجدها؟)، فكل النظريات تحدثت عن ما بعد المادة ولم تتحدث عن ما قبلها، وهذا السؤال ما يعتبره الكاتب أعلاه من البديهيات.

الثاني: ان نفس قانون الجاذبية لا يستطيع ان يظهر أثره على الشيء من دون ذلك الشيء أصلا.

بعبارة أخرى: نحن نعلم جيدا ان احد آثار قانون الجاذبية هو الحفاظ على مواد الكون من التصادم فيما بينها وبالتالي فإن القانون

---

(١) تخلص من الحادك - ص ١٥.

لم يُظهر (يُوجِد) تلك المواد وإنما حافظ عليها فقط، وبذلك يكون أثره قد ظهر بعد وجود المواد وليس قبل ان توجد.

فيبقى السؤال من الذي أوجد هذا أساساً؟ وهذا ما تجيب عليه المدرسة الدينية حصراً



المحطة الخامسة عشرة: أنواع الإلحاد وأقسام الملحدين:



وهنا خطوتان في هذه المحطة:

الخطوة الأولى: قبل أن نبحر في غمار النظرية الدينية لنشأة الكون والخوض في عالمها، لنتعرف أولا على أنواع الإلحاد وأقسام الملحدين.

أما أنواع الإلحاد والكفر: فإنه يمكن القول بأن الإلحاد والكفر يقع على نوعين:

الأول: إلحاد وكفر عملي (شهوة عملية).

وهذا النوع من الإلحاد لا يعتمد فيه الملحد على دليل معين وفكرة واضحة لعدم وجود الله تعالى بل ينكر وجود الله لأنه يريد ان يعمل ما يعمل من دون محاسبة، وقد وضح القرآن الكريم هذا النوع بقوله تعالى: (بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ، يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) (القيامة: ٥ - ٦).

الثاني: إلحاد وكفر نظري (شبهة علمية).

أما هذا النوع من الإلحاد فهو يقوم على أساس ما يُتصور أنه دليل وبرهان وحجة.

وما يمكن قوله في أقسام الملحدين والكافرين هو التالي:

القسم الأول: ملحد ينكر وجود الله تعالى، وهو على نوعين:

الأول: ملحد يعتقد بوجود الله تعالى ثم موته (كالفيلسوف نيتشه).

الثاني: ملحد ينكر وجود الله تعالى (حدوثا وبقاء) وهم القائلون باللا أدري، وهؤلاء أيضاً على نوعين:

أ ـ اللا أدري الايجابي:

وهؤلاء ينفون الأدلة على وجود الله تعالى، وفي ذات الوقت لا يملكون دليلاً على عدم وجود الله تعالى، وجوابهم إذا سألوا هو اللا أدري، ولذلك أُطلق عليهم تسمية اللا أدرية أو اللا أدروية[1]:

هذا وقد ﴿وجّه الفيلسوف وايت لنظيره برتراند راسل السؤال الاتي: (هل ثبت لك بالبرهان القاطع على عدم وجود شيء اسمه الله؟ أو انك لا تمتلك برهانا على ذلك؟)، فأجاب: (انا لا أبتُّ بالقول بعدم وجود شيء اسمه الله، كلا؛ اعتقد ان هذا الأمر يشابه

---

(١) اقول: ﴿احد القائلين باللا أدري هو ريتشارد دوكينز ويوضح او يعترف بذلك في كتابه (حوارات سيدني - ص ٢٧) عندما يوجه له سؤال هل انه لا أدري يقول:

(لكنني كعالم لا اقدم أي برهان على عدم وجود اله، ولهذا انا (لا أدري / لا ديني)، فهو لا يقدم دليل على عدم وجود الله وبذات الوقت لا دليل له على وجود الله)﴾.

آلهة الإغريق والنرويج فهذه الآلهة قد تكون موجودة لاحقا لأني لا استطيع إثبات عدم وجودها)﴾[1].

ب ـ اللا أدري السلبي:

هذا النوع يمكن التعبير عنه بأنه دخل إلى الإلحاد عن طريق الإعجاب بفكرة الإلحاد - أي انه دخل إلى الإلحاد بلا دليل ولا برهان على دخوله - ولعله بعد أيام قليلة عندما تظهر فكرة جديدة يترك الإلحاد وينتمي إلى تلك الفكرة، وهؤلاء بيّنهم القرآن الكريم بقوله تعالى: (وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ) (المدثر: ٤٥).

ومن الالتفاتات القرآنية الجميلة هو عندما يسألهم الباري عز وجل بقوله (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) (التكوير: ٢٦) إذ يشير هذا السؤال إلى حالة التخبط التي يعيشونها.

القسم الثاني: ملحد ينكر وجود الأنبياء.

يقول تعالى: (وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...) (الأنعام: ٩١).

وهذا النوع من الملحدين اعتقدوا بوجود الله تعالى ولكنهم أنكروا وجود الأنبياء والوحي الإلهي.

التفاتة:

وقد يسأل البعض هل تطرق القرآن الكريم إلى أنواع الإلحاد والكفر؟

---

(١) موسوعة اجوبة الشبهات الكلامية (ج(١) - (التوحيد) - ص ٢٤) حاشية الكتاب.

الجواب:

نعم، تطرق القرآن الكريم إلى نوعي الإلحاد من خلال استخدامه لمفردتي الظنّ والهوى، فقد وضع القرآن الكريم إلحاد الشبهة العلمية تحت طائلة بند الظنّ، لأننا كما نعرف جيداً ان الظن يقابل اليقين، وعدم تيقنهم بوجود الله تعالى سبّب لهم هذه الشبهة العلمية.

ويتضح هذا المعنى من خلال قوله تعالى: (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ) (الأنعام: ١٤٨)، نجد هنا في هذه الآية قد وضع الحق تعالى الظنّ في قبالة العلم، وكأنه يريد أن يبين للملحدين أن الدين هو العلم واليقين وليس الظنّ، وقوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ) (الجاثية: ٣٢).

وكذلك وضع القرآن الكريم إلحاد الشهوة العملية تحت طائلة بند الهوى، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...) (الفرقان: ٤٣)، وقوله تعالى: (وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ) (البقرة:١٢٠)، نلاحظ في هذه الآية قد وضع الله تعالى العلم قبالة الهوى، وبذلك يكون القرآن الكريم قد فرّق بين نوعي الإلحاد.

وهذا إن دل على شيء فهو يدل على شمولية معارف القرآن الكريم وإعجازه، ومن خلال هذا يبين لنا القرآن حالة التخبط التي

يعيشها الملحدون وكيف انهم اوهموا أنفسهم بأوهام وخرافات لا حقيقة لها، وهذا ما يوضحه الشيخ محمد جواد مغنية (رحمه الله تعالى) حيث يقول:

﴿فإن أقوال الملحدين زادت المؤمنين بصيرة ويقينا حيث تجاوزت منطق العقل والعلم إلى الخرافات والحماقات التي أكدها فولتير ونعت بها الملحدين في قوله " ان فكرة وجود الله فرض ضروري، لان الفكرة المضادة حماقات "[1]. ويعلق الشيخ قائلا: وأطرف هذه الحماقات قول نيتشه " لو كان الله موجودا لكنت أنا هو... وكيف استطيع أن لا أكون إله؟... وإذن فليس ثمة إله "﴾[2].

الخطوة الثانية: النظرية الدينية لنشأة الكون:

النظرية الدينية هي من النظريات التي تعتقد بواقعية الكون - وجود الكون على أرض الواقع - وان لهذا الكون خالقاً، وإثبات وجود الخالق في النظرية الدينية لا يتوقف على مجال واحد وإنما يكون إثباته من خلال عدة مجالات.

فنستنتج من هذا الكلام: ان المدرسة الواقعية انقسمت إلى ماديّة (تعتقد ان الكون نشأ من تلقاء نفسه) ودينية (تعتقد ان للكون خالقاً). ونحن في هذا البحث سنتطرق إلى توضيح او تبيان ثلاثة مجالات فقط وهي:

---

(١) وينقل هذا الكتاب عن ((فولتير تأليف جوستان لانسون))، ترجمة محمد غنيمي هلال ص **٧٣** طبعة سنة ١٩٦٢)

(٢) شبهات الملحدين والاجابة عنها - ص ١٨.

١ - المجال العقلي (الفلسفي).

٢ - المجال العلمي.

٣ - المجال الوجداني.

وهناك العديد من المجالات الأخرى يتطرق إليها صاحب موسوعة الكلام الإسلامي المعاصر:

«١ - البراهين الوجودية: وفي هذا الصنف من البراهين يُستخدم في الاستدلال على وجوده عز وجل التحليل المفهومي الصرف لله.

٢ - البراهين الكونية: وهذا اللون من الحجج - الذي ينطوي تحته أمثال: برهان الوجوب والإمكان، وبرهان الحدوث وبرهان الحركة.

٣ - البراهين الغائية: وهذا الصنف من الأدلة - الذي ينتمي إليه ما يعرف باسم " دليل النظام " أو " برهان إتقان الصنع " -.

٤ - براهين درجات الكمال: ويجري التركيز في هذا الصنف من الأدلة على صفات حاكيّة عن مراتب الشدة والضعف في الموجودات.

٥ - براهين الإجماع العام.

٦ - البراهين الأخلاقية.

٧ - براهين التجربة الدينية: يسعى هذا الصنف من البراهين إلى إثبات وجود الله عز وجل من خلال التجربة الدينية.

٨ - برهان التجارب الخاصة: ويُقصد بالتجارب الخاصة أمور ثلاثة وهي: استجابة الدعاء، فالكشف والكرامات، ثم المعجزات، وكلها أمور خارقة للعادة﴾[١].

اما **المجالات** التي سنوضحها في هذا البحث، فهي:

المجال الأول: المجال العقلي الفلسفي.

في هذا المجال يقوم الفيلسوف بجمع المعلومات ثم يقوم بدراسة أدلتها من خلال العقل وبعدها يبدأ بتحليلها ثم يخرج بنتيجة علمية.

مثلا: الفيلسوف يرى ان الكون يتحرك (كحركة الأرض، حركة الشمس كما اثبت ذلك العلم الحديث) وبما ان الكون متحرك فلابدّ من وجود محرك يحركه، ومن خلال هذا يتوصل إلى إثبات وجود الله تعالى من خلال (برهان الحركة) - والذي سنأتي على تفصيله لا حقا ان شاء الله -.

وهذا القانون أو البرهان الذي استنتجه الفلاسفة يدعمه ويؤكده القرآن الكريم في آيات عديدة، منها:

١ - يقول تعالى: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ...) (يس: ٣٨).

٢ - يقول تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى...) (الرعد: ٢).

٣ - يقو تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ...) (إبراهيم: ٣٢).

---

(١) موسوعة الكلام الاسلامي المعاصر: ج(١) - ص (٧٩، ٧٦)) ﴿تأليف: الشيخ عبد الحسين خسروبناه، ترجمة: محمد حسين الواسطي﴾.

وكذلك من الأدلة العقلية الأخرى هو: دليل حدوث الكون، فلمّا كان الكون حادثا فهذا يعني لابدّ من موجود قديم أحدثه.

المجال الثاني: المجال العلمي.

ان طبيعة البحث العلمي وإثبات الحقيقة العلمية تكون بطريقة استقرائية.

وبعبارة أخرى:

لإثبات أي ظاهرة علمية علينا ان نسلك طريقين:

الأول: إثبات ذات الظاهرة من خلال التجربة الحسيّة أو التجربة الاستقرائية.

الثاني: نبدأ بتحليل تلك الظاهرة عبر فرضيات ونتائج تلك الفرضيات نطرحها على الواقع الذي استقرأناه مسبقا فإن وافقت الواقع يتم القبول بها وان لم تتوافق معه ترفض وهكذا حتى نصل إلى النتيجة النهائية.

ولتوضيح الأمر نضرب المثال التالي:

لو أخذنا خشبة وقمنا بوضعها في الماء، سنلاحظ ان الخشبة تطفو على سطح الماء، وبهذه الطريقة نكون قد أثبتنا علميا ومن خلال التجربة ان الخشب يطفو على سطح الماء ولا ينغمر فيه.

ثم نبدأ الآن بطرح الفرضيات لنعرف: لماذا الخشب يطفو على سطح الماء ولا ينغمر فيه؟

الفرضية الأولى: نفرض ان الأمر عائد إلى نوعية الماء.

فنقول: إن الخشب يطفو على سطح الماء لان الماء حلو مثلاً، والماء الحلو لا ينغمر فيه الخشب بل يطفو على سطحه، ولكي نعرف هل

هذه الفرضية صحيحة أو لا، نأخذ نفس الخشبة ولكن هذه المرة نضعها في الماء المالح، سنلاحظ نفس النتيجة، وبذلك نستنتج ان هذه الفرضية غير صحيحة لان الأمر لا يتعلق بنوعية الماء.

الفرضية الثانية: نفرض ان الأمر عائد إلى نوعية الخشب.

فنأخذ نوعًا آخر من الخشب غير الذي استخدمناه في الفرضية الأولى ونضعه في الماء، وبمجرد ان نضع الخشبة في الماء سنلاحظ أنها قد طفت على سطحه أيضاً، وبذلك نعرف ان هذه الفرضية أيضاً غير صحيحة وأن الأمر لا يعود إلى نوعية الخشب.

الفرضية الثالثة: نفرض ان الأمر عائد إلى الصدفة.

لو فرضنا جدلا صحة هذه الفرضية ستكون هذه الفرضية صحيحة لمرة واحدة لا لمرات متعددة، لأننا في كل مرة سنضع الخشبة في الماء سنصل إلى نفس النتيجة، وهي ان الخشبة لا تنغمر في الماء وإنما تطفو على سطحه، ولو كررنا هذه التجربة الف مرة سنصل إلى نفس النتيجة ومن هنا نعرف انه من غير المعقول في كل مرة تكون بسبب الصدفة ، لان هذا الأمر لا يصدقه العقل وبذلك تكون هذه الفرضية غير صحيحة أيضاً.

الفرضية الرابعة: نفرض ان الأمر عائد إلى خاصية الخشب نفسه.

بعد ان سقطت كل تلك الفرضيات السابقة لم يبق أمامنا إلا فرضية واحدة وهي أن نسبة طوفان الخشب على سطح الماء عائدة إلى خاصية في الخشب نفسه، وبهذا تكون هذه الفرضية هي الفرضية الصحيحة لأنها الأقرب إلى الواقع والحقيقة.

وهكذا يكون الأمر لو طبقنا هذا المثال على الكون، فالكون موجود وقد سُبق بعدم وإذا كان مسبوقاً بعدم فيأتي السؤال الذي نطرحه دائما: من الذي أخرجه من العدم إلى الوجود؟

ولكي نثبت ذلك علميا نضع الفرضيات الآتية:

الفرضية الأولى: أن الكون جاء من تلقاء نفسه.

وفي حقيقة الأمر هذه الفرضية غير واقعية وغير منطقية فكيف يمكن للعدم ان يخلق الوجود؟ وبذلك فإن هذه الفرضية قد سقطت من البداية بمجرد طرح السؤال أعلاه.

الفرضية الخامسة: الكون لم يكن ثم كان، أي حدث.

وهنا نسأل سؤالا إذا كان الكون بالأصل غير موجود فكيف يمكن لشيء لم يكن موجودًا أن يوجد من دون مُوجِدٍ؟ وهذه الفرضية أيضاً تسقط أيضاً لعدم واقعيتها ومنطقيتها.

وبذلك تسقط هاتين الفرضيتين على أعتاب النظرية الدينية والحقيقة الدينية التي تقول بأن للكون خالقاً قديماً أزلياً أبديّاً وهو من اوجد الكون، وقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة عبر السؤال الذي وجهه للبشر في قوله تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ) (الطور: ٣٥ - ٣٦).

شبهة:

قد يطرح البعض سؤالا يشكل شبهة قديمة جديدة، والسؤال هو:

إذا قلنا: إن لكل معلول علة أوجدته، ولكل مخلوق خالقاً خلقه، فمن الذي اوجد الله تعالى؟!

الجواب:

نحن بيّنّا سابقا ان لكل ممكن واجباً، لا لكل موجود علة، وإنما لكل معلول علة، والله تعالى واجب فهو بذلك جل وعلا لا تشمله القاعدة، إذن، الله تعالى هو علة قائمة بذاتها.

ولتوضيح الأمر أكثر نضرب المثال التالي:

عندما نأكل الطعام نجده معتدل الملوحة، فهذا الاعتدال في الطعام من حيث الملوحة لم يأت من تلقاء نفسه، وإنما جاء من خلال وضع الملح في الطعام، ولكن قد يسأل البعض: الملح بذاته من أين اكتسب الملوحة؟ فنقول: هذا السؤال غير واقعي في الحقيقة، لان ملوحة الملح غير مكتسبة وإنما هي ذاتية فيه، ولذلك لا تنطبق عليه القاعدة التي انطبقت على الطعام، وإذا لم نقل كذلك فإننا في هذه الحالة سنذهب إلى التسلسل والدور، وإذا قلنا بالتسلسل والدور فسوف لن يكون هناك خلق، حيث لابدّ من وجود علة لكل العلل.

وهذا ما يوضحه الشيخ محمد مغنية في كتابه قائلا:

﴿**وتسأل:** إذا كان الله اوجد الكون فمن الذي اوجد الله سبحانه؟

الجواب: ان الكون المستمر التغيير والتطوّر لابدّ ان ينتهي إلى علة أولية قائمة بذاتها، لان تسلسل العلل إلى غير نهاية يرفضه العقل ولا يألفه، ولو احتاج كل شيء في الوجود إلى علة لاستحال ان يوجد شيء على الإطلاق. وبقي العالم طي العدة والكتمان... وبكلام اخر كل ما لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده لابدّ ان ينتهي إلى موجود يحمل في طبيعته سببا كافيا وافيا لوجوده.

ويستمر الشيخ قائلا:

وبقصد التوضيح نضرب مثلا بالمخترعات: فكل اختراع من أي نوع كان لابدّ ان ينتهي إلى مخترع أول ابتدعه من أفكاره بالذات، ولم يأخذه من غيره ولو افترض انه لا مخترع أولاً وجب ان لا يوجد اختراع على الإطلاق﴾[1].

ونفس هذه الفكرة يوضحها صاحب كتاب (تخلص من إلحادك)، فيقول:

﴿التسلسل في الفاعلين يؤدي بالضرورة إلى عدم وقوع الأفعال﴾[2].

أقول:

وكذلك الحال على مستوى الأفكار والنظريات، فلابدّ من مفكر أو منظّر ما ترجع إليه بالنهاية هذه النظرية أو تلك ، فمثلا نظرية داروين:

هذه النظرية تدرّس الآن في الجامعات الغربية ولكن ليس من يدرّسها هو مكتشفها ولا حتى داروين نفسه هو من اكتشفها، فمكتشفها الأول هو الفيلسوف (لامارك) ولم يسبقه احد باكتشافها وبذلك هي عادت إلى منظرّها الأول وهو (لامارك)، أما داروين فهو مجرد مطوّر للنظرية وليس مكتشفاً لها.

وهكذا الحال مع الكون، فلابدّ من موجد له وهذا الموجد هو الذي تنتهي إليه كل العلل وهو علة العلل وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) شبهات الملحدين والاجابة عنها - ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) تخلص من الحادك - ص ١٣.

وتجرنا هذه الشبهة إلى سؤال آخر يطرح، وهو:

إذا كان الله تعالى هو علة قائمة بذاتها فلماذا تم رفض هذا الأمر مع المادة؟ يعني لماذا لم نقل: إن العلة الأولى هي المادة؟

نقول: هناك فرق شاسع بين الأمرين، فالله تعالى حيّ عالم وحكيم وقادر وهو علة العلل، أما المادة فهي صماء عمياء لا عاقلة ولا شاعرة وكيف لشيء أصم وأعمى ان يوجد هذا الكون الهائل.

بالإضافة إلى ذلك إننا إذا طرحنا هذين الأمرين على العقل فبالتأكيد ان العقل سيقبل ويميل إلى ان العاقل السميع البصير الحي المدبر هو الذي اوجد هذا الكون العظيم، وليس المادة الصماء العمياء، وكذلك يجيب الشيخ محمد مغنية على هذا السؤال بالقول:

﴿وان المادة الجامدة العمياء يستحيل ان تنظم نفسها بنفسها، وان القوانين والمقادير لا توجد بلا خالق قادر وعالم وحكيم. وأيضاً تقدم قول فولتير: (ان وجود الله فرض ضروري، لان الفكرة المضادة حماقات)﴾[1].

التفاتة قرآنية: ملفات قرآنية حول الإلحاد بسلسلة آيات متسلسلة في سورة واحدة.

هناك بعض الأفكار المهمة يناقشها القرآن الكريم بسلسلة آيات متسلسلة في سور متعددة، والغرض من ذلك هو الإحاطة بكل ما يرتبط بها وإعطاء فكرة عامة حولها ومن ذلك هناك شبكة أسئلة

---

(١) شبهات الملحدين والاجابة عنها - ص ٢٧.

موزعة في سور متعددة بآيات متسلسلة مرتبطة بموضوع بحثنا (الإلحاد) سواء على أساس إنكار الأصل الأول (إنكار وجود الله تعالى) أو إنكار الأصل الثاني (إنكار النبوة)، وهذه الأسئلة هي عبارة عن أسئلة إلهية يطرحها القرآن الكريم على الإلحاديين.

ونذكر ذلك ضمن الملفات التالية:

الملف الأول: سورة (المؤمنون).

يقول تعالى: (قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ[1]) (المؤمنون: ٨٤ - ٨٩).

فكرة هذه الآيات أنها تبدأ بالسؤال الخاص ثم تنتقل إلى السؤال العام، ثم تنتقل صعودا إلى السؤال الأعم، والطريف ان نهاية كل آية تتناسب مع فكرة الآية الصعودية، والدليل على قولنا هذا هو:

إننا نجد ان الله تعالى يبدأ بسؤال الإنسان عن ملكيّة الأرض، وذلك لان الأرض هي الأقرب إلى الإنسان، ولأنها الأقرب إليه فأول ما يقع نظر الإنسان عليها، وجعل في قبالة ذلك نهاية الآية عبارة (أفلا تذكّرون)، لأن التذكر أمر خاص، وهذا ما عنيناه عندما قلنا: إن نهاية الآية تتناسب مع فكرة الآية.

---

(١) تسحرون بمعنى: تخدعون.

ثم انتقلت الآية إلى السؤال عن السماوات وعن العرش، والسماوات والعرش تكون أموراً عامة بالنسبة إلى الإنسان إذا ما قارنها مع الأرض، وجعل قبالة ذلك نهاية الآية عبارة (أفلا تتقون)،لان التقوى تكون اعم من التذكر فالإنسان يتقي إذا تذّكر.

ثم بعد ذلك تنتقل الآيات إلى السؤال الأعم وهو السؤال عن ملكيّة كل شيء، وتبين انها بيد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل في قبالة ذلك نهاية الآية عبارة (فأنى تسحرون)، والسحر الوارد في الآية هو بمعنى الخديعة، حيث إن الإنسان إذا لم يتذكر فلن يتقي، وإذا لم يتقِ فهو في الواقع إنسان مخدوع. وكل هذا التسلسل في الآيات والتسلسل المناسب في نهايتها هو تسلسل وترتيب مقصود من عليم حكيم.

نكتة:

نلاحظ في الآيات السابقة وجود كلمة (لله) فما هو الداعي من وجودها وهم بالأصل ينكرون وجود الله تعالى؟

نقول: الناس عبر التاريخ ليس لديهم كفر بخالقيّة الله، وان كان هناك من الملحدين من ينكر حتى خالقيّة الله، ولكن هؤلاء في الحقيقة قلة قليلة، وأكثر الناس وقعوا في الشرك بربوبية الله تعالى، والربوبية تأتي من بعد الخالقيّة، فمشركوا العرب لم ينكروا أصل وجود الله وانما كانوا يقولون: إن الأصنام هي التي تقربنا إلى الله كما يوضح ذلك قوله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...) (الزمر: ٣)، ومعنى قولهم هذا هو دليل

على ان إنكارهم كان للربوبية وليس للإلوهية لان الإلوهية فطرة والفطرة يتفاعل معها الجميع.

الملف الثاني: سورة لقمان.

يقول تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ، لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ، وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، ...، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (لقمان: ٢٥ - ٣٠).

لو تدبرنا جيدا في الآيات المباركة، لوجدنا بداية الآيات تتحدث عن الخالقية (الإلوهية) وهو قوله تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...) ثم تنتقل الآيات لتتحدث عن المالكية (الربوبية) وهو قوله تعالى: (لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)، ثم بعد ذلك تنتقل الآيات لتتحدث عن علم الله تعالى وقدرته ويبين ذلك قوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ...، أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

ونستنتج من ذلك: بما ان الله تعالى هو خالق السماوات والأرض، فهو مالكهن وقد خلقهن بعلمه وقدرته، ولذلك فإن تسلسل الآيات

من الخلق إلى الملك إلى العلم ثم إلى القدرة ثم انتقال الآية لتبين ان الله تعالى هو الحق من خلال قوله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ...) هو نتيجة طبيعية لما تقدم من وصف الله تعالى بأنه هو العلة الأولى في الخلق.

نكتة:

لو وضعنا المادة في قبال ذلك (أي ما قلناه أعلاه) بأن تكون المادة هي العلة الأولى في الخلق لوجدنا بأن المادة صماء وعمياء حسبما اثبت ذلك أبناء المادة من خلال تجاربهم وأبحاثهم، وهي بذلك تكون غير خالقة، وإذا كانت غير خالقة فمن الطبيعي ان تكون غير مالكة وهي أيضاً غير عالمة وغير مقتدرة، وكنتيجة لما ذكر فهي من المستحيل أن تكون العلة الأولى للخلق.

اما لو أدعى أبناء المادة بأن المادة خالقة ومالكة وعالمة ومقتدرة، فعند ذلك ستكون المادة هي الله تعالى وسيكون الاختلاف بالمسميات فقط، فنحن نطلق على الخالق لفظ (الله) وهم يطلقون عليه لفظ (المادة)، ولذلك هم أنكروا هذه الخواص للمادة كي يتخلصوا من الأشكال الذي سيقعون فيه.

الملف الثالث: سورة الطور(الطور: ٣٠ - ٤٣).

في سورة الطور يطرح القرآن الكريم اسألة كثيرة على الإلحاديين، وتبدأ هذه الأسئلة الإلهية باستنكار إنكارهم الأصل الثاني (إنكار النبوة) وتنتهي باستنكار إنكارهم الأصل الأول (إنكار وجود الله)، والأسئلة هي:

١ - يقول تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ).

الآية تبدأ كما نلاحظها بنقل اتهام النبي ﷺ من قبل الكفار بأنه شاعر، والهدف من هذا الاتهام تشتيت أفكار الناس وإضلالهم، لأننا كما نعلم أن الشاعر يبقى فترة محددة من الزمن ثم يموت وينتهي أمر شعره ولا يبقى عند ذلك له اثر، ولكن القرآن الكريم رد عليهم هذا الاتهام وبيّن لهم بقاء النبي ﷺ وبقاء رسالته الإسلامية، وبيّن لهم أيضاً بأن دينه سوف يظهر للعالم اجمع لان دينه دين حق وليس شعراً كما زعموا، وهو قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة: ٣٣)

والطريف ان القرآن الكريم بعد ان يبيّن بقاء النبي ﷺ وبقاء رسالته الإسلامية يعود في مورد آخر من القرآن الكريم ويتوعد الكافرين بأنكم انتم من ستموتون وليس محمداً ﷺ وهذا ما جاء في قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) (المؤمنون: ١٥).

٢ - يقول تعالى: (أَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم [1] بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ).

ثم بعد ذلك ينتقل القرآن الكريم ليسأل عن سبب اتهام الكافرين للنبي ﷺ بهذا الاتهام؟ هل أن أحلامهم (عقولهم) هي من جعلتهم يتهمون النبي ﷺ بهذا الاتهام، أم طغيانهم وكفرهم وعنادهم هو من أوصلهم إلى هذه المرحلة؟

---

(١) احلامهم: بمعنى عقولهم.

والواضح ان العقل لا يوصل الإنسان إلى هذا الأمر، لان الله تعالى ميّز الإنسان بالعقل وتعبده به، ولأن العقل يمكنه أن يصل إلى حقانية النبي الأكرم ﷺ وما جاء به، ولكن الطغيان هو الذي يوصل الإنسان إلى هذه المرحلة من اتهام النبي ﷺ بهذا الاتهام، والمفارقة هي إنهم كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يسمونه بالصادق الأمين، ولكن بعد بعثته اتهموه بهذا الاتهام، وهذا ان دل على شيء فهو يدل على صدق دعوة النبي ﷺ وأنهم إنما كذبوه بسبب كفرهم وابتعادهم عن الطريق الحق فوصلوا إلى ما وصلوا إليه.

٣ - يقول تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ).

من جملة الاتهامات التي اتهموا بها النبي ﷺ انه جاء بالقران من تلقاء نفسه من خلال تعبده بغار حرّاء، وأنه كان النبي ﷺ هناك يكتبه ويجمعه، ولكن القرآن الكريم يحتج عليهم بأنه لو كان الأمر كما يقولون لأصبح عندئذ الأمر سهلاً إذ سيكون كل إنسان قادراً على أن يأتي بمثل هذا القرآن وانتم ستكونون أيضاً قادرين على ذلك! فلم لا تفعلون.

و لكن حيث إنهم أرادوا الكفر فقد أنكروا نزول القرآن من قبل الله تعالى، أي إن إنكارهم هذا قائم على أساس الشهوة العملية (كما بينّاها سابقا) وليس لديهم الحجة والدليل والبرهان على إنكارهم، وهذه الآية تعتبر من الآيات التي تشكل تحدياً للإلحاديين بأن يُثبتوا أقوالهم (إِنِ اسْتَطَاعُواْ) إلى يومنا هذا.

٤ - يقول تعالى: **(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ).**

ثم تتساءل الآيات: هل هم بالرغم من عجزهم خلقوا أنفسهم بأنفسهم أم خلقتهم الصدفة؟

وقد بيّنا سابقا أنه من المحال أن تكون الصدفة هي من خلقتهم، وقد بيّنا أسباب ذلك.

ثم تعود الآيات وتتساءل: إذا كانوا غير قادرين على خلق أنفسهم، فكيف قدروا على خلق السماوات العجيبة بكل ما تحتويه من كواكب ونجوم ومجرات؟ وكيف خلقوا الأرض بكل ما تحتويه من نباتات وحيوانات وغيرها من المخلوقات؟

٥ - يقول تعالى: **(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ).**

وهنا استفهام استنكاري من الله تعالى، يُراد منه بيان أنهم لا يملكون هذه الخزائن ولا يسيطرون عليها. على أن القرآن الكريم يبين كيف سيكون الأمر لو كانت بيدهم خزائن رزق العباد حيث يوضح ذلك قوله تعالى: (قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُورًا) (الإسراء: ١٠٠).

٦ - يقول تعالى: **(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ).**

ثم يسألهم الحق تعالى هل عندهم سلّم فارتقوا به إلى السماء وسمعوا كلام الملائكة وعرفوا من خلاله أسرار السماء؟

٧ - يقول تعالى: (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ).

كان الكفار في السابق ينسبون البنات لله تعالى لأنهم كانوا لا يحبون الإناث كما يبين ذلك قوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (النحل: ٥٨) وقوله تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (الزخرف: ١٧)

ولكن الله تعالى تنزه عن ان يكون له ولد فهو فرد صمد (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) (الإخلاص: ٣) كما يعبر القرآن الكريم.

٨ - يقول تعالى: (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ).

يسألهم الحق تعالى هل ان النبي ﷺ كلفهم أجرا على رسالته بالأموال ولا يستطيعون ان يؤدوه؟

٩ - يقول تعالى: (أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ).

هل نتيجة ارتقائهم إلى السماء عرفوا الغيب فكتبوه، والآن تحدثوا عنه؟

١٠ - يقول تعالى: (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ).

يوضح هنا القرآن الكريم كيف كان الكفار يكيدون للنبي ﷺ المكائد حتى أنهم أرادوا قتله في كثير من الأحيان ولكن في كل مرة كان الله تعالى يوهن كيدهم وينجي نبيه ﷺ.

وكذلك يبين القرآن الكريم ان كل تلك المكائد كانت في الواقع تعود عليهم وهو قوله تعالى (...فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)، وهو ذاته الأمر يوضحه القرآن الكريم مع قصة النبي إبراهيم عليه السلام عندما

أرادوا حرقه فيقول تعالى: (وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ) (الأنبياء: ٧٠).

١١ - يقول تعالى: (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وتنتهي الأسئلة القرآنية بتوضيح إنكارهم للأصل الأول وهو إنكار وجود الله تعالى.

الملف الرابع: سورة النمل (النمل: ٥٩ - ٦٤).

وكذلك في سورة النمل يطرح القرآن الكريم العديد من الأسئلة الإلهية على الإلحاديين والكافرين والمشركين، ومنها:

١ - يقول تعالى: (...آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ).

السؤال الأول الذي يطرحه القرآن الكريم هو: هل الإله الواحد الأحد أفضل أم الآلهة المتعددة؟ والواقع أن العقل يلزمنا بالقول أن الإله الواحد افضل، وهذا ما وضحه القرآن الكريم على لسان النبي يوسف عليه السلام حيث يقول تعالى على لسان نبيه (...أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) (يوسف: ٣٩).

وما يدل على وحدانية الخالق هو النظام الذي يسود الكون حيث إن تعدد الآلهة يؤدي إلى خلل في ذلك النظام[١]، وهو ما يوضحه قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...) (الأنبياء: ٢٥).

---

(١) يطرح صاحب كتاب (تخلص من الحادك - ص ١٨) سؤالا يوضح من خلاله لماذا من غير الممكن ان يكون هناك إلهان فيقول:

﴿(لكن ما المانع من ان يكون هناك إلهان ويتفقا - بحيث لا يتعارض قراراهما -؟) فيجيب قائلا:

القضية ليست بفساد الكون لاتخاذ قرارين متعارضين او لأنه يمكن ان يتفقا فلا يفسد الكون. وجود اله مع الله يقتضي التركيب - تعدد الجواهر او العلل - والتركيب يستلزم⇐

٢ - يقول تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ).

في الآيات أعلاه يبدأ الباري جل وعلا بتعداد نعمه وكأنه من خلال ذلك يريد ان يوجه السؤال قائلا: هل انتم من أوجدتم كل تلك النعم وخلقتموها وانتم لا تستطيعون خلق أنفسكم؟ فكيف بكل هذه النعم؟

نكتة:

وردت في نهاية الآية كلمة (يعدلون)، والعدول معناه: الإيمان بشيء ثم تركه، حيث ان الكافرين أو المشركين كانوا في الأصل يعتقدون بوجود الإله الواحد، ولكن العناد والذنوب والمعاصي والمحيط الذي عاشوا فيه جعلهم يؤمنون بتعدد الآلهة، لان الإيمان بوجود الإله الواحد أمر ينسجم مع عقل الإنسان وفطرته ولا يستطيع أحد إنكار ذلك.

٣ - يقول تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

⇐الافتقار، والافتقار على الخالق - حاشاه سبحانه - يستلزم عدم الكون وانه قد ينهار، فلا ضمان لبقاء الكون مع مفتقر! ولا ضمان لعدم فساد السماوات والارض في اية لحظة مع اله مفتقر! تنزه الباري عن التركيب والافتقار فهو الغني القيوم سبحانه.

ويقول الكاتب: اضف لما سبق، انه لو كان فيهما إلهان او اكثر فإمكان التعارض بالفعل اقرب عقلا من التوافق لان اكثر من اله يعني اكثر من جوهر واكثر من مشيئة واكثر من ارادة وتعدد الارادات يعني افتقار كل احد، والافتقار يقتضي التعارض عقلا!﴾.

السؤال القرآني يوضح انه بالرغم من الدلائل التي كان يراها الكافرون والمشركون وهي تدل على وحدانية الله تعالى، ولكنهم بالرغم من ذلك ظلوا مصرين على عنادهم وكفرهم!

٤ - يقول تعالى: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ، أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ).

وهنا يتساءل الباري جل وعلا منهم وأنه من الذي يجيب الدعاء؟ ومن الذي يهديهم في ظلام الليل ومتاهات البراري والبحار؟ إنه ليس إلا الله تعالى.

المجال الثالث: المجال الوجداني.

وهو من أعظم الأدلة على الاعتقاد بوجود الله تعالى، لأنه من المجالات الحضورية عند الإنسان وليس من المجالات الحصولية، أي إنه نابع من داخل الإنسان كإحساس الإنسان بالجوع أو العطش فهذا الإحساس نابع من فطرة الإنسان، كذلك الحال مع الاعتقاد بوجود الله تعالى. وهذا ما يؤكده قول الإمام الصادقعليه السلام لرجل سأله: يا ابن رسول الله دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني؟ فقال له: يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك انّ شيئا من الأشياء قادر على ان يخلصك من

ورطتك؟ فقال: نعم، قال الصادق عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الإنجاء، حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث[1].

وبذلك يكون الإمام أوصله إلى غايته من خلال الاستدلال الفطري.

وقد اثبت القرآن الكريم هذا المعنى من خلال طوائف آيات كما ينقلها صاحب كتاب (الكلام الإسلامي المعاصر)[2]، حيث يقول:

«تصنّف الآيات القرآنية التي تطرقت لفطرية بعض الأمور إلى عدة طوائف:

الطائفة الأولى: الآيات التي عدت رسالة النبي صلى الله عليه وآله تذكيرا للإنسان، كما في قوله تعالى: (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) (الغاشية: ٢١ - ٢٢).

أقول:

التذكير من الأمور التي تدل على الفطرية وهو في الحقيقة إنما يكون على الأمور المركوزة في داخل الإنسان ولذلك فإن الله تعالى عندما أرسل أنبياءه ورسله أرسلهم لتذكير الناس بما قد نسوه نتيجة الغفلة.

الطائفة الثانية: الآيات التي دلت على العهد والميثاق، كما في قوله تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...) (يس:٦٠).

---

(١) التوحيد (الشيخ الصدوق) - ص ٢٣٧.

(٢) ج(١) - ص ٩١ - ٩٢ - ٩٣.

أقول:

الله تعالى عندما خلق الخلق اخذ منهم العهود والمواثيق وهذه العهود والمواثيق أخذت على الناس في عوالم غير هذا العالم الذي نعيشه الآن، ولهذا فإن تلك العهود والمواثيق هي أيضاً مغروزة بفطرة الإنسان.

الطائفة الثالثة: الآيات التي أشارت إلى دعاء الإنسان وتوسله بالله عند الخوف والخطر، كما يقول تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥)، وقوله تعالى: (ثم إذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ، ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) (النحـــــل: ٥٣ - ٥٤).

أقول:

فالإنسان مهما كان ومن كان ومهما بلغ من مراتب القوة يبقى (عند شعوره بالخوف أو الخطر) يحتاج إلى من يلجأ إليه ليخلصه وينجيه، وهذا بحد ذاته دليل على ان الاعتقاد بوجود المنقذ الذي هو الله تعالى أمر فطري.

الطائفة الرابعة: الأمور التي تحدثت بصراحة أكثر عن فطرية الدين والأصول الدينية، يقول تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم: ٣٠).

الطائفة الخامسة: الآيات التي قررت ان هداية الإنسان فطرية، كما في قوله تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا) (الشمس: ٧ - ٨)، والهام النفس دليل على الفطرة.

يقول صاحب الكتاب:

وقد تمسك الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بفطرية وجود الله، وفطرية الدين كما نجد في الدعاء المنقول عن الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة (كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون مظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تركا عليها رقيبا)»[1].

التفاتتان:

التفاتة (١):

كما أن الإمام الحسين عليه السلام استدل على ان الله تعالى موجود من خلال الفطرة، كذلك الحال مع النبي إبراهيم عليه السلام الذي استدل على وجود الله تعالى من خلال الفطرة أيضاً، عندما رأى أن الكوكب أو الشمس أو القمر قد أفلت (غابت) استدل على إنها ليست هي الرب لان الرب لا يغيب وهو ما يخبرنا عنه قول الإمام الصادق عليه السلام «إن معرفة عين الشاهد قبل صفته ومعرفة صفة الغائب قبل عينه»[2]،

---

(١) الكلام الاسلامي المعاصر: ج(١) - ص ٩١ - ٩٢ - ٩٣.

(٢) تحف العقول - ص ٣٢٧.

نفهم من قول الإمام ان الحاضر يستدل عليه بذاته ، أما الغائب فيستدل عليه من خلال صفاته.

علماً أن النبي إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في الأمر أبداً، وإنما كان يتكلم مع قومه من باب (إياك وأعني واسمعي يا جارة).

وكذلك القرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب ليستدل من خلاله على مصاديق من غير الممكن ان تكون هي الرب، كما في **المسيح** عليه السلام **وأمه مريم** عليها السلام**:**

يقول تعالى: (مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (المائدة: ٧٥).

الآية الكريمة تتحدث عن النبي عيسى عليه السلام وأمه السيدة مريم عليها السلام وتبين أنهما مجرد بشريين عاديين كانا يأكلان الطعام، وبما أنهما يأكلان الطعام فهذا دليل على الحاجة، والرب لا يأكل ولا يحتاج، فإذا أكل صار محتاجاً والرب غير محتاج، ولذلك عبّر تعالى عن نفسه في قوله تعالى (الله الصمد) والصمد هو الشيء المتماسك الذي لا جوف له، يعني أنه غير مركب وبالتالي غير محتاج، وبعد ذلك تنتقل الآية لتبين كيف أن الله تعالى يبين الأمور بأوضح صورها للناس ولكن بالرغم من ذلك فهم يتمسكون بالدجل والكذب والخداع.

التفاتة (٢):

قسم الله تعالى هو الدليل.

من جملة ما اتهم به النبي صلى الله عليه وآله هو الجنون - حاشاه من ذلك - والله تعالى يقسم بأن النبي صلى الله عليه وآله ليس بمجنون، من خلال قوله تعالى:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) (القلم: ١ - ٢)

فقسم الله تعالى بالقلم هو بحد ذاته دليل على براءة النبي ﷺ مما اتهموه به، لان القسم بالقلم هو دليل على ان النبي ﷺ سيد العقلاء، لان القلم كناية عن العلم، والعلم يثبت أن ما يطرحه رسول الله ﷺ من معارف إلهية عالية المضامين تدل على انه سيد العقلاء، وهذا دليل آخر على فقر الإنسان وعجزه لان الإنسان في الدنيا عندما يفتقر إلى الأدلة يقسم بينما رب العزة قسمه هو الدليل.

وفي كتاب منهج التثبت في الدين، يقول مؤلفه:

«فطرة الإنسان على الشعور بوجود كائن غيبي:

ان الإنسان فطر على الشعور بوجود كائن غيبي وعلى الإحساس بالحاجة إليه، ولا سيما في مواطن الضعف وعوارض الحاجة. وانّ الحياة الروحية للإنسان - نوعا - لن تستقيم إلا بإدراك هذا الكائن، والاتصال به، وعرض الحاجة عليه، والتوجس من جزائه، ولن ينال سلامته النفسية إلا بالإيمان به، وإلا عاش فراغا في نفسه، وخلاءً في حياته، وهذا الشعور نظير شعور الطفل بالحاجة إلى أبويه، والذي لا يسكن إلا بالاتصال بهما.

ولعل في استقراء المشاعر الوجدانية لغير المؤمنين بالدين في حالات الضعف والاضطرار ما يؤكد ذلك.

إلا انه قد يخفى هذا الشعور في حالات الترف والراحة، ويتحفز في حالات الاضطرار والخوف وحالات رؤية بدائع صنعه، بل ينكره مكابرة لوجدانه أو لأجل التخلص من تبعات الإقرار والاعتراف به.

ولا ضير في احتياج هذا الشعور إلى التحفيز لكي ينبثق وينتقل إلى مرحلة الإدراك الواعي، فإن كثيرا من المشاعر والاستعدادات التي جهز بها الإنسان تحتاج إلى التحفيز لانبثاقها، وليس في ذلك ما يقتضي كونها مشاعر مكتسبة عن عوامل ثانوية، كما هو معروف عند الباحثين في علم النفس المعاصر، وقد قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ) (العنكبوت: ٦٥)، وقال عز من قائل: (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ) (فصلت: ٥١)﴾[1].

(١) منهج التثبت في الدين / حقيقة الدين (الحلقة الاولى - ص ٧١ - ٧٢).



المحطة السادسة عشرة: الأدلة على إثبات وجود الله تعالى:



الدليل الأول: دليل النظم أو النظام (البرهان الغائي أو إتقان الصنع).

بما ان الكون متكون من مواد عديدة، نسأل هل هذه المواد منظمة (منسجمة) مع بعضها البعض أم متناثرة؟

والواقع يثبت أنها منسجمة ومنظمة مع بعضها البعض، وهذا الانتظام أو الانسجام يجعل بعضها يعتمد على البعض الآخر.

ويمكن تشبيه انسجام مواد الكون مع بعضها بقول الرسول ﷺ في حال المسلمين (مثل المؤمن في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمى)[1].

وكذلك ما نُسب إلى الإمام علي عليه السلام:

أتحسب انك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

ووجه من وجوه انطواء العالم الأكبر في الإنسان، هو ان الإنسان مكون من أعضاء متعددة ونجد ان هذه الأعضاء منسجمة مع بعضها

(١) بحار الأنوار، ح٥٨، ص١٥٠..

البعض بحيث إذا تألم عضو واحد من تلك الأعضاء تتألم بقية الأعضاء، وهكذا هو الحال مع الكون.

والسؤال الذي نطرحه في كل مرة: هل هذه العملية والمعادلة المعقدة جاءت من تلقاء نفسها أم أوجدها موجد عظيم وحكيم؟

الجواب: بالطبع هي لم تأت من تلقاء نفسها بل جاءت من قبل عالم حكيم وعظيم (وقد أثبتنا ذلك بالتفصيل في نظريات نشأة الكون - النظرية الخاصية -).

وحتى تتضح الصورة أكثر، نذكر عدة أمور:

الأمر الأول: الأسس الخمسة التي يتكون منها برهان النظام، يبينها صاحب كتاب (الكلام الإسلامي المعاصر - ص ٩٥):

الأساس الأول: وجود عدد من الأشياء أو الأجزاء المختلفة.

الأساس الثاني: حالة الترتيب والانسجام والتناغم السائدة عليها.

الأساس الثالث: وجود هدف محدد [1].

أقول: لما أثبتنا ان الأشياء أو المواد موجودة في الكون وأثبتنا أنها منسجمة مع بعضها البعض وهذا الانسجام والدقة يأخذنا إلى الهدف والغاية التي خلقت المخلوقات لأجلها، فمن غير المعقول ان يكون بعد كل ما أثبتناه ان الخلق خلق عبثا، والقران الكريم أشار إلى هذه الحقيقة من خلال شبكة آيات أشار لها صاحب كتاب (الكلام الإسلامي المعاصر - ص ٢٦٢) حيث يقول: ﴿وقد ورد في القرآن

---

(١) انظر كتاب الكلام الاسلامي المعاصر ج(١) - ص ٩٥ - ٩٦.

الكريم بخصوص الهدفية والغائية في عالم الخلق آيات عديدة ومتنوعة نذّكر بها حسب الترتيب التالي:

١ - الآيات التي تشير إلى صفة الحكمة:

يقول تعالى: (...أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة: ٢٢٠). وقوله تعالى: (...وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (النساء: ٢٦). وقوله تعالى: (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (فصلت: ٤٢).

٢ - الآيات التي تبين أهداف خلق العالم والكائنات:

يقول تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً....) (هود: ٧).

احد الغايات التي خلق الإنسان من اجلها هو الابتلاء، فعند الابتلاء يظهر معدن الإنسان الحقيقي وجوهره، ومن خلال الابتلاء يصل الإنسان إلى الكمال وهو الغاية الأسمى التي خلق من اجلها.

التفاتة:

لو تأملنا الآية جيداً لوجدنا كلمة (أحسن) وهي تدل على أن الثقافة الإسلامية تهتم بالنوع أكثر من اهتمامها بالعدد أو الكم - هي لا تهمل الكم تماما ولكنها في نفس الوقت لا تركز عليه بقدر تركيزها على النوع - ومن هنا نستطيع الرد على من يقول كيف أن ضربة واحدة تعادل عبادة الثقلين (ضربة الإمام علي عليه السلام في يوم الأحزاب)، فنقول: هذه الضربة تعادل عبادة الثقلين من حيث النوع، نعم هي ضربة واحدة ولكنها قصمت ظهر الفاسدين، والقران الكريم يدعم هذه الثقافة كما في قوله تعالى: (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(القدر: ٣) أذن هذه الحقيقة موجودة وهي لا تشكل تعارضاً مع حقائق الدين ولو كانت تشكل تعارضاً لما دعمتها الثقافة الدينية.

٣ - الآيات التي أنكرت العبثية في الخلق:

وهذه الآيات نزهت الباري (عز وجل) عن اللهو واللعب مصرّحة بحقانية عالم الخلق.

يقول تعالى: (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عبثاً...) (المؤمنون: ١١٥). يقول تعالى: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الدخان:٣٨).

٤ - الآيات التي أشارت إلى هدف خلق الإنسان:

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق: ٦).

يقول تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:٥٦)»[1].

أقول:

الأهداف الثلاثة الأولى تحدثت عن المخلوقات بشكل عام أما الهدف الرابع فقد ذكر الهدف من خلق الإنسان بشكل خاص، وإذا كان الله تعالى قد خلق كل شيء لغاية فمن الأولى ان يكون خلق الإنسان لغاية أيضاً وذلك لأنه أكرم المخلوقات كما يقول تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) (الإسراء: ٧٠)، والغاية التي خلق من اجلها الإنسان

---

(١) انظر كتاب الكلام الاسلامي المعاصر ج(١) - ص ٢٦٣.

هي لقاء الله تعالى والتي من خلالها يصل الإنسان إلى كماله، ومن دونها يكون أضل من البهائم.

الأساس الرابع: تأثير كل جزء من الأجزاء في تحقيق الهدف.

كما قلنا سابقا ان تناغم أجزاء الكون وانسجامها يجعل لها تأثيراً نسبياً لتحقيق هدف الجزء الآخر والغاية التي خلق من اجلها.

بعبارة أخرى: لان مواد الكون منسجمة مع بعضها البعض ولا يمكن الفصل بينها، فهذا يؤدي إلى ان كل شيء مخلوق له تأثير نسبي على بقية المخلوقات في تحقيق أهدافها وغايتها، فمثلا الإنسان لا يستطيع العيش بدون النباتات والحيوانات والعكس صحيح.

التفاتة:

ان المواد في الكون من حولنا تمتاز بخصائص مهمة منها:

١ - الارتباط: المواد يحتاج بعضها إلى البعض الآخر.

٢ - المحدودية: كل المواد محدودة وغير مطلقة.

٣ - التغيير: الكون محكوم بالتغير والتغيير، فكل شيء من حولنا يتغير وقد اثبت العلم الحديث ان جسم الإنسان يتبدل كل ثماني سنوات (حسبما ينقل علماء الاختصاص).

أقول: بما ان العلم الحديث توصل إلى ان جسم الإنسان يتبدل كل ثماني سنوات، هنا سنطرح سؤالا على أبناء المادة الذين يؤمنون ان الإنسان يتكون من الجسم فقط دون الروح - لان الروح غير مرئية - فنقول:

لو أن إنساناً قتل أحدا ما وحكم عليه بالسجن المؤبد أو الإعدام، وتجاربكم أثبتت ان جسم الإنسان يتبدل كل ثماني سنوات، ففي مثل

هذه الحالة من الذي سيعاقب؟ الإنسان الجاني أم الإنسان بعد التبدل؟ فإذا عوقب الإنسان الجاني فأين هو وقد تبدل كُلياً؟ وان كان الإنسان بعد التبدل فأين عدلكم وانتم تدعونه وتلهجون به دائماً؟

بالتأكيد سيكون جوابهم: ان هذا التغير أو التبديل الذي طرأ إنما طرأ على الخلايا فقط دون ذات الإنسان؟

فسنقول: انتم لا تؤمنون بالذات لان الذات تعني النفس (الروح) وانتم لا تؤمنون بوجود الروح، فكيف إذن تكون ذاته موجودة والحال أنكم تقولون أنه يتكون من جسم فقط؟

وهنا تتبين حقيقة النظرية المادية بأنها عبارة عن أوهام وخرافات لا تصمد أمام أول الحقائق التي بينتها النظرية الدينية.

٤ - النسبية: الكون من حولنا محكوم بالنسبية.

ككبر حجم الشمس بالنسبة لنا (للأرض) وصغرها لما هو اكبر منها، وهكذا الأمر مع بقية الأمور من حولنا.

الأساس الخامس: إثبات وجود الله تعالى.

من خلال الأسس الأربعة السابقة نستطيع إثبات ان هذه المخلوقات أو الموجودات في الكون لم تأت من الفراغ أو من تلقاء نفسها وإنما أتت من خلال خالق عظيم وحكيم خلقها.

الأمر الثاني: إشارة القرآن الكريم إلى برهان النظام.

لقد أشار القرآن الكريم إلى برهان النظم في الكثير من الآيات الكريمة، بل نجد أنه أكثر ما ركّز عليه، ومن ذلك الآيات التالية:

١ - يقول تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِن

السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤).

٢ - يقول تعالى: (الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ...[1]) (الملك: ٣).

٣ - يقول تعالى: (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٤٠).

٤ - يقول تعالى: (خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...) (الروم: ٢١).

٥ - يقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...) (الروم:٢٣).

٦ - يقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...) (الروم:٢٤).

الأمر الثالث: برهان النظام دليل على وحدانية الله تعالى.

كما أثبتنا ان برهان النظام دليل على وجود الله تعالى سنثبت ان هذا البرهان هو دليل على وحدانية الله تعالى.

والمقصود بوحدانية الله تعالى هنا هو ليس التعدد وإنما وحدانيته بمعنى عدم التجزئة والتركيب كما ورد في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام يقول فيها ﴿واحد لا من عدد، ودائم لا بأمد، وقائم لا بعمد، ليس بجنس فتعادله الأجناس، ولا بشبح فتضارعه الأشباح، ولا كالأشياء فتقع عليه الصفات، قد ضلت العقول في أمواج تيار إدراكه، وتحيرت

---

(١) تفاوت: بمعنى اختلاف او خلل.

الأوهام عن إحاطة ذكر أزليته...﴾[1]، بالإضافة إلى ان تعدد الآلهة يؤدي إلى اختلال نظام الكون - وقد بينا هذا بالتفصيل سابقا -.

أقول:

لو عدنا إلى الوراء قليلا بالتحديد إلى نظرية داروين، لوجدنا أنه عندما أجرى تجربة التطوّر على الأنواع نجده أجراها على مخلوقات معينة دون غيرها، والسبب في ذلك هو ان التجربة لم تسعفه لأنه وجد بعض الحلقات المفقودة والتي لم يستطع إيجادها، لذلك ركز على نوع محدد من المخلوقات (وهذا ما ينقله العلماء عندما ناقشوا هذه النظرية فيما بعد، وقد عدوا هذا الأمر من أكثر الأمور تحدياً لهذه النظرية) بل وحتى الأنواع التي ركز عليها داروين وجد فيها بعض الحلقات المفقودة أيضاً، وللتوضيح نأخذ المثال التالي:

جهاز العين حسب النظرية الداروينية: ان هذا الجهاز تطوّر ولم يأت فجأة وكلما ازداد تطورا كانت تضاف له جزئية جديدة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن، وتطوّر هذا الجهاز حسب نظرية داروين استغرق عشرة ملايين سنة أو أكثر.

رد العلماء:

قال العلماء: إن جهاز العين لا يمكن أن يكتمل تدريجياً وتحدث فيه خاصية الإبصار، إلا إذا وُجد بشكل كامل غير تدريجي مرة واحدة، وإلا لم يكن موجودا في الأصل، ، أما داروين فيقول: ان هذا الجهاز تطوّر بمرور الزمن وبتطوره كانت تكتمل حلقاته من خلال جزئيات

---

(١) التوحيد (الشيخ الصدوق) - ص ٦٩ - ٧٠.

جديدة كانت تضاف إلى السابقة، وهذا غير ممكن علمياً ولهذا أُعتبر ما قلناه سابقا من أهم التحديات لهذه النظرية.

وهذا الأمر لا نجده في النظرية الإسلامية، ففي النظرية الإسلامية كل الحلقات جاءت مكتملة بل وإن بعضها مرتبط ببعض ومعتمد عليه وانسجام كل ذلك يدل على وحدانية الله تعالى وتفرده وقدرته وعلمه.

ومن خلال كل ما قلناه نجد ان دليل النظام كما يدل على وجود الله تعالى فهو يدل على وحدانية الله تعالى، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى أن كل المخلوقات يجب أن تنقاد إلى خالقها وموجدها وهو قوله تعالى: (...كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) (البقرة: ١١٦)، أي منقادون، وقوله تعالى: (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) (البروج: ١٦) وقوله تعالى: (...أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ...) (يوسف: ٤٠) وقوله تعالى: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) (آل عمران: ٨٣).

جاء في كتاب (منهج التثبت بالدين):

﴿أنحاء الإسعاف المعرفي للإنسان في الدين: ان الإسعاف المعرفي للإنسان على أربعة أنحاء:

١ - تأكيد ما يجده الإنسان بعقله في مقابل الخرافات والأوهام، مثل ما يرد في كتاب الله من التأكيد على حكم العقل القاضي بعدم صلاحية الأصنام والكواكب والأشخاص للإلوهية.

يقول تعالى: (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصافات: ٩٥ - ٩٦).

أقول:

إن الإسعاف العقلي في هذه النقطة يعني تبيين مدى سذاجة الاعتقاد بالخرافات والأوهام التي لا يقبلها العقل كالأصنام والكواكب التي لا تستحق الإلوهية، والواقع أننا نتعجب ممن لا يقبل بأن يكون الرسول من البشر وهو قوله تعالى (...أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً) (الإسراء: ٩٣)، ولكنه يقبل وبكل رحابة صدر ان يكون الإله من الحجر!

٢ - تنبيه الإنسان وإيقاظه على ما يجده ويشهده من الأمور، ولكن لا يعيه حق وعيه ولا ينتقل لدلالته وغايته، فإذا نبّه عليه انتبه من غفلته وانتقل ذهنه لمدلولاته، ولربما تعجّب من نفسه كيف رآه ولم يلتفت إلى دلالته؟!

ومن ذلك ما ورد في القرآن الكريم من التنبيه على دلالة الخلق ونظام الكون على الخالق.

أقول:

هناك بعض الأمور يراها الإنسان ولكنه لا يركز عليها، حتى إذا ما نُبّه عليها انتبه، منها الآيات والقوانين التي تحكم نظام الكون فهذا النظام يجعل الإنسان يسأل نفسه سؤالين:

الأول: من أين أتى؟ وهذا السؤال سيدلّه على الخالق.

الثاني: على ماذا يدل؟ وهذا السؤال سيدله على وحدانية الخالق.

٣ - إعلام الإنسان بما يجهله مما يحتاج إليه من شؤون ما وراء الطبيعة، مثل الدار الآخرة، اذ من الصعوبة ان ينتقل الإنسان بوضوح وجزم إلى وجود المعاد والنشأة الأخرى لولا أخبار الوحي بذلك.

٤ - إعلام الإنسان بعدم استطاعته التوغل بفكره في أمور ما وراء الطبيعة، لعدم وجود أدوات واضحة لديه في شأنها، وعدم صحة مقايسة ذلك العالم بعالم المادة.

و إذا ما أمعن الإنسان في التفكير حول ما وراء الطبيعة والتنظير فيه والبناء عليه لم ينته إلى نتيجة واضحة، بل ينتهي إلى الخرافات الباطلة، كإيمان اليونان بوجود (عشرة عقول) متوسطة بين الخالق وعالم المادة، واعتقاد بعضهم بوجود كائن أعلى لكل نوع من أنواع الكائنات بدير أحوالها سموها بـ(أرباب الأنواع)﴾[1].

التفاتة:

ذكرنا إن برهان النظام يثبت وحدانية الله تعالى إلى جانب إثباته وجود الله تعالى، ولكن هذه الوحدة أو الوحدانية تقع على أقسام، منها:

١ - الوحدة الصنفية: كأن يكون زيد طالب علم وعَمرو طالب علم أيضاً، فالاثنان تجمعهم وحدة صنفية وهي طلب العلم.

٢ - الوحدة النوعية: كقولنا زيد وعَمرو يشتركان في الوحدة الإنسانية كنوع.

٣ - الوحدة الجنسية: كقولنا زيد والفرس يشتركان في الحيوانية، وللتوضيح نقول:

الإنسان له حياة نباتية قوامها النمو، فالنبات ينمو والإنسان ينمو أيضاً، وللإنسان حياة حيوانية قوامها الطعام والشراب والغرائز

---

(١) منهج التثبت في الدين / حقيقة الدين (الحلقة الاولى - ص ٣٢).

الأخرى إلى جانب النمو، وللإنسان حياة ثالثة أرقى من حياة النمو والغرائز بمختلف أنواعها وهي حياة العقل أو الحياة الفكرية، وهذه الحياة تختص بالإنسان دون غيره من المخلوقات.

٤ - الوحدة العددية: كالتسلسل الرقمي أو العددي، أي (العدد واحد يأتي بعده العدد اثنان وهكذا).

٥ - الوحدة الحقيقية (الحقة): وهي وحدة عدم التجزئة والتركيب وهذه الوحدة مختصة بالحق تعالى، فالله جل جلاله واحد بالوحدة الحقة الحقيقية.

الدليل الثاني: برهان الحدوث.

قلنا في وقت سابق من البحث أن الكون حادث - أي مسبوق بعدم - وإذا كان حادثاً فلابدّ من وجود محدث له، وهذا الأمر ثبت حتى عند أبناء المدرسة الماديّة الذين كانوا يعتقدون بأزلية المادة، حيث اثبت العلم الحديث ان المادة حادثة أيضاً، ولكن لو تنزلنا جدلا مع أبناء المدرسة المادية وقلنا: ان المادة أزلية فإن هذا أيضاً لا يتعارض مع وجود الله تعالى، ولعل البعض يسأل كيف يمكن ذلك؟

فنقول: إن أرسطو كان من المعتقدين بأزلية المادة - ولكن كما اثبت العلم ان هذه المادة ميتة (صماء وعمياء) - فهنا يأتي السؤال كيف تحولت هذه المادة الميتة إلى حيّة وخلقت كل هذه المخلوقات؟

ولكي يتخلصوا من الجواب قال أرسطو: ان هذه المادة الأزلية لابدّ لها من صانع وهذا الصانع هو الله الذي أبدلها من ميتة إلى حية، وبذلك يكون أرسطو قد فرق بين الصانع وبين الخالق، ولكننا عدنا

إلى نقطة الأصل وهي: وجود الله تعالى مع اختلاف التسميات فهم أطلقوا عليه تسمية الصانع ونحن أطلقنا عليه تسمية الخالق العظيم المقتدر.

أقول:

قال بعض الفلاسفة: إن الكون قديم وقدمه يرتبط بقدم الفيض الإلهي ومن خلال ذلك اعتقدوا بقدم الكون، ولكن الأمر غير صحيح لان الكون متغير، وما كان متغيراً فهو حادث، ثم إن العلم أثبت أن للعالم عمراً محدّداً ونهاية، وبما أن له نهاية فلابد من وجود بداية له.

وقد أشار القرآن الكريم إلى برهان الحدوث في عدة آيات منها:

١ - يقول تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...) (الطلاق: ١٢).

بما انه ورد في الآية (الله الذي خلق) فمن هنا نستنتج ان السماوات لم تكن ثم كانت.

٢ - يقول تعالى: (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) (الأنعام: ١٠١).

٣ - يقول تعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا) (الإنسان: ١).

والآية الكريمة دليل على ان الإنسان ضمن هذا العالم أولا لم يكن شيئاً ثم صار شيئا ثم صار شيئا مذكورا (وقد بينا ذلك بالتفصيل في كتاب المعاد من هدي القرآن والعترة).

الدليل الثالث: برهان الإمكان الفقري.

وهذا الدليل من الأدلة الداخلية (الوجدانية) - كما بينّا في المجال الوجداني سابقا - وهذا الدليل يبين ان الإنسان مفتقر بذاته إلى غني بذاته.

بعبارة أخرى:

إنَّ كل شيء أودعه الله تعالى في داخل تكوين الإنسان والإنسان يشعر به ويريد في مقابله شيئاً فلابدّ من وجود ذلك الشيء، كما هو الحال مع الطفل عند مجيئه إلى الدنيا فأحد أسباب بكائه هو جوعه، فعندما يجوع ويخبر أهله بجوعه من خلال بكائه فلابدّ من وجود ما يسد جوعه ويمنع بكاءه وهو الحليب، أي ان الله تعالى عندما أودع البكاء بسبب الجوع عند الطفل أوجد في المقابل ما يسد جوعه ويمنع بكاءه، وهذا هو صنع الله الحكيم الذي أتقن كل شيء صنعه.

فالله تعالى عندما خلق الإنسان أودع بفطرته انه ضعيف وفقير، فمهما بلغ من القوة والغنى ولكنه يبقى في جبلته فقيراً وضعيفاً ومحتاجاً إلى القوي المطلق وإلى الغني المطلق وهو الله تعالى، وهذا المعنى يثبته قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...) (الأعراف: ١٢٧)

فالآية تبين أنه حتى فرعون الذي ادّعى لنفسه الإلوهية المطلقة لم ينفك عن شعور الخوف والضعف وكانت له آلهة (أصنام) يلجأ إليها كلما شعر بخوفه وضعفه، فهو لم يستطع التخلص من شعوره بفقره وفاقته وحاجته ولكنه أخطأ المصداق الصحيح فما أعظم الله القدير.

وقد أشار القرآن الكريم إلى برهان الإمكان الفقري بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (فاطر:١٥).

الدليل الرابع: برهان العلة.

وقد تكلمنا عن هذا البرهان بشكل مفصل في المجال العلمي من خلال الملفات القرآنية الأربعة التي طرح من خلالها القرآن الكريم الأسئلة على الإلحاديين، ولكن هنا سنبينه بشكل متسلسل من خلال طرح بعض الأسئلة التي توصلنا إلى الله تعالى:

السؤال الأول: هل المخلوقات تحتاج إلى علة؟

الجواب: نعم، يقول تعالى: (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) (الطور: ٣٥).

يقول تعالى: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ...) (النحل: ١٧).

السؤال الثاني: هل المخلوقات هي علة ذاتها بذاتها؟

الجواب: كلا، لأنها في الأصل لم تكن موجودة فكيف أوجدت نفسها!

السؤال الثالث: هل احتاجت المخلوقات إلى شيء أوجدها؟

الجواب: نعم.

السؤال الرابع: هل الذي اوجد المخلوقات يحتاج إلى علة لإيجاده؟

الجواب: كلا، لأنه إذا قلنا: إن الذي اوجد المخلوقات يحتاج إلى علة أوجدته سنقع هنا في التسلسل أو الدور، وهذا يؤدي بنا إلى عدم وجود خلق تماما - وقد بينّا هذه الشبهة بالتفصيل وأجبْنا عليها في

وقت سابق من البحث وطرحنا مثال ملوحة الملح من أين أتت لزيادة التوضيح.

الدليل الخامس: برهان الحركة.

عُرِّفت الحركة بأنها الانتقال من مكان إلى مكان آخر، ولكن تمّ الاعتراض على هذا التعريف بأنه مختص بالحركة المكانية فقط، والحال أن هناك أنواعاً أخرى للحركة، وهي:

الحركة الكيفية: كتغير لون التفاح من الأخضر إلى الأصفر، ومن الأصفر إلى الأحمر فعبّر عن هذا التغير بالحركة الكيفية.

الحركة الكميّة: تشمل حركة الكائنات الحيّة في هذا العالم، كحركة النبات والحيوان والإنسان فحركتها هذه عبّر عنها بالحركة الكمية.

الحركة الوضعية: كحركة الأرض حول نفسها.

وسواء كانت الحركة كيفية أو كميّة أو وضعية فإن المتحرك حادث.

ولتوضيح ذلك نأخذ المثال الآتي:

لو تحرك شخص من الموقع (أ) إلى الموقع (ب) فهو لم يكن موجودا في الموقع (ب) أي صار حادثا فيه وهذا ما عنيناه بأن المتحرك حادث، ومن هنا نستنتج ان الحركة لازمها الحدوث والحدوث لابدّ له من محدث، والمتحرك لابدّ له من محرِّك، وهذا المحرك هو الله جل جلاله، ومن هنا نثبت ان الله تعالى غير متحرك لأنه إذا صار متحركا سيكون حادثا كما بينّاه في المثال الآنف، وهذا الأمر لا يصح مع الله تعالى.

ولكن أنواع الحركة لم تنته عند ما ذكرناه، فهناك نوع آخر من الحركة أضافها الفيلسوف (الملا صدرا صاحب مدرسة الحكمة المتعالية)، وهذه الحركة أطلق عليها بـ(الحركة الجوهرية):

وهذه الحركة تكون على مستوى جواهر الأشياء وهي التي تجعل تلك الجواهر تتطوّر كحركة الإنسان وانتقاله من التراب إلى النطفة ثم إلى العلقة والمضغة ثم يخرج طفلا إلى الدنيا وحتى يصل إلى الموت، وخلال تلك الحركة هو في تطوّر مستمر.

ولعل البعض يسأل هنا سؤالا وهو: هل (الملا صدرا) يؤمن بالنظرية الداروينية للتطوّر؟

الجواب: كلا، لان داروين يؤمن بأن الأنواع جاءت من المادة ثم تطوّرت وتعددت، أما الحركة الجوهرية (للملا صدرا) فهي قائمة على أساس تطوّر الفرد وليس النوع، أي ان الإنسان هو يتطوّر بذاته ولا يتطوّر ليصبح شيئاً آخر، وهكذا الحال مع النبات عندما يتطوّر، وأيضاً الحيوان.

ولذلك فإن الإنسان في تطوّره وحركته يحتاج إلى الله، ولكن هذا الاحتياج لا يتوقف على مستوى أصل الوجود فقط، وإنما يتعداه إلى الإبقاء والاستمرار، ولهذا فإن لله على عباده اربع ولايات، وهي:

١ - **ولاية الإيجاد:** وبها اخرج الله عباده من كتم العدم إلى حيز الوجود.

٢ - ولاية الإبقاء والاستمرار.

٣ - **ولاية الإنماء:** وبها يربي الله تعالى عباده، أي ينمّيهم من طور إلى طور ومن مرحلة إلى أخرى (وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا).

٤ - **ولاية الجزاء:** وبها يجازيهم حين يرجعون إليه في يوم القيامة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى برهان الحركة في عدة آيات منها:

١ - يقول تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام: ٧٦ - ٧٩).

وانتقال الكوكب والقمر والشمس من البزوغ إلى الأفول يعني أنها متحركة وإذا تحرك الشيء صار حادثا وبذلك هو يحتاج إلى محدث، والمحدث قديم وهو غير متحرك، وهذا المحدث القديم وغير المتحرك هو الله تعالى.

٢ - يقول تعالى: (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) (النمل:٨٨).

وقد اختلف المفسرون في حركة الجبال:

١ - فالمفسرون القدامى قالوا: ان الجبال تمر مرّ السحاب قبل القيامة في أشراط الساعة (وقد تكلمنا عن هذا الأمر مفصلا في كتابنا المعاد من هدي القرآن والعترة).

٢ - وأصحاب الحركة الجوهرية قالوا: إن الجبل يمر أي يتطوّر كما يتطوّر الإنسان بداخله إلى أن يصل إلى حدٍّ يوصف فيه بأنه يمر مر السحاب.

٣ - النظرية العلمية: أصحاب هذه النظرية قالوا: بما ان الأرض تدور حول نفسها والجبال هي جزء من الأرض، فهي بذلك تدور وتتحرك مع دوران وحركة الأرض، وهو قوله تعالى (تمر مرّ السحاب) وبحركتها هذه لابدّ لها من محرك يحركها، وهذا المحرك هو الله جلت قدرته.



المحطة السابعة عشرة: بعض شبهات الملحدين والإجابة عليها



هناك بعض الشبهات التي أثارها الملحدون على النظرية الدينية ، وبعض هذه الشبه تسقط لأول تأمل، ولذلك فهي لا تستحق حتى الإجابة عليها والبعض الآخر يحتاج إلى جواب، ولذلك نحن في هذا البحث سنسلط الضوء على أهم تلك الشبه والتي منها:

الشبهة الأولى: شبهة وجود الشرور والآلام في العالم.

هذه الشبهة يعتبرها الإلحاديون من أهم الشبه، وكثيراً ما نادوا بها لضرب النظرية الدينية، وقد ربطوها بأمور عديدة منها:

١ - ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بقدرة الله تعالى:

حيث قالوا: ان النظرية الدينية قائمة على أساس أن الله تعالى قادر على كل شيء، ولّما كان قادراً على كل شيء فلماذا لا يدفع بقدرته هذه الشرور والآلام عن العالم؟

٢ - ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بتوحيد الله تعالى:

فقالوا: إذا كان الله واحداً أحداً، وهذا الواحد الأحد هو مطلق الكمال والكمال المطلق، فمن المناسب أن لا يكون في خلقه شر حسب مقتضى القاعدة، لأن الكامل لا يخلق شيئاً فيه شر؟

أقول: ولذلك نرى عبر التاريخ ان هناك من اعتقد بتعدد الآلهة، فمثلا الثنوية اعتقدوا بوجود إلهين احدهما للخير والآخر للشر، وهذه الشرور التي تجتاح العالم إنما تأتي من إله الشر، وكذلك الحال مع الذين اعتقدوا بوجود اله النور واله الظلام ،والنور كناية عن الخير والظلام كناية عن الشر.

٣ - ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بعدل الله تعالى:

حيث قالوا بما ان الله عادل، فعدله يقتضي عدم وجود الشرور والآلام، فكيف اذن تدّعون -ايها المتدينون- بعدل الله مع وجود كل هذه الشرور والآلام في العالم؟

أقول:

وهذا ما دفع غير أتباع أهل البيت عليهم السلام إلى القول بعدم الحسن الذاتي للأشياء وعدم القبح الذاتي لها، وفي الحقيقة هنا توجد العديد من الأبحاث التخصصية التي لا مجال لذكرها فلذلك سنوضح مسألة الحُسن الذاتي والقبح الذاتي للأشياء باختصار شديد:

فنقول: نحن أتباع أهل البيت عليهم السلام ولأننا اعتقدنا بوجود الحسن الذاتي والقبح الذاتي للأشياء، اعتبرنا مثلا أن الصدق حسنٌ بذاته، ليس لان الله تعالى أمر به فصار حسناً، وهكذا الحال مع العدل فهو حسن بذاته، والأمر ذاته يُقال مع الظلم، فهو قبيح بذاته وليس لان الله نهى عنه فصار قبيحا، أما غير أتباع أهل البيت عليهم السلام فلأنهم لم

يقبلوا بالحسن الذاتي للأشياء والقبح الذاتي لها، قالوا: إن الصدق أو العدل صار حسناً لان الله تعالى أمر بهما، أي اعتبروا الحسن للصدق أو للعدل حسناً تشريعياً وكذلك الحال مع قبح الظلم، فالظلم صار قبيحا لان الله تعالى نهى عنه فصار قبيحا.

٤ – ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بالحوادث الكونية العشوائية

قالوا إنكم تدعون ان الله تعالى خلق كل شيء حسب نظام الأحسن ﴿حيث **يقول تعالى:** (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...) **(السجدة: ٧)**﴾ والذي يخلق حسب هذا النظام لا يتناسب معه ان يخلق الأحداث العشوائية التي تقع كالزلازل والبراكين وغيرها فضلاً عن الآلام.

٥ - ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بالرحمة الإلهية:

قالوا: إذا كان الله هو رحماناً رحيماً كما تدّعون، فكيف خلق الشر والألم؟

٦ - ربطوا مسألة وجود الشرور والآلام بالحكمة الإلهية:

فقالوا كيف يمكن للحكيم ان يخلق الشرور والآلام؟

هذا جل ما ربطوا به شبهتم الأولى، وسنقدم أجوبة للمهم من تلك الأسئلة ضمن النقاط التالية:

النقطة الأولى: إن مسألة ربطهم ان الله تعالى خلق كل شيء بنظام الأحسن وهذا لا يتوافق مع خلقه الشرور والالام والحوادث الكونية فنقول: ما الذي تقصدونه من الشرور وما هي مصاديقه؟

نأخذ الألم كمثال على هذا الأمر للتوضيح:

من قال إن الألم سيء حتى تقولوا: إن الله خلق السيئ؟! فهناك العديد من الفوائد التي يتحصل عليها الإنسان جرّاء شعوره بالألم، ومنها مثلا:

١ – من خلال شعور الإنسان بالألم ينتبه إلى ان هناك خللاً في صحته، فيسارع لمراجعة الطبيب ليحافظ عليها، فلو لم يخلق الله تعالى الألم لما شعر الإنسان بهذا المرض ولفتك المرض بحياته دون علمه لعدم وجوده.

٢ - من خلال الألم يشعر الإنسان عندما يهاجمه أي حيوان يريد أكله أو سمه أو عضه، فمن خلال شعوره بالألم ينتبه ويبدأ بالدفاع عن نفسه ويحافظ عليها، ولولا وجود الألم لفتك الحيوان بحياته دون علمه لعدم وجود ما يُشعره بالألم خصوصاً إذا كان نائماً على سبيل المثال.

إذن، من خلال ذلك نكتشف أن الألم شيء حسن وليس سيئاً كما تقولون، لكن الفرق بيننا وبينكم هو أنكم تنظرون إلى الأمور من زاوية واحدة، ونحن ننظر إليها من جميع الزوايا، وإذا نظرنا إليها من جميع الزوايا سنعرف مدى أهمية خلق الألم، فلولاه لما استطاع الإنسان العيش براحة أبدا.

النقطة الثانية: ثم من قال إن الحكمة أو القدرة الإلهية تتعارض مع مسألة الشرور والآلام؟ دعونا نوضح ذلك من خلال الآتي:

ان طبيعة عالم المادة هو التغيير، والتغيير يولد اقتراناً بين الخير والشر، فهل تريدون ان تتدخل القدرة الإلهية أو الحكمة الإلهية بالمحالات العقلية[1]؟

إن الخلل في المحالات العقلية فيها لا في القدرة الإلهية، أو كما قالوا: إن النقص في قابلية القابل لا في فاعلية الفاعل، وهذا ما تؤكده الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام:

فعن محمد ابن إسحاق قال: إن عبد الله الديصاني سأل هشام بن الحكم قال له: ألك رب؟ فقال: بلى، قال: أقادر هو؟ قال: نعم قادر قاهر، قال: يقدر ان يدخل الدنيا كلها في بيضة لا تكبر البيضة ولا تصغر الدنيا؟ قال هشام: النظرة (المهلة)، فقال له: أنظرتك حولا، ثم خرج عنه فركب هشام إلى أبي عبد الله عليه السلام فاستأذن عليه فأذن له فقال له: يا ابن رسول الله أتاني عبد الله الديصاني بمسألة ليس المعول فيها إلا على الله وعليك، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: عن ماذا سألك؟ فقال: قال لي: كيت وكيت، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا هشام كم حواسك؟ قال: خمس، قال: أيها اصغر؟ قال الناظر، قال: وكم قدر الناظر، قال: مثل العدسة أو اقل منها، فقال له: يا هشام! فانظر أمامك وفوقك واخبرني بما ترى، فقال: أرى سماء وأرضا ودورا وقصورا وبراري وجبالا وانهارا، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ان الذي قدر ان يدخل الذي تراه العدسة او اقل منها قادر ان يدخل الدنيا

---

(١) المحالات العقلية: كأن يقول احد لماذا لا يجعل الله المربع دائرة، وهذا لا يتعارض مع قدرة الله ولكن عند ذلك سوف لا يكون هناك مربع.

كلها البيضة لا تصغر الدنيا ولا تكبر البيضة، فأكب هشام عليه وقبّل يديه ورأسه ورجليه وقال: حسبي يا ابن رسول الله وانصرف إلى منزله»[1].

وعن محمد بن أبي عمير، عن عمر بن أذينة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: هل يقدر ربك ان يدخل الدنيا في بيضة من غير ان يصغر الدنيا أو يكبر البيضة؟

قال: ان الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز، والذي سألتني لا يكون[2].

وكأن الإمام عليه السلام يريد الإخبار بأن العجز ليس بالله - حاشاه - وإنما العجز في البيضة فهي التي لا تستطيع تحمل الدنيا، أي إن الله الفاعل قادر ولكن القابل لا يقدر على التحمل.

كذلك الحال مع الألم والشر، فليس الأمر أن الله يستطيع ان لا يخلق الألم والشر وإنما هو أن الإنسان لا يستطيع العيش من دونه كما أسلفنا سابقا.

وبعبارة أوضح: إن الله تعالى لم يخلق إلا الكمال، والشرور أمور عدمية كما بُين في محله، وأما الآلام فكثير منها هي مقتضيات عالم المادة الذي يعني التنافس وبالتالي احتمال الخسارة في كل شيء، وهذا ما يولّد الألم في الإنسان

---

(١) الكافي: ج(١) - ص ٧٩، ح(٤).

(٢) التوحيد (الشيخ الصدوق) - ص ١٢٩، ح(٩).

أقول:

هناك بعض علماء الكلام من قال: ان الله تعالى لم يخلق الألم والشر وإنما عدم وجود الخير يعني الشر والألم وهو بذلك لا يحتاج إلى علة لخلقه حاله حال الظلام فعدم النور يعني ظلاماً أي ان الظلام أو الشر أو الألم هي ليست أشياء مستقلة بذاتها.

النقطة الثالثة: قالوا ان الشرور والآلام تتعارض مع الرحمة الإلهية، ونقول: من قال ذلك؟

وللتوضيح نطرح عليكم السؤال التالي:

لو مرض احد أبنائكم واقتضى علاجه ان يكون الشراب الشافي له مراً بحيث لا يستسيغه الطفل، فهل يترك الطفل ليموت أو يعطى ذلك الشراب رغم مرارته وعدم استساغته؟

سيجيب كل واحد منكم بكل تأكيد: نعم، نعطيه ذلك الشراب المر.

فنقول له: أنت أعطيته ذلك الشراب ليس من باب التعذيب له، وإنما من باب رحمتك به، لأنك وازنت بين الشر الذي يراه الطفل في ذلك الشراب المر، وبين الخير الذي سيحصل عليه (وهو حفظ حياته) من خلال شُربه، وعندما وازنت بين الأمرين اكتشفت ان الخير اكثر بكثير من الشر، وهذا لا يمنع ان تعطيه الشراب رغم مرارته.

كذلك الحال مع وجود الشرور والآلام في العالم، فهي لا تتعارض مع رحمة الله بعباده ، بل لأنه رحيم بهم كان ذلك ليصقل جواهرهم فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

وبعبارة أوضح: لأنه تعالى رحيم بعباده فقد خلق العالم وفق مبدأ التنافس وقلة الفرص مما يعني أنه سيتم حرمان البعض من فرصته في

شيء ما، وهو ما نسميه نحن بالشرور، فهي أمور عدمية، وإنما كانت مقتضى هذا العالم رحمة بالعباد، لأنها ستكون محوراً من محاور الاختبارات التي ستكون درجات الآخرة وفقها.

الشبهة الثانية:

من ضمن الأسئلة التي طرحوها: لماذا لم يخلق الله عالماً خالياً من الشرور والآلام؟

فنقول: ومن قال ان الله لم يخلق مثل ذلك العالم، فالله تعالى خلق عالما يسمى بعالم المجردات وهو من العوالم الموجودة ونعتقد بها، وذلك العالم يخلو من الشر والألم، وكذلك خلق الله عالماً آخر يسمى بعالم المثال (عالم البرزخ النزولي)[1]، وهو أيضاً يخلو من الشر والألم، وكذلك خلق الله تعالى عالم الجنة (وهي ما بعد عالم الدنيا) وهي أيضاً تخلو من الشر والألم.

الشبهة الثالثة:

قالوا: لماذا لم يخلق الله عالم الدنيا خالياً من الشر والألم؟

فنقول:

ان عالم الدنيا هو عالم صورة ومادة، وعالم تغير وحركة (كما قلنا)، ولا احد يستطيع إنكار هذه الحقيقة، وهذا التغير والحركة يولد احتكاكاً، وهذا الاحتكاك يولد اقتراناً بين الخير والشر.

---

(١) عالم المثال (عالم البرزخ النزولي): هو عالم سبق عالم الدنيا وهو يخلو من التكليف وقد وضحنا ذلك بالتفصيل في كتابنا المعاد فمن أراد المزيد فليرجع إليه.

بعبارة أخرى:

ان عالم المادة (الدنيا) بطبيعته وتكوينه لابدّ ان يكون فيه الخير بالأصالة والشر بالعرض، وللتوضيح نأخذ النار كمثال:

فالنار موجودة في عالم المادة، والنار بطبيعتها محرقة، ولا احد يستطيع إنكار هذه الحقيقة أو يأتي بنار في عالم المادة لا تحرق، ونحن كبشر حاجتنا للنار ضرورية في حياتنا اليومية، فهي تدخل ضمن الاستعمال البشري اليومي، وتدخل ضمن الصناعات وغيرها.

إذن، أصل خلق النار للخير، ولكن إذا استعملت لإحراق شخص مثلاً، فهنا يكون الشر عرضاً فيها، فهي ضمن استعمالها بمجالاتها الصحيحة خير، ولا يختلف اثنان على هذا الأمر، ولكن إذا استعملت بالمجال الخاطئ فعند ذلك ستكون مضرة، وهذا الضرر عرضي وليس أصلي ، فالله تعالى خلق النار لكي يستفيد منها الإنسان في حياته، وليس لكي تضره، ولهذا قال بعض علمائنا: ان الشر ملازم لوجود الخير.

أقول:

وملازمة الشر لوجود الخير لا يستطيع حتى أبناء المادة ان ينكروها، فهم عندما اكتشفوا الكهرباء اكتشفوها ليستفيد منها الإنسان في حياته وأعماله، وليس لكي تضره، فوجود الكهرباء خير إذا استعمل في مجاله الصحيح، ولكنه يصبح شراً إذا استعمله الإنسان في المجال الخاطئ له، ولا يستطيعون ان يأتوا بأشياء تخلو من الخير والشر.

الشبهة الرابعة:

من جملة الشبه التي طرحوها هي: لماذا خلق الله السم في الأفعى؟ إذ السم من الشر.

الجواب:

من قال ان السم في الأفعى هو شرٌ؟ ألم يثبت الطب الحديث أن سم الأفعى يمكن استخدامه كمصلٍ طبي لمعالجة الكثير من الأمراض، بالإضافة إلى أن الأفعى نفسها إذا استخدمت السم للدفاع عن نفسها فهذا أمر حسن بالنسبة لها، فكما زود الله تعالى الإنسان بما يدافع به عن نفسه، وزود النباتات والحيوانات بما تدافع به عن أنفسها، كذلك زود الأفعى بما تدافع به عن نفسها عندما تشعر بخطر ما يداهمها، وبذلك يتبين ان الله تعالى عندما خلق السم في الأفعى خلقه للخير فعلى مستوى البشر من خلال استخدامه في معالجة الأمراض، أو على مستوى دفاع الأفعى عن نفسها أيضاً، ولكن النظرة الضيقة والأحادية للأشياء هي التي جعلتهم يقولون مثل هذا الكلام، فلو نظروا للأشياء من جميع الزوايا لما طرحوا مثل هذه الأسئلة الواهية.

أقسام الشرور.

وهنا بإمكاننا ان نقسم الشرور الموجودة إلى قسمين:

القسم الأول: الشرور الإرادية.

وهي الشرور التي تأتي نتيجة أعمال البشر، وهو ما يوضحه قوله تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ...) (الروم: ٤١).

القسم الثاني: الشرور اللاإرادية.

وهي التي تأتي نتيجة للقوانين الطبيعية كالفيضانات والزلازل وغيرها.

الشبهة الخامسة:

من ضمن ما قالوه: لماذا اوجد الله تعالى هذه الكوارث الطبيعية كالفيضانات؟ إذ إنها شر على العالم.

نقول: نظرتكم الأحادية للأمور هي التي جعلتكم تحكمون هذا الحكم، فالله تعالى عندما خلق البحر خلقه لفائدة البشر، ومن هذه الفوائد:

١ - ماء البحر: فالله تعالى خلق كل شيء من الماء وهو قوله تعالى: (...وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...) (الأنبياء: ٣٠)، أي انه تعالى خلقه لتعيش عليه الكائنات الحية الموجودة في العالم.

٢ - طعام البحر والحلي المُستخرج منه: فالإنسان يتغذى على بعض أنواع الأسماك وغيرها ويستخرجها من البحر ، وكذلك الحلي (كاللؤلؤ والمرجان) المُستخرج منه، ومنه قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا...) (النحل: ١٤).

٣ - النظام الاقتصادي: فهناك العديد من الدول يقوم نظامها الاقتصادي على الاستفادة من البحار والموانئ كما يقول تعالى: (...وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ...) (النحل: ١٤).

فهل بعد كل هذا يكون خلق البحر سيئاً وشراً على العالم؟!

نعم هو يكون شراً إذا اعتدى الإنسان على الطبيعة وتجاوز عليها، فسيكون هناك رد فعل عكسي للطبيعة، ولهذا قسمت النظرية الدينية الأخلاق إلى أربعة أقسام، وهي:

١ - منها ما يرتبط بالله تعالى.
٢ - منها ما يرتبط بالنفس: كالتهذيب وغيرها.
٣ - منها ما يرتبط بالناس.
٤ - ومنها ما يرتبط بالطبيعة.

فإذا اعتدى عليها الإنسان فمن الطبيعي ان يكون لها رد فعل عكسي عليه، أما إذا تعامل معها حسب مقتضى الأخلاق فعلى العكس ستكون مسخرةّ له، وهذا ما أكده الله تعالى في كتابه في الكثير من الآيات.

وأخيرا نقول:

إن وجود هذه الشرور والآلام ليس سيئاً كما يدعون، وإنما هي رحمة إلهية كما بينّا سابقا، فمن خلال الألم ينصقل جوهر الإنسان ويظهر معدنه الحقيقي، وإذا عدنا إلى حياة اغلب المخترعين والمكتشفين سنجدهم عاشوا الألم والحرمان منذ طفولتهم ولذلك صاروا علماء ومكتشفين وهذا ما لا توفره حياة الرفاهية عادة، وإذا كان الابتلاء أو الألم خيراً للإنسان فمن هنا تكون نظريتهم قد سقطت من الأساس.

الملاحق

الملحق الأول: التفكر في ثقافة القرآن الكريم:



دعا القرآن الكريم للتفكر في كل المجالات، وهكذا روايات أهل البيت عليهم السلام، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[1].

ومن هذه المجالات ما يلي:

المجال الأول: التفكر في الآيات الآفاقية.

١ - يقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم: ٢٤).

في هذه الآية جعل الله تعالى البرق من آياته لأمرين:

الأول: الخوف، لكي يخاف الإنسان من قدرة الله تعالى وعظمته.

الثاني: الطمع، لكي يطمع الإنسان برحمة الله تعالى والتي تتجلى بنزول المطر الذي يحيي الأرض بعد موتها فتخضرّ وتصبح صالحة

---

(١) تفسير العياشي ج٢ ص٢٠٨.

للزراعة، وجعل كل هذه الأمور من الآيات التي تدعو للتدبر والتعقل في خلق الله تعالى وقدرته.

٢ - يقول تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ ، أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ، لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) (الواقعة: ٦٨ - ٧٠).

أما هذه الآية فهي تبين نعمة أخرى من نعم الله تعالى على الإنسان، وهي أنه جعل ماء المطر حلواً، فلو كان مالحا (أجاجاً) لما استطاع الإنسان ان يرتوي بالماء، ولما استطاع الزراعة به، ولما كانت هناك حياة على وجه الأرض. وهذه الأمور دعا الله تعالى الإنسان للشكر عليها.

المجال الثاني: التفكر في الآيات الأنفسية.

يقول تعالى: (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) (المرسلات: ٢٠ - ٢١).

هذه الآية من الآيات التي تبين أصل خلق الإنسان وهو الذي عبر عنه الحق تعالى في قوله بـ(ماء مهين) كما جاء معنى هذه الآية في كتب التفسير «(ألم نخلقكم من ماء مهين) قال: منتن»[1]، فالقران الكريم عندما يبين أصل خلق الإنسان فهو بذلك يدعو الإنسان إلى التفكر بعظمة الخالق تعالى وعدم التكبر والتعجب بالنفس، وهذا التفكر إذا كان في المجال الصحيح فإنه سيجرّ الإنسان إلى معرفة نفسه، وهذا يؤدي به إلى معرفة خالقه، كما يعبر الإمام علي عليه السلام عن ذلك بقوله

(١) تفسير القمي: ج(٢) - ص ٤٠٠.

﴿من عرف نفسه عرف ربه﴾[1]، وإذا عرف ربه عرف قدرة الله تعالى عليه وذلت نفسه في عينه فلا يتكبر، وبذلك يتوصل إلى المقامات العليا التي أراده الله تعالى أن يصل إليها فمن تواضع لله تعالى رفعه الله تعالى كما جاء في الأثر.

المجال الثالث: التفكر في هدفيّة الخلقة.

بعد ان دعا القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر في أصل خلقه دعاه إلى التفكر في الهدف والغاية التي خلقه الله تعالى من اجلها، وأسمى الغايات التي خلق الإنسان لأجلها هي الوصول إلى الكمال، والوصول إلى هذه المرحلة يأتي من خلال العبودية الخالصة لله تعالى، وفي كثير من الأحيان يعتقد الناس ان الهدف والغاية من الخلق هي العبودية، ولكن هذا الاعتقاد صحيح بالنظرة العامة، ولكن عند التدقيق نجد أن العبودية هي واسطة وسبيل للوصول إلى مرحلة الكمال، فالله تعالى غني عن عبادة عباده.

وقد يسأل سائل: إذا كان الله تعالى غنياً عن عبادة خلقه، فلماذا دعاهم إلى العبودية في قوله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات: ٥٦)؟

الجواب بيناه بما تقدم، من أن العبودية إنما جعلها الله تعالى واسطة للوصول إلى مرحلة الكمال التي خلق الإنسان لأجلها.

(١) عيون الحكم والمواعظ لليّثي ص٤٣٠ الباب ٢٤.

المجال الرابع: التفكر في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: (...لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ، فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ...) (البقرة: ٢١٩ - ٢٢٠).

أيضاً من المجالات التي دعا القرآن الكريم الإنسان للتفكر بها هي الدنيا والآخرة، ولكن السؤال هنا: كيف يمكننا ان نتفكر في الدنيا والآخرة؟

وعندما طرحنا هذا السؤال على القرآن الكريم وجدنا الجواب التالي:

التفكر في الدنيا وفي الآخرة يكون من خلال المقارنة بين الاثنين، فيكون ذلك من خلال:

أولا: التفكر في المحدود والمطلق.

يقول تعالى: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) (الأعلى: ١٦ - ١٧).

عندما يفكر الإنسان في محدودية الدنيا وفنائها وضيقها ويفكر في سعة الآخرة اللا محدودة (المطلقة) ويقارن بينهما يرى سفه الحياة الدنيا، وعندها سيقدّم الآخرة على الدنيا، ولهذا دعا القرآن الكريم الإنسان إلى التفكر في الدنيا والآخرة.

ثانيا: التفكر في التعب والراحة.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق: ٦).

عندما يقارن الإنسان بين الدنيا والآخرة يجد ان الدنيا في حقيقتها دار تعب ومشقة وليست داراً للراحة كما يصفها الإمام علي عليه السلام في

خطبته فيقول ﴿دار بالبلاء محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها،... العيش فيها مذموم والأمان فيها معدوم﴾[(1)]

فإذا جعل الإنسان عيشه في الدنيا لأجل الآخرة فهو بذلك يقدّم الآخرة التي هي الدار الحقيقية للخلود والراحة على الدنيا، أما إذا جعل عيشه في الدنيا لأجل الدنيا فهو بذلك سيبقى في حالة التعب والمشقة والألم ولا يحصل على الراحة التي ينشدها أبداً ومن هنا جاء ذم الإمام عليه السلام للدنيا بقوله (العيش فيها مذموم)، فالعيش الذي قصده الإمام ليس مطلق العيش وإنما العيش الذي يكون لأجل الدنيا فقط.

ثالثا: التفكر بقلة متاع الدنيا.

١ - يقول تعالى: (وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ) (آل عمران:١٨٥).

٢ - يقول تعالى: (وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ...) (العنكبوت: ٦٤).

وصف الله تعالى متاع الدنيا بأنه محدود وقليل (كما بينّا في المورد الأول) وكذلك وصفها بأنها دار لعب ولهو وهو كناية عن ذم الدنيا وذم العيش فيها لأجل اللعب واللهو، وعندما يفكر الإنسان في حقيقة الدنيا ووصف القرآن الكريم لها يرى كم هي فانية وزائلة ولا تستحق التكالب عليها والقتال لأجلها، بل على الإنسان ان يجعلها مرحلة وسطية (عابرة) للوصول إلى المرحلة النهائية وهي الدار الآخرة التي هي دار الحياة الحقيقية حيث المتاع الكثير اللا متناهي وغير المنقطع.

---

(١) نهج البلاغة: ج(٢) - ص ٢١٩.

الملحق الثاني: الشعور بالمسؤولية في ثقافة القرآن الكريم:



ونجد هنا أن الشعور بالمسؤولية قد وُزّع على العديد من المفردات، نذكر منها:

أولا: الشعور بالمسؤولية اتجاه الدين.

وما يشير إلى هذه المسؤولية هو قوله تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران: ١٠٤).

ثانيا: الشعور بالمسؤولية اتجاه المجتمع.

ومما يشير إليها هو قوله يقول تعالى: (...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...) (المائدة: ٢).

يقول تعالى: (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) (البلد: ١٧).

ثالثا: الشعور بالمسؤولية اتجاه الأسرة.

يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ...) (التحريم: ٦).

رابعا: الشعور بالمسؤولية اتجاه الجسم.

يقول تعالى: (...وَلَا تنس نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...) (القصص: ٧٧).

يقول تعالى: (...وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ) (الأعراف: ٣١).

خامسا: الشعور بالمسؤولية اتجاه النفس والعمر.

يقول تعالى: (...وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (الحشر: ١٨).

يقول تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا) (الشمس: ٩).

سادسا: الشعور بالمسؤولية اتجاه الأقارب واتجاه الجار.

يقول تعالى: (...وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...) (النساء: ٣٦).

الملحق الثالث: الضيافة الإلهية في ثقافة القرآن الكريم:



وهي تقع على قسمين أيضاً:

القسم الأول: ضيافة تكوينية عامة (الايجادية أو الوجودية).

وهذه الضيافة تشمل ضيافة الله تعالى لكل المخلوقات، حيث أوجدها من كتم العدم إلى حيز الوجود وهو ما يعبر عنه قوله تعالى: (...كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى...) (الرعد: ٢)، حيث ان المخلوقات التي خلقها الله تعالى وأوجدها تجري (تسير) إلى مدى محدد معين ومن ثم تنتقل من عالم إلى عالم آخر.

القسم الثاني: ضيافة تكوينية خاصة.

هذه الضيافة لا تشمل كل المخلوقات كالأولى إنما تقتصر على المخلوقات الشاعرة (العاقلة) التي تسير إلى كمالها، وهي على مراتب:

المرتبة الأولى: الضيافة العامة.

كضيافة شهر رمضان كما يقول تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...) (البقرة: ١٨٣)، فالنداء الوارد في الآية (يا ايها الذين) هو نداء للعموم في كل مكان وليس في مكان محدد.

ولكن يبقى السؤال: كيف تكون الضيافة هنا معنوية، أي ما هي الأمور التي يحصل عليها الإنسان؟

الجواب:

يحصل الإنسان من هذه الضيافة على الكثير من الثمرات، ومنها:

١ - غفران الذنوب.

٢ - النوم فيه عبادة

٣ - النفس فيه تسبيح.

٤ - عتق الرقاب من النار.

المرتبة الثانية: الضيافة الخاصة.

كطلب حج بيت الله الحرام في شهر رمضان كما ورد في الأدعية الخاصة في شهر رمضان (وارزقني حج بيتك الحرام)، فمن خلال الضيافة العامة (ضيافة شهر رمضان كما بينا) يطلب الإنسان الضيافة الخاصة وهي حج بيت الله الحرام، لان الحج يكون في مكان مخصص.

وفي الضيافة الخاصة أيضاً يحصل الإنسان على منافع كثيرة يبيّنها قوله تعالى: (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ...)

(الحج:٢٨)، فأحد هذه المنافع تبينها الآية وهو ذكر الله تعالى، ومن هذه الضيافة يطلب الإنسان الضيافة الأخص.

المرتبة الثالثة: الضيافة الأخص.

وهي ضيافة معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، وهذه المعرفة خلق الله تعالى الخلق لأجلها وتُطلب من خلال الضيافة الخاصة كما ورد في الحديث القدسي (كنت كنزا مخفيا فأحببت ان اعرف فخلقت الخلق لكي اعرف)[1].

(١) بحار الأنوار ج٨٤ ص١٩٩.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- نهج البلاغة.
٣- البرهان في تفسير القران.
٤- صحيح البخاري.
٥- صحيح مسلم.
٦- تفسير القمي.
٧- الامثل في تفسير كتاب الله المنزل.
٨- بحار الأنوار - العلامة المجلسي.
٩- الكافي للشيخ الكليني.
١٠- مناقب آل أبي طالب - ابن شهر آشوب.
١١- التوحيد - الشيخ الصدوق.
١٢- ميزان الحكمة.
١٣- الدر المنثور في تفسير المأثور – السيوطي.
١٤- تفسير مجمع البيان- الشيخ الطبرسي.
١٥- الميزان في تفسير القرآن.
١٦- الاحتجاج.
١٧- التحقيق في كلمات القرآن الكريم.
١٨- غرر الحكم
١٩- نهج السعادة
٢٠- إقبال الأعمال
٢١- الوافي- للكاشاني.
٢٢- تفسير العياشي.
٢٣- الأمالي للشيخ الطوسي.
٢٤- الاختصاص للمفيد.
٢٥- مسند أحمد.
٢٦- الفطرة- الشيخ مرتضى مطهري.

٢٧- تحف العقول للحراني.
٢٨- التفكر – السيد عبد الحسين دستغيب.
٢٩- النزعة الدينية بين الإلهيين والماديين.
٣٠- دور الدين في حياة الإنسان – الشيخ محمد مهدي الآصفي.
٣١- الله خالق الكون - الشيخ جعفر الهادي.
٣٢- تخلص من إلحادك.
٣٣- القاموس المحيط – الفيروز آبادي.
٣٤- أصل الأنواع – تشارلس داروين.
٣٥- زبدة التفاسير للكاشاني.
٣٦- التفسير الأصفي للكاشاني.
٣٧- عوالي اللئالي لأبن أبي الجمهور.
٣٨- الإلهيات للشيخ جعفر السبحاني.
٣٩- سحر الواقع لريتشارد دوكينز.
٤٠- حوارات سيدني لدوكنز.
٤١- موسوعة الكلام الإسلامي المعاصر الشيخ عبد الحسين خسروبناه.
٤٢- شبهات الملحدين والإجابة عنها.
٤٣- منهج التثبت في الدين / حقيقة الدين.
٤٤- عيون الحكم والمواعظ لليثي.
٤٥- المعاد من هدي القرآن والعترة- زمان الحسناوي.

فهرس المحتويات